بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

للدكتور مهدى علام

من مكتبتى

أعود مرة أخرى إلى رفوف مكتبتى ، لألتقى بأحد أصدقائى بها ، فأحدث قرائى عنه ، كما فعلت فى عدد من المقدمات التى صدرت بها أجزاء مجلتنا الموقرة .

هذا الصديق هو كتاب « أوهام شعراء العرب فى المعانى » تأليف المرحوم العلامة أحمد تيمور باشا . وترجع صلتى بذخائر تيمور الأدبية إلى نحو نصف قرن ، وترجع علاقتى بهذا الكتاب إلى ثلث قرن . ففى منتصف الثلاثينيات كنت أشتغل ببحث رجعت فيه إلى المخطوطات فى « الخزانة التيمورية » التى كانت تحتل قاعة خاصة بها فى دار الكتب المصرية ، بباب الخلق . ولم يبهرنى يومئذ ماعثرت عليه هناك من المخطوطات النادرة المتصلة ببحثى ، قدر مابهرنى من التعليقات التحقيقية التى وُشِّيَتْ بها صفحات الكتب التى تملأ الخزانة التيمورية . إن عناية المرحوم أحمد تيمور باشا بجمع الذخائر العلمية كانت أمراً معروفاً لأهل الأدب والثقافة ، أما التعليقات والحواشى التى خطها هذا العالم بخطه الواضح الجميل على صفحات كتبه فلم يكن يعرفها ، ويعرف قيمتها ، إلا من اطلع عليها . وقد بهرنى منها أمران : غزارتها ودقتها . أما غزارتها فتبدو لكل مطلع عابر ، يقلب الكتب ويتصفحها . وأما دقتها فلا تتجلى إلا للباحث الذى يسعى وراء تحقيق مسألة من المسائل . فإذا حدث أن مثل هذا الباحث المتخصص رجع إلى أحد الكتب أو المخطوطات التى فى هذه الخزانة الميمونة ، ألفى أن ما خطته يد ذلك الشيخ الجليل ، لم تكن خواطر عابرة ، مما يجده المرء عادة على هوامش بعض الكتب ، بل كانت تحقيقات علمية يثرى بها العلم ويستنير بها الباحث .

وكانت إشاراته يلاحق بعضها بعضا ، ويكمل بعضها بعضا . فمثلا ، إذا علق فى موضع من كتاب على مسألة ، قال : ولهذه المسألة تكملة أو معارضة فى صفحة كذا من الكتاب الفلانى ، ثم نجد فى ذلك الكتاب الآخر إشارة إلى ما فى الكتاب الأول ، وهكذا على نسق ما هو

متبع فى أدق نظم المراجع والفهارس ، مما هو معروف باسم Cross - references أو ما يمكن تسميته بالإشارات المتقاطعة .

لقد كنت أتعقب تاريخ شاعر أندلسى عظيم ، نسيه الزمن ، ولم تنتبه له كتب الأدب إلا نادرا ، ولم يظفر بحظ فى كتب التاريخ المتداولة ؛ حتى « دائرة المعارف الإسلامية » لم تَجُدْ عليه ، ولا على مؤلّف من مؤلفاته بكلمة واحدة . ولكننى وجدت فى مخطوط من مخطوطات تيمور العظيم ، تعليقات تشير إلى بعض المراجع التى فيها شذرات عن ذلك الشاعر العظيم : « حازم القرطاجنى » . (كتبت عنه بعد ذلك فى « حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس » العددان الأول والثانى سنة ١٩٥١ ، ١٩٥٢)

ولكم تمنيت يومئذ أن يتيح الله من يدرس هذه التعليقات ليضم مؤتلفها ، ويمحص مختلفها ، ليكون ذلك فى متناول العلماء والباحثين .

ولم أكن أعلم أن تيمور العظيم كان قد قام هو نفسه بذلك ، أو ببعضه على الأقل ، مما تولت إخراجه فيما بعد « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » . وكان من حظى أن عهدتْ إلى هذه اللجنة فى سنة ١٩٤٩ تحرير بعض هذه المؤلفات والتقديم لها .

وهذا هو الكتاب الذى أتحدث عنه اليوم ، بعد أن تحدثت عنه فى ديسمبر ١٩٤٩ — جمع تيمور فى هذا الكتاب « أوهام شعراء العرب فى المعانى » : جمعها من لسان العرب ، والمزهر ، والأغانى ، والخصائص ، والعقد الفريد ، ومحاضرات الأدباء ، والتنبيهات ، والوساطة ، ومجالس أبى مسلم ، والموشّح ، وسفر السعادة ، وخزانة الأدب ، وشروح الدواوين الشعرية المختلفة ، وغيرها من الكتب التى قرأها وعلق عليها .

ولم يكن تيمور العظيم فى هذا الكتاب متعقباً لأخطاء الشعراء ، كما لم يكن ، فى أى تعليق من تعليقاته ، متعقبا لأخطاء الكتاب والمؤلفين ، حبا فى تسجيل خطأ المخطئين ، بل كان يريد تصويب الأمر بتسجيل الصواب ، ووضع الأمر فى نصابه ، فهو ليس من العيابين الذين يتصيدون الهفوات ، أو يختلقونها ، بل كان من المصلحين . يتجلى ذلك فى مناقشته لآراء النقاد الذين يخطّئون الشعراء فى معانيهم . فهو لايفرح باكتشاف خطأ ليسجله شأن فقراء النفوس ، وفقراء العلم ؛ ولكنه كما يتعقب الشعراء ، يتعقب النقاد وينصف أولئك من هؤلاء . فعل ذلك فى ثلاثة مواضع : حين أنصف أبا النجم من ابن قتيبة وأبى هلال العسكرى (ص ١٦) ؛ وحين أنصف النابغة الذبيانى من الأصمعى وأبى عمرو بن العلاء

(ص ٢٤) ؛ وحين أنصف زهير بن أبي سلمى من مؤلفي العقد الفريد ، والوساطة ، والموشح ، وسر الفصاحة ، والموازنة ، والصناعتين ، وطبقات الشعراء ، فقد اتهموه بالخطأ حين وصف الضفادع بأنها تخرج من الماء على جذوع الشجر «يَخَفْنَ الغمَّ والغَرَق» لأنها إنما تخرج لتبيض وتفرخ في الشطوط . واستشهد تيمور بقول من برأ زهيراً من الخطأ : إنه لم يرد أنها تخاف الغرق على الحقيقة ، وإنما أراد المبالغة في كثرة الماء (ص ٣٥)(١)

وبهذه المناسبة سألني أحد الطلاب يوماً ، وأنا أتكلم عن قول المتنبي في وصف حسّاده ؛ إذ يضرّهم إنشاد قصائده كما تضرّ رياحُ الوَرْد بالجُعَل (نوع من الخنافس) :

بِذي الغَباوةِ من إنشادها ضرر كما تُضِرُّ رياحُ الورد بالجُعَلِ

أصحيح أنّ الجعل يضرُّ بها ريح الورد ؟ فكان جوابي : أنني لم أقم بتجربة أتبين منها صحة ذلك ؛ وأغلب الظن أنها لاتضر بها ، وإنما تصوّر المتنبي أن الجعل تتأذى بريح الورد لأنها تعيش في بيئة قذرة ، ولعل ذلك من أوهام الشعراء . ولم أكن أدرى يوم قلت ذلك أنه سيصبح من حسن حظي أن أكتب مقدمة لكتاب في « أوهام الشعراء في المعاني » لعالم من أعاظم علمائنا . تغمده الله تعالى برحمته .

محمد مهدى علام

الأمين العام للمجمع والمشرف على المجلة

---

(١) إني أعجب أنه لم يخطر ببال هؤلاء الأفاضل أن ذلك قد يكون من قبيل « حسن التعليل » .

حياتنا الفكرية في نصف القرن الأخير

(٢)

للدكتور إبراهيم مدكور

اللغة الوطنية :

ولغتنا نفسها كانت موضع أخذ ورد ، فقيل : هل نفسح فيها المجال للفظ الأجنبي والدخيل ، أو نقاطعه ونحرمه ؟ ودار حول ذلك نقاش وجدل طويل ، ثم انتهينا إلى أنه ليس ثمة غضاضة فى أن نعرّب كما عرّب الأقدمون ، وأن نضيف إلى ثروتنا اللغوية الموروثة ثروة جديدة مكتسبة تسد حاجة العلم والحضارة . وتساءلنا أيضاً أنقف عند العامية أو نحل محلها الفصحى ؟ وكان لكل من الجانبين أنصار وأعوان . ولم يبق اليوم شك فى أن العربية هى اللغة الوطنية ، وفى وسعها أن تحل محل العامية واللغات الأجنبية . وسبق لسعد زغلول أن خطا فى العقد الأول من هذا القرن خطوة فى سبيل تعريب التعليم الابتدائى والثانوى ، ثم تابعنا السير وخطونا خطى بعيدة ، فعُرِّبت مرحلة التعليم العام جميعه فى الربع الثانى من هذا القرن ، فيما عدا مدارس اللغات ، وقُطِع شوط كبير فى تعريب التعليم العالى والجامعى . والعربية التى ننادى بها تختلف عن عربية القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، فنحن نريد لها أن تكون ملائمة لروح العصر . تمقت الغرابة والتعقيد ، وتتخلص من الصنعة والزخرف اللفظى ، وتبدو سهلة سائغة . ويراد لها أيضاً أن تكون يسيرة فى تعليمها وتعلمها ، فيتخفف ما أمكن فى نحوها وصرفها ، ويسلك فى كتابتها وإملائها أيسر السبل ويراد بها فى اختصار أن تكون لغة الخاصة والعامة على السواء ، لأنا أصبحنا لا نستسيغ الامتيازات الثقافية والاجتماعية ، ولا نسلم بما كان يسمى : « الأرستقراطية الفكرية » ، ورددت تلك العبارة الشهيرة ، وهى « أن التعليم للإنسان كالماء والهواء » .

ويلحظ أن العامية عادت فشمخت بأنفها بعض الشيء فى ربع القرن الأخير ، وذلك راجع فى الغالب إلى قصور فى التعليم ، وضعف لدى بعض من يحترفون الكتابة : وربما كان للغة السياسة دخل فى هذا أيضاً ، وقد قيل يوماً : « إن العامية أصبحت لغة الدولة الرسمية » . وبقدرما عزّز سعد زغلول

الفصحى فى ثورة سنة ١٩١٩ . أصابها ما أصابها فى ثورة عام ١٩٥٢ . ولكنى على يقين من أن تلك أمور عارضة ، وأنه لا معدل عن الفصحى بحال .

وتدور حياتنا الفكرية بوجه عام حول أبواب ثلاثة رئيسية ، هى التحقيق والنشر ، والترجمة والتعريب ، والبحث والتأليف ، وسنقف عند كل واحد منها وقفة قصيرة . ولن نعرض للجوانب السياسية والاجتماعية ، لأنها تتطلب حديثاً خاصاً : بل أحاديث .

(ا) التحقيق والنشر :

اعتداداً بتراثنا رغبنا فى إحيائه . وقد سبقنا إلى ذلك بعض المستشرقين فى القرن الماضى ، ورسموا له مناهج علمية دقيقة . وحاولنا أن نسهم معهم ، وخطونا فى ذلك خطوات فسيحة فى نصف القرن الأخير . وبخاصة يوم أن سلمت جامعاتنا بأن تحقيق النصوص يدخل عن جدارة فى الدراسات الجامعية . وتراثنا خصب فسيح ، فيه علوم دين ودنيا ، فيه تفسير وحديث وفقه . فيه أدب ولغة ونحو وصرف ، فيه تاريخ وقصص ، فيه كلام وفلسفة ، ورياضيات وطبيعيات . وهو بلا شك من أغنى مخلفات الحضارات القديمة والوسطى ، ولا أدل على هذا من إحصاء قام به حاجى خليفة إبان القرن السابع عشر ، وقدمه فى كتابه : « كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون » .

ويشتمل هذا الكتاب الضخم على ٣٠٠ فن ، وعلى عدة آلاف من المؤلفين ، وعلى نحو خمسة عشر ألف كتاب ، وأيد هذا إحصاءات وكشوف أخرى حديثة ومعاصرة . وأصبح هذا التراث الوفير جانباً هاماً من جوانب حياتنا الفكرية ، وله نسبة ملحوظة فيما تخرجه المطبعة العربية كل عام . وبذلت فى سبيله جهود مختلفة ، للكشف عنه وجمعه ، أو تحقيقه ونشره . ودارت حوله دراسات متصلة لشرحه والتعليق عليه ، واستطعنا فى ضوئه أن نتدارك نقصاً ، ونصحح خطأ ، أو نوضح غامضاً فى تاريخ الفكر الإسلامى . بدأنا فى إحيائه منذ أخريات القرن الماضى ، وأخرجنا منه على عجل قدراً لم يؤخذ فيه بمنهج التحقيق العلمى . وأجوده ما اضطلعت به هيئات متخصصة أو كان ثمرة دراسات جامعية للماجستير أو الدكتوراه . ومما يؤسف له أن قدراً من هذا التحقيق الجامعى لم ير النور بعد .

وللعلوم الإنسانية ، وبخاصة الأدب واللغة ، نصيب ملحوظ فيما حقق ونشر . وما أحوجنا أن نعنى بالعلوم الطبيعية والرياضية التى شغل بها الغرب قبلنا ، وكان لها شأن فى تاريخ الفكر الإنسانى ، ومنها ما ترجم قديماً إلى اللاتينية والعبرية ولم نقف بعد على أصله العربى ، وفى وسع مجمعكم أن يسهم فى هذا بنصيب .

(ب) الترجمة والتعريب :

الترجمة وسيلة هامة من وسائل ربط الثقافات بعضها ببعض ، وتبادل الآراء ، والأفكار وقد أخذ بها قديماً وحديثاً ، وهى اليوم أداة اتصال سريع ومباشر . وفى صدر الدولة العباسية قامت حركة ترجمة إلى العربية تعد من أخصب الحركات الفكرية فى التاريخ القديم والمتوسط ، كانت خصبة فى موضوعاتها ، ففيها أدب وعلم وفلسفة ، وخصبة فى أصولها ومراجعها ، فنقلت عن الهندية والفارسية ، كما نقلت عن السريانية واليونانية واللاتينية ، وخصبة أخيراً فيمن اضطلعوا بها ، فلم تفرق بين مسلم ومسيحى بل كان أغلبهم من المسيحيين ، ولا بين عربى وعجمى ، بل كان أغلبهم غير عربى . وآتت أكلها على أكمل وجه ، وكان لها أثر واضح فى النهضة العلمية الإسلامية .

وفى التاريخ المعاصر صاحب نهضة محمد على التعليمية حركة ترجمة تزعمها رفاعة الطهطاوى ، واحتفظ لنا الزمن بقدر من ثمارها . ثم توقف السير أو كاد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكأنما شاء لطفى السيد فى الربع الأول من القرن العشرين أن يوجه النظر مرة أخرى نحو الأصول اليونانية القديمة ، وكان معجباً بمولاه أرسطو . فترجم سلسلة من كتبه ، بدأها بكتاب الأخلاق ، وعول فيها على ترجمة بارتلمى سانتهيلر الفرنسية . وبصرف النظر عما يؤخذ على صنيعه من مآخذ ، فإنه جاء مؤشراً للاتجاه نحو الترجمة والعناية بها . وقد دفعت الدراسات الجامعية فى الربع الثانى من هذا القرن نحو ترجمة متنوعة فى الأدب والعلم والفلسفة ، نقلت عن الفرنسية والإيطالية ، أو عن الألمانية والإنجليزية ، وانصبّ معظمها على دراسات حول آراء ومذاهب ، أو حول أشخاص ومدارس ، ووقف قسط ضئيل منها على النصوص . واضطلع بمعظمها متخصصون يفقهون ما يترجمون ، ويعرفون كيف يؤدونه بالعربية أداء حسناً إلا أن هذه جميعها إنما كانت ثمرة جهود فردية ومحدودة وكأن باحثينا يؤثرون التأليف على الترجمة ، ولست أدرى إن كنا لا نزال نحرص اليوم على التمكن من لغة أجنبية واحدة على الأقل ، كما كنا نفعل بالأمس ؟ والتمكن من اللغات المنقول منها والمنقول إليها هو السلاح الأول للترجمة السليمة .

وعلى كل حال لا نزال فى حاجة ماسة إلى حركة ترجمة أنشط وأوسع تضطلع بها هيئات تسهر عليها ، وتسهم فيها الدولة إسهاماً أكبر . وقد رسمت فى ذلك خطط ، ووضعت مشروعات لم تأخذ فى جد سبيلها إلى التنفيذ . وهناك كتب أمهات تتبادلها اللغة الحية فيما بينها ، وما أجدرها أن تترجم وتزود بها المكتبة العربية . ولست فى حاجة أن أشير إلى أن هناك بحوثاً تنقل من لغة حية إلى أخرى ولما يمض على ظهورها بضعة أشهر .

وإذا كنت أدعو إلى تزويد المكتبة العربية بثمار الفكر الإنسانى فى اللغات الحية ، فإنى آمل أن يكون لنا إنتاج تتسابق هذه اللغات إليه ، وتسعى إلى ترجمته ، أو نضطلع نحن بالتأليف فى هذه اللغات على نحو ما صنع بعض مفكرينا ومبعوثينا .

(ج) البحث والتأليف :

لنا فى نصف القرن الأخير بحوث ومؤلفات متعددة ومتنوعة ، وفى كثير منها عمق ودقة ، وابتكار وأصالة ، ويمكن أن يقارن بنظائره فى اللغات الحية . وتكاد تستوعب بحوثنا أبواب الفكر الإنسانى جميعها ، فشغلت بالعلوم الإنسانية كما شغلت بالعلوم الرياضية والطبيعية . والعلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول فى قمة الدراسات الإنسانية ، وقد اضطلع بها أساتذة أجلاء كشفوا عما فيها من عمق وأصالة . وعُنِى مؤرخونا بالحضارة الإسلامية عناية كبيرة ، فوضحوا كثيراً من جوانبها . وقام مؤرخون آخرون بحفريات حول الحضارات القديمة من فرعونية ، ورومانية ، أو بابلية وآشورية. وحاول مؤرخو الفكر والفلسفة أن يعرفوا بمدارس إسلامية غفل الناس عنها ، وأن يترجموا لرجال بقوا مستورين فى غياهب التاريخ . وقام بعض علماء الاجتماع بدراسات حقلية هامة ، ومن بين علماء النفس من اضطلع ببحوث وتجارب دقيقة .

ونحس اليوم إحساساً صادقاً بأنا نعيش فى عصر العلم والتكنولوجيا ، فى عصر الملاحظة والتجربة . وأعددنا لذلك عدته من معامل ومراصد ، من محطات تجارب ومراكز بحوث ، من معاهد ومؤسسات وأكاديميات علمية ، وأنشئت جامعات مستقلة للتكنولوجيا أو للبترول والمعادن ، واستكملت فروع الدراسات الطبيعية والرياضية على اختلافها ، من طب وفسيولوجيا ، وكيمياء وصيدلة ، ونبات وحيوان ، وجيولوجيا وبترول ، وطبيعة ورياضة ، وهندسة وميكانيكا ، وكهرباء وإلكترونيات . وفى كل فرع من هذه الفروع أساتذة متخصصون لهم آراؤهم وأبحاثهم بالعربية أو الإنجليزية ، ومنها ما نشر فى بعض المجلات العلمية العالمية ، أو ما كان محل تعليق وتنويه فى المؤتمرات الدولية . ومن بين هؤلاء الأساتذة أعلام يُعَدُّون فى مصاف الأطباء والعلماء العالميين ويرأسون أقساماً متخصصة تخصصاً دقيقاً فى جامعات إنجلترا والولايات المتحدة . ولدينا ما يزيد على أربعين جمعية علمية تتابع نشاطها وتنظم لقاءاتها ، وتنشر أبحاثها ، وقد تكون لبعضها صحيفة خاصة بها ، وعلى رأس هذه الجمعيات الاتحاد العلمى المصرى الذى يربطها بالاتحادات العلمية العربية والعالمية . ومما يؤسف له أن قدراً غير قليل من بحوثنا فى ربع القرن الأخير ينحو نحو الجمع والتلخيص ويتسم بطابع السطحية ، ولا يعنى كثيراً بالأصالة والتعمق ، وكثيراً ما جنت عليه السرعة والتعجل .

مسار الفكر الاسلامى :

لا سبيل لأن ندخل فى تفاصيل هـذه البحوث والدراسات ، ويعنينا أن نوجه النظر إلى جانب واحد منها ينصب على الفكر الإسلامى ومساره . ولا شك فى أن هذا المسار قد تغير وتبدل على مر الزمن ، وكسته عصور الانحطاط والظلمة بجمود وعمق عشنا معهما زمناً طويلا ، ففقدنا بصرنا وبصيرتنا ، وأهملنا عقولنا وتفكيرنا . وفى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن عدنا إلى أنفسنا ونعمنا بوعى جديد ينادى بفهم الإسلام على وجهه والعودة به إلى أصوله الأولى ، وصورته الحقة التى عرف بها فى عصور النهوض والازدهار . وسبق أن أشرنا إلى ما كان لمحمد عبده من شأن فى توجيه هذه الدعوة وحمل رايتها ، وقد حملها من بعده تلاميذ له وخلفاء فكشفوا بوضوح عن سماحة الإسلام ويسره ، واتساع آفاقه وقبوله للجديد النافع ، ودعوته إلى النظر والتأمل ، وإفساحه المجال للعقل ، وحثه على تحكيمه وحسن استخدامه . وفى ثقة هؤلاء الرواد والمصلحين بأنفسهم لم يخشوا مطلقاً طغيان الحضارة الغربية ، ولم يروا بأساً أن يأخذوا عنها ويفيدوا منها . وبالأمس البعيد قامت الحضارة الإسلامية الكبرى التى بزت الحضارات الأخرى وسمت عليها ، وتقبلت أفكاراً أجنبية كثيرة وفى وسعنا أن نستعيد مجدها ، وأن نطور ونجدد فى ضوء مثلها وقيمتها .

وفى الربع الثانى من هذا القرن تضافرت جهود صادقة على رسم هـذه الصورة وتوضيحها وبيان حقيقتها ومعالمها الأصيلة : فبرهن أمثال مصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمود شلتوت ، على أن فى التشريع الإسلامى مرونة تمكنه من متابعة التطور والتجديد ، وتسمح له بمواجهة متطلبات كل عصر وحاجاته وتشريع الكتاب والسنة نفسه إنما ينصب أساساً على الأصول والمبادىء العامة ، وعلى الفقهاء والمشرعين أن يعالجوا كل جديد فى ضوء ظروفه ، على أن يضعوا المصلحة العامة موضع الاعتبار وقد أدوا فى الماضى رسالتهم على وجه سديد. وحتى الجرائم وقفت الشريعة الإسلامية فيها عند الأصول والقواعد التى تحدد مفهوم الجريمة والمخالفة ، تاركة للقاضى والحاكم تقدير العقوبة الملائمة . ولم تشر إلا إلى عقوبات ثلاث جرائم كبرى هى : القتل والزنا ، والسرقة ، فاتحة الباب لدرء الحدود بالشبهات وبهذه الروح صيغت فى الربع الثانى من هـذا القرن قوانين الوقف والوصية والميراث وعنى فى الوقف خاصة بالوقف الخيرى ، وأخذ فى الميراث بالوصية الواجبة التى فتحت باب الإرث لأبناء الأبناء ، كى يحلّوا محل آبائهم الذين ماتوا قبل المورث . وقننت حقوق الأسرة من زواج ونفقة ، وطلاق ووصاية ، وقيدت بقيود تلائم العصر وتحترم حقوق المجتمع ، وخطونا أخيراً فى هذا السبيل خطوات فسيحة . وصيغ القانون

المدنى جملة على أيدى عبد الرازق السنهورى صياغة تلائم بين مبادىء المعاملات فى الإسلام ، وما أخذ به التشريع المدنى المعاصر فى أرقى صوره وأحكمها . وأصَّل على الخفيف التأمين فى الإسلام ، ووجد لشهادات الاستثمار سنداً فى الفقه الإسلامى ولست فى حاجة أن أشير إلى أن القائلين باطراح قوانيننا جميعاً ، والعودة إلى الفقه الإسلامى يغفلون ماضينا القريب والبعيد .

واستكمالا لهذه الصورة اتجه فريق آخر نحو سِيَرِ الأعلام فى الإسلام ، وفى هذه السِيَرِ هداية وإرشاد ، ودحض لشبه باطلة ، ورفض لقصص وروايات لا أساس لها ، وتقديم نماذج حية لما كان عليه الإسلام فى ثوبه الصافى ومظهره الحقيقى . ويكفى أن أشير فى هذا إلى كتب ثلاثة لهيكل هى : « حياة محمد » ، « وأبو بكر الصديق » ، والفاروق عمر ، وإلى كتابين للعقاد ، وهما : « عبقرية محمد » ، و « عبقرية عمر » ، وإلى آخرين لطه حسين ، وهما : « الفتنة الكبرى » ، و « على هامش السيرة » . ونحا أحمد أمين نحواً آخر ، فوقف نفسه فى العشرين سنة الأخيرة من حياته على تاريخ الحياة العقلية فى الإسلام ، ووضع فى ذلك على التوالى : « فجر الإسلام » ، و « ضحى الإسلام » ، « وظهر الإسلام » ، وفى هذا التوالى نفسه ما يؤيد فكرة التطور والتبدل ، وتلك سنة الحياة .

وتلتقى هذه المحاولات على اختلافها عند هدف واحد ، هو عرض تعاليم الإسلام فى صورها الحقة ، وهى لا تتنافى بحال مع النهوض والتقدم ، وتفسح المجال لحرية الفكر ويسلّم بما للعقل من سلطان .

خاتمــة :

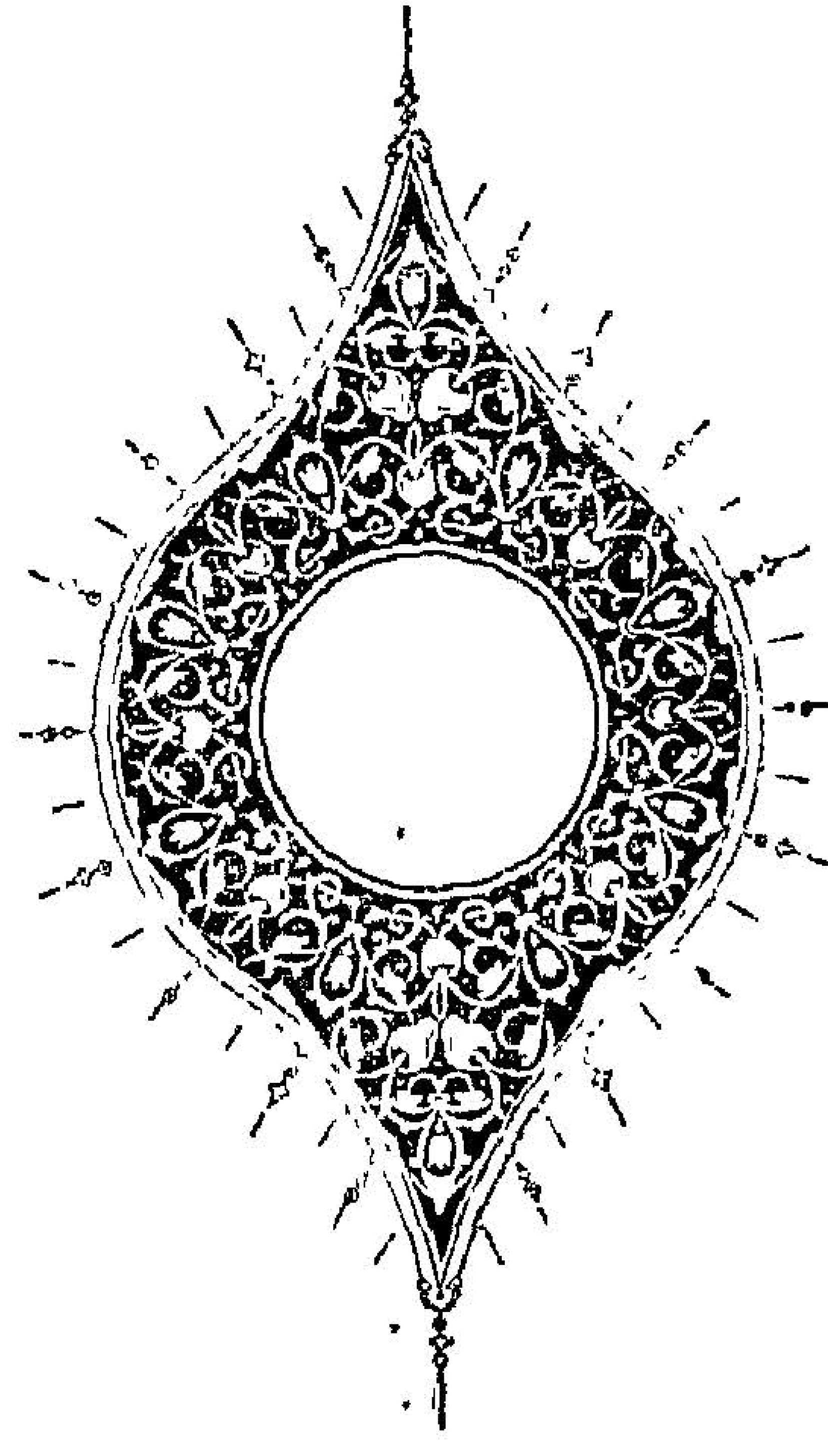
كل تلك جهود عشنا معها زمناً رغداً ، وسعدنا فيها بالمواءمة بين القديم والجديد ، ولم ترفض من ثمار الحضارة الغربية إلا ما يتنافى مع أصولنا ومبادئنا ، وسرنا فعلا إلى الأمام فى ثقة وطمأنينة ، وقطعنا شوطاً لا بأس به . ولكننا مع الأسف الشديد بُلينا فى الخمسينيات والستينيات بنكسة تهدم ولا تبنى . وتتنكر لكثير مما بنيناه فى النصف الأول من هذا القرن . تندد بما سمته الغزو الأوربى وتحاول ما استطاعت أن تضيق النافذة المفتوحة على الغرب . وتصور الإسلام بصورة قاتمة ، وتنادى بالرجوع إلى ما ليس من الدين فى شىء ، ولا يتلاءم مطلقاً مع سنن النشوء والارتقاء . ومكن الكبت والقهر لمثل هذه الاتجاهات أن تنبت فى منبت السوء ، وأن تعيش وتحيا تحت كنف الجمعيات السرية والخلايا الخفية ، وأن يتعصب لها عملاء أو جهلاء ، واختلط الفكر والدين بالسياسة ، فضلّ معها الطريق . ولا يخلو هذا الضلال والزيغ من تيارات خفية ومؤثرات خارجية ، هدفها الأول الهدم والتخريب برغم ما تزعمه من رغبة أكيدة فى البناء والتشييد . ولا سبيل

لحياة حقة ، فكرية كانت أو عملية ، إلا فى وضح النهار .

فلنعد لأنفسنا ، ولنستفد من تجاربنا القريبة ، ولنثبت أقدام الحرية ما استطعنا ، ولنحارب التستر وبث السموم فى الظلام ، « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ابراهيم مدكور
رئيس المجمع



المساهمون فى إحياء التراث

للدكتور أحمد الحوفى

أشار المقال السابق بطائفتين من العلماء الذين بذلوا جهوداً عظيمة محمودة فى الحرص على تراثنا وإحيائه هما طائفة العلماء والأدباء الذين كانوا يسهرون الليالى ، ويطربون لصرير أقلامهم كما يطرب الموسيقار لألحانه وأنغامه ، وطائفة الأثرياء أرباب المكتبات العامة والخاصة ، الذين كنزوا فى مكتباتهم عشرات الألوف من المخطوطات ، التى وصلتنا بماضينا العريق ، وأروتنا بنميره العذب .

وأما الطائفة الثالثة فهم النساخ الذين سكبوا نور عيونهم على الأوراق ، فحفظوا هـذه المخطوطات من الضياع والفناء ، إذ نهضوا بأعباء النسخ ، وبلغوا درجة عالية فى تجويد الخط وزخرفته ودقة النقل وأمانته ، سواء أكانوا ينسخون المخطوط من الأصل الذى كتبه المؤلف نفسه ، أم من نسخ أخر منقولة منه ، ولم يكن تكرير العمل ومشقته لتعدل بهم عن تجويد الخط ومراعاة أصول الضبط .

وأريد أن أنبه على أن بعضهم كانوا من العلماء والأدباء الكبار ، وكان آخرون من ذوى الوظائف العالية فى الدولة ، حتى إنهم تولوا القضاء والوزارة .

فمثلا كان فى مكتبة المأمون كثير من النساخ ، وكثير من التراجمة ، على رأسهم ثابت بن قرة وحنين بن إسحاق . أذكر من أولئك النساخ على سبيل التمثيل :

١ — أبو على محمد بن على المعروف بابن مقلة (٣١٦ هـ) كان جيد الخط ، يضرب بخطه المثل ، لا ينازعه فى ذلك منازع .

وكان عند سيف الدولة ابن حمدان خمسة آلاف ورقة بخط أبى علىّ ، لأنه كان منقطعاً إلى بنى حمدان سنوات كثيرة ، يقومون بأمره أحسن القيام ، وقد تولى الوزارة للمقتدر سنة ٣١٦ هـ .

٢ — أبو عبد الله الحسن بن على بن مقلة سنة (٣٣٨ هـ) ، كان أكتب من أخيه الوزير أبى على ، وقد ولاه أخوه ديوان

الضياع الخاصة وديوان الضياع المستحدثة وديوان الدار الصغيرة ، وكان أبوهما الملقب بابن مقلة كاتباً مليح الخط .

٣ ــ أبو سعيد السيرافى النحوى الحسن ابن عبد الله المرزبانى (٣٦٨ هـ) كان عالماً كبيراً تولى القضاء ببغداد ، وكان زاهداً لم يأخذ على القضاء أجراً ، أفتى فى مسجد الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة ، فما وجد له خطأ ، وقد وصفه أبو حيان التوحيدى فى كتابه (محاضرات الأدباء) بأنه شيخ الدهر ، وقريع العصر ، العديم المثل ، المفقود الشكل .

كان أبو سعيد يعتمد فى نفقاته على أجر النسخ ، وكان لا يخرج من بيته إلى مجلس القضاء ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات ، يأخذ أجرتها عشرة دراهم ، تقوم بمؤونته ، ثم يخرج إلى مجلسه .

وله مؤلفات كثيرة ، منها شرح كتاب سيبويه ، وكتاب أخبار النحويين ، وكتاب شرح مقصورة ابن دريد .

٤ ــ على بن محمد بن عُبَيْد بن الزبير الأسدى (٣٤٨ هـ) ، صاحب الخط المعروف بالصحة المشهور باتقان الضبط وحسن الشكل ، كان من أجلّ أصحاب العلامة ثعلب ، ومن جمّاعى الكتب ومحبيها ، وله تآليف كثيرة .

٥ ــ أبو الحسن على بن عيسى الرمانى سنة (٣٨٤ هـ) كان إماماً فى العربية والأدب وله مؤلفات كثيرة .

٦ ــ ابن البواب (على بن هلال) سنة (٤١٠ هـ) صاحب الخط المليح والأدب الفائق ، كان ناثراً شاعراً وقيماً على خزانة كتب بهاء الدين بن عضد الدولة بشيراز .

٧ ــ أبو حيان التوحيدى (٤١٤ هـ) كان يحترف بالوراقة ، ولما اتصل بالصاحب ابن عباد قال له الصاحب : الزم دارنا ، وانسخ هذا الكتاب ، فقال أبو حيان : أنا سامع مطيع .

ثم شكا لبعض الناس أنه جاء من العراق إلى الصاحب ليتخلص من حرفة الشؤم ، فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة . فنقل هذا الكلام إلى الصاحب كله أو بعضه أو على غير وجهه ، فازداد تنكراً لأبى حيان .

وحدّث أبو حيان فقال فيما بعد : قدّم إلى نجاح الخادم وكان ناظراً على خزانة كتب الصاحب ثلاثين مجلدة من رسائل الصاحب ، وقال : يقول لك مولانا : انسخ هذا ، فإنه طلب منه بخراسان ، فقلت بعد ارتياد (تدبر وإمعان) : هذا طويل :

٨ ــ موهوب بن أحمد بن الحسن الجواليقى سنة (٥٣٩ هـ) ، إمام اللغة والأدب ، مليح الخط ، تنافس الناس فى الحصول على خطه ، وتغالوا به :

٩ ــ كمال الدين على بن حمزة البغدادى سنة (٥٥٦ هـ) ، صاحب الخط المليح غاية الملاحة على طريقة على بن هلال بن البواب ،

وبخاصة علم المصاحف ، فإنه لم يكتبه أحد مثله فيمن تقدم أو تأخر :

كان من الأعيان الأماثل ، ولاه الخليفة العباسي المسترشد الحجابة ، ووكاله وكالة مطلقة ، ثم ولاه الخليفة المقتضى لأمر الله صدرية المخزن

وأما الطائفة الرابعة فهم المحققون الذين نهضوا بنشر هذا التراث بعد ظهور المطابع . فصححوا نسخه ، وقابلوا بعضها ببعض ، وأكملوا ما نقص ، وشرحوا ما غمض ، وعقبوا بما ينبغي أن يعقبوا به ، وفهرسوا الكتب فهارس متعددة تيسر البحث والاطلاع وعرّفوا بالمؤلفين ومناهجهم .

أذكر من هؤلاء على سبيل المثال هيئات فى مصر وفى العالم العربى ، كالجامعة العربية والمجلس الأعلى لرعاية الآداب والعلوم والفنون ، والجامعات ، والمعاهد العليا ، ومجمع اللغة العربية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ولا ننسى الأفراد الذين بذلوا جهوداً حميدة مشكورة فى إحياء التراث وتحقيقه ونشره ، وفى مقدمتهم أحمد تيمور باشا (ت سنة ١٣٤٩هـ — ١٩٣٠م) فقد احتوت مكتبته على اثنى عشر ألف كتاب ومخطوط .

وأحمد زكى باشا شيخ العروبة (ت سنة ١٣٥٣هـ — ١٩٣٤م) فقد جمع أكثر من ستة آلاف مخطوط .

والأب أنستاس مارى الكرملى (ت سنة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٧ م) وغيرهم ؟

هذا التراث الذى نعنى به يوحى إلينا بآثاره العظيمة فى نهضة أوروبا ، لأنه هو الأساس الذى قام عليه المذهب العلمى التجريبى ، ولأنه أحد الأصول التى دعمت عليها أوروبا نهضتها العلمية .

فقد سرت الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا فى عدة غدران ، منها أسبانيا وصقلية وإيطاليا ، ومنها الحروب الصليبية ، وذلك أنه منذ سنة (٥٥٥ هـ — ١١٣٠ م) بدأ مكتب للتراجمة فى طليطلة ينقل — برعاية رئيس الأساقفة ريمون — أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية ، فنجح نجاحاً باهراً ، وحسبنا أن نشير إلى أن علم الضوء مدين لكتاب (المناظر) للعلامة ابن الهيثم :

كما أن أصول الرياضيات مدينة للعلامة الخوارزمى ، وإليه ينسب علم الجبر :

وكما أن أصول الهيئة والنجوم والفلك ترجع إلى كتاب (القانون) للمسعودى :

كذلك كان لكتب ابن سينا فى الطب أثرها العظيم إلى أواخر القرن الثامن عشر . ولقد قضت أوروبا ثلاثة قرون من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر وهى تترجم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية ، ولم تقتصر

على مؤلفات ابن سينا وابن رشد والرازى ونظرائهم ، بل إنها ترجمت عن العربية كتب اليونان التى كان العرب قد ترجموها ، مثل كتب جالينوس وبقراط وأفلاطون ، وأرسطو وإقليدس وبطليموس ، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب .

ولم يظهر فى أوروبا قبل القرن الخامس عشر عالم لم يستنسخ كتب العرب ولم ينتفع بها ، مثل روجر بيكون وألبرت الكبير وسان توما وغيرهم . قال مسيورينان : إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا . وإن سان توما مدين لابن رشد .

وقد ظلت ترجمات الكتب العربية ولا سيما الكتب العلمية هى المصدر الوحيد تقريباً للتدريس فى جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة .

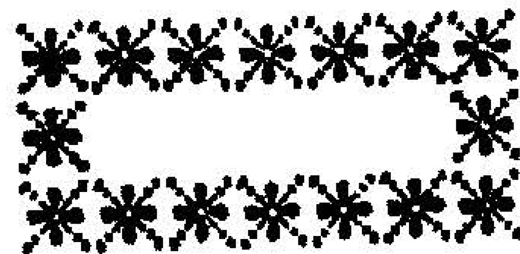
وبفضل هذه الترجمات عرف الغرب كتب اليونان التى ضاع أكثرها ، مثل : كتاب جالينوس فى الأمراض السارية ؛ وكتاب أرسطو فى الحجارة ، وكتاب أبولونيوس فى المخروطات ، كما ذكر الدكتور لوكلير فى كتابه (تاريخ الطب العربى) .

وقد عقّب جوستاف لوبون على هذا بقوله : « إذا كانت هنالك أمة نقرُّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان ، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمينة . قال مسيو ليبرى : «لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا فى الآداب عدة قرون » .

فإذا ما رجعنا إلى ورق الكتابة حدثنا التاريخ بأن العرب عرفوه من الصين فى القرن الثانى للهجرة ، لكنهم لم يلبثوا أن أنشأوا المصانع لإنتاجه منذ القرن الثالث فى مصر والأندلس والمغرب . وبلغت صناعة الورق على أيديهم درجة عالية من الجودة ، سواء أكان أبيض ناصعاً أم ملوناً ، وعن العرب نقلت أوروبا هذه الصناعة فى القرن السادس للهجرة ، إذ كانت حضارتهم تعمر الأندلس وإيطاليا وجنوبى فرنسا .

أما بعد ، فقد آن للذين يتساءلون عن بواعث حفاوتنا بتراثنا العربى أن يعلموا قيمته وآثاره وأسباب عنايتنا به وحرصنا على إحيائه .

احمد الحوفى
عضو المجمع



من التراث الدرعمي :

حول الألف اللينة

للأستاذ محمد شوقي أمين

١ — هذا طرَف من تراث درعمي . . .

وأقول : « درعمي » محاكياً النسبة إلى النحت من « دار العلوم » التي تعد مع « الأزهر » أقدم معاهد العربية في « مصر » . وصاحب هذا التراث هو « محمد المهدي » أحد أقطاب العلماء الأزاهرة الدراعمة المخضرمين ، أعني الذين عاشوا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

وإنما آثرت تسمية هذا التراث « درعمياً » لأنه محاضرة ألقيت في « نادي دار العلوم » ، وشهدها أساتذة العربية من أعضاء النادي ورواده ، وأسفرت المحاضرة عن إجراء اتخذه النادي بعد أن أمضى جلستين في دراسة وتمحيص للموضوع ، وهو علاج مشكلة « الألف اللينة » ، وكان هذا الإجراء توجيه تقرير إلى من له ولاية الأمر في التعليم المدرسي يطالب باتباع الطريقة التي بنى عليها المحاضر بحثه ، وهي كتابة الألف اللينة ألفاً على الإطلاق :

وأما أن ذلك يعد من التراث ، فلأنه قد مرّ على إذاعته خمس وسبعون من السنين — وأنه منذ أذيع في نشرة دورية طوتها الأيام ، لم يعدله — فيما أعلم — بين الباحثين ذكر ، إلا ما كان من إشارة مني إليه في مذكرة قدمتها إلى «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة منذ خمس عشرة سنة .

٢ — ولقد كان أول عهدي بهذا التراث الدرعمي في حديث لي مع الشيخ «حسين والي» وهو ذو باع وسيع في الدراسات الإملائية خاصة ، سألته في شأن « الألف اللينة » ومصاعبها ، وكان ذلك في أول دورة « لمجمع اللغة العربية » سنة ١٩٣٤ . فأخبرني بأن زميله في التدريس بمدرسة القضاء الشرعي المرحوم الشيخ « المهدي زيكو » له فيها رأي أولع به ، ودعا إليه ، وهو أن تكتب ألفاً في كل حال . ولم أدر سر كلمة « زيكو » اللاحقة لاسم الرجل إلا حين علمت من بعد أن جده اسمه « زكير أغا » فلعل « زيكو » معدول

عن «زكير» للتمايح والتحبيب على نحو ما نفعل فى بعض الأسماء .

وبعد ذلك بأكثر من ربع قرن ، والمجمع يتابع دراساته لموضوع الإملاء ، ذكرت للشيخ « أمين الخــولى » حديثى مــع الشيخ « حسين والى » ، فأفادنى بأن « محمد المهدى » كان من أساتذته فى مدرسة القضاء الشرعى . وأن له محاضرة جامعة فى موضـــوع .الألف اللينة كان لها صداها وقت إلقائهـــا ، فى نادى دار العلوم ، وأن معظم أعضاء النادى أقروه على رأيه فى كتابتها ألفا ، وكتبوا إلى وزير المعارف بما استقر عليه الرأى . وبعد أسبوع تفضل الشيخ « أمين الخولى » فأهدى إلى نسخة العدد الثانى من صحيفة « نادى دار العلوم » الصادر فى غرة ربيع الثانى سنة ١٣٢٧ هـ — ٢١ إبريل سنة ١٩٠٩ م وقد خصصت صفحاته إلا قليلا للخطبة التى ألقاها الأستاذ « محمد المهدى » المدرس بمدرسة القضاء الشرعى على أعضاء نادى دار العلوم يوم الخميس ١١ مارس سنة ١٩٠٩ فى الإملاء وتاريخه وتذليل أكبر صعوبة فيه . ولتقرير مرفوع إلى صاحب السعادة «ناظر المعارف العمومية» لطلب الترخيص للمعلمين أن يتبعوا فى التعليم طريقة كتابة الألف ألفا فى جميع أحوالها .

ولقد ظلت هذه النسخة عندى ، حتى بدالى اليوم أن أنشر ماحوت من الخطبة والتقرير بنصهما ، على رأس سبع عشرات وخمس من السنين ترادفت على النشر الأول ، إحياء لذلك التراث العلمى الدرعمى .

والباعث لى على هذا الإحياء أمور :

أولها : أن مشكلة الألف اللينة مازالت قائمة ، لم ينته الرأى فيها إلى علاج ، ومن الخير أن يبعث فيها ذلك الصوت القديم ، من جديد!

الثانى : أن المحاضرة دراسة علمية وثيقة وأنها هى وتقرير أعضاء النادى ، يلقيان ضوءا على الحركة العلمية والاتجاه التقدمى إلى الإصلاح والتقويم ، فى ذلك العهد المبكر الذى كان يعرف بأنه عهد المحافظة والسلفية والتقليد .

الثالث : أن هذا البحث للشيخ « محمد المهدى لم يذكره الذين ترجموا له ، وفى مقدمتهم صاحب « تقويم دار العلوم » ، وصاحب موسوعة « الأعلام » وما أجدره بالذكر :

٣ — ومجمل تاريخ الشيخ « محمد المهدى» أنه عاش فيما بين سنة ١٨٦٨ م و١٩٢٤م : وأن جده لأبيه « زكير أغا أرناؤوط» من قبيلة زوغوز الألبانية ، وأن أمه كردية ، وأنه تعلم فى الأزهر ودار العلوم ، وتلمذ للشيخ « محمد عبده » ، وناصر « مصطفى كامل » فى دعوته الوطنية ، وقد قام بتدريس العربية والأدب والفقه والتاريخ الإسلامى فى مدرسة القضاء الشرعى وفى الجامعة الأهلية ، وله سفرة إلى أوربة ، وكان كاتبا مجيدا ، وكان لايعدل بالفصحى فى حديثه بديلا ،

وكان حسن الهندام ، حتى إن أصحابه كانوا يلقبونه فى زيه العربى : ملك العرب :

وهو فى بحثه الذى نعيد نشره اليوم ، يعرض مشكلة الكتابة العربية ، وبخاصة الألف اللينة ، ويبين أن اتباع مايفرض من قواعد كتابتها لايتسنى إلا للمنتهين فى العلم ، وقد عنى بأن يبسط الشبهات التى تعرض للمعارضين فى كتابتها بالألف ، ويفيض فى تفنيدها واحدة واحدة ومن الطريف فى بحثه قوله : « لا أدرى لم لا يقولون لتلاميذهم تعلموا كل شىء فى اللغة قبل أن تتعلموا كتابتها » . ولم يفته أن يشير فى بحثه إلى مشكلة الهمزة أيضا ، فقال : إنه أعد العدة لبقية نواحى الإصلاح للإملاء ، ولكنه آثر أن يتربص بها حتى يعلم مايصير إليه الرأى فيما ينادى به ، علاجا لمشكلة الألف اللينة .

٤ — والحق أن كتابة الألف اللينة بحسب الضوابط التى يسوقها علماء الإملاء بالغة الصعوبة فهى تختلف فى أحكام كتابتها ألفا أو ياء بين وقوعها متطرفة أو متوسطة ، سواء أكان توسطها أصليا أم عارضا ، والخطب كل الخطب فى المتطرفة ، فهى على تعدد وجوهها تقتضى تفصيلا وتفرقة بين الاسم والفعل والحرف ، وبين الأعجمى وغير الأعجمى ، وبين المعرب والمبنى ، وبين المنقلب عن واو وعن ياء ، وبين ماهو واوى يائى معا ، وبين كون الألف ثالثة أو ما فوقها ، وبين ماقبله ياء وماليس كذلك ، وبين كون عين الفعل مهموزة وغير مهموزة . على أن الضوابط بعد هذا كله تجر وراءها قافلة من المحترزات والمستثنيات ، وهى فوق ذلك كله ليست بين أعلام الإملاء محل اتفاق باطلاق !

ولبعض القدامى من النحاة رأى فى كتابة الألف اللينة ألفا ، حملا للخط على اللفظ فقد اختار هذا الرأى « أبو على الفارسى » ، و« الزجاج » ولبعض النحاة رأى فى تجويز كتابتها ألفا أو ياء ، مع تفضيل كتابتها بالياء ، وقد ذكر ذلك « أبو حيان » .

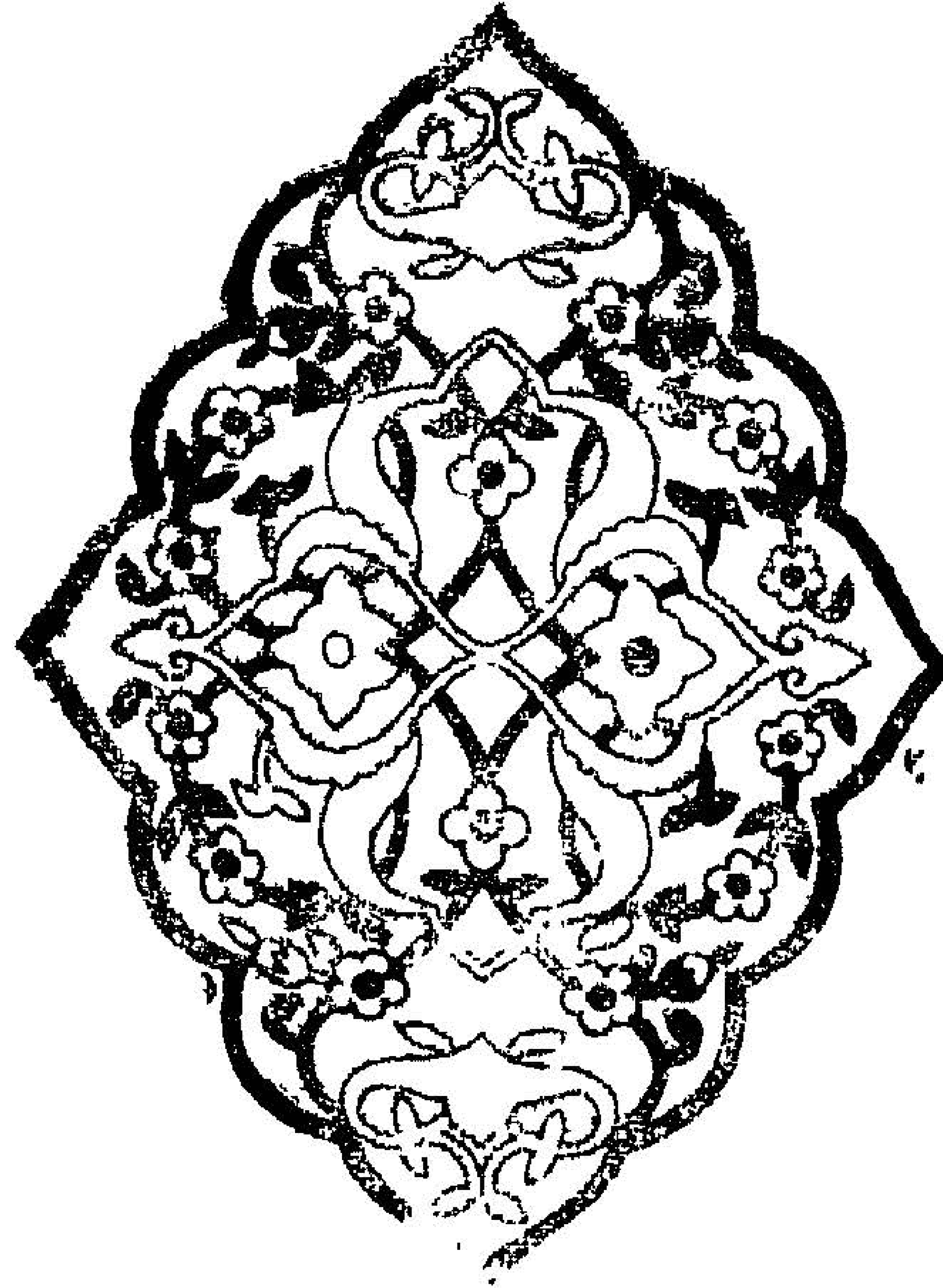
٥ — أما فى عصرنا الحديث ، فكان الشعور بمشكلة الألف اللينة عميقا ، ومن ثم اهتمت بها الهيئات والمعاهد والمجامع فى البلاد العربية . وفى « مجمع اللغة العربية » بالقاهرة عنيت بها لجنة الإملاء ولجنة الأصول ، فى دورات شتى ، وأصدرت كلتاهما فى شأنها قرارات متعاقبة . وما أكثر ماتعددت آراء الباحثين هيئات وأفرادا فى شأن هذه الألف اللينة هناك قائل بكتابتها ألفا مطلقا دون استثناء ، أو باستثناء الحروف ، أو باستثناء مايلتبس من الكلم ، وهنالك قائل بكتابتها ياء مطلقا ، أو باستثناء طائفة من الألفاظ ، وثمة قول بكتابة الأسماء بالياء ، وكذلك الأفعال إلا أفعالا بأعيانها تحفظ وثمة أيضا قول بأن الثلاثى يكتب بالألف ، وغيره يكتب بالياء .

٦ — من هذا التباين فى الآراء — قديما وحديثا — حول « الألف اللينة » يتبين أنها لم تَلِنْ — ولو بعض اللِّين — حتى اليوم للباحثين، ولم يتفقوا فيها على رأى جميع، وما أحقَّها بأن تسمى الألف الصعبة، لا الألف اللينة.

ولعل ذلك مادعا الدكتور « إبراهيم مدكور» رئيس مجمع اللغة العربية منذ عشر سنين، إلى أن يخاطب أعضاء المجمع فى جلسة المؤتمر الختامية فى الدورة الخامسة والثلاثين، قائلا :

« إنا لنرجو أن نفصل فى موضوع الألف اللينة، تيسيراً لما ماوسعنا التيسير، وتعليمنا اليوم بأعبائه الثقال أصبح لايسمح أن يقف الناس طويلا عند كتابة الحروف ورسمها »(١).

محمد شوقى امين
عضو المجمع



(١) أصدر المجمع فيما بعد قرارا فى تيسير كتابة الألف اللينة. يرجع إليه من يشاء استكمال البحث.

(العدد الثاني) (السنة الاولى)

صحيفة نادى دار العلوم

﴿ مصر في غرة ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ — ٢١ ابريل سنة ١٩٠٩ ﴾

الخطبة التى ألقاها الاستاذ محمد المهدى المدرس بمدرسة القضاء الشرعي على أعضاء نادى دار العلوم يوم الخميس ١١ مارس سنة ١٩٠٩ في الموضوع الآتى

﴿ الاملاء وتاريخه وتذليل أكبر صعوبة فيه ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم هيئ لنا من أمرنا رشداً

سادتي

طال الامد على وقوف لغتنا وسير المدنية فينا سيراً حثيثاً حتى اتسعت مسافة الخلف بينهما وضج بالشكاة من اعواز اللغة وصعوبة قواعدها الكاتب المجيد والعالم النحرير والشاعر الفحل والخطيب المفوه والمعلم الماهر والمترجم المتفنن كلهم متألم لذلك ولان سلفهم كانوا افراداً متقاطعين بعيدين عن روح الجامعة العلمية الاصلاحية ولا يكادون يجتمعون حتى يفترقوا وهذا تاريخ فن الاملاء أصدق شاهد على ما أقول وعلى أن الايدي العاملة فيه أيدى

افراد لا أيدي جماعات ٭

ذلك ان الخط العربي من عهد عاد الاولى كان حروفا منفصلا بعضها عن بعض ولم تكن الحروف على هذا الترتيب ولا بهذه الاشكال وكان تعلم الكتابة محظوراً على الناس الا باذن من أهلها فلما نقله الى آل المنذر نسباء التبابعة مرامر بن مرة وعامر بن جدرة وأسلم بن سدرة تصرف فيه الاول واقتطع منه خطا سماه خط الجزم ووصل بعضه ببعض وتبعه فى ذلك من بعده ٠ والدليل على أن الاول من هؤلاء الثلاثة هو واضع خط الجزم ما رواه ابن خلكان أنه قيل لابى سفيان بن حرب ممن أخذ ابوك هذه الكتابة فقال من أسلم بن سدرة وقال سألت أسلم ممن أخذت هذه الكتابة فقال من واضعها (١) مرامر بن مرة فكان مرامر فيما نقل الينا اول مختزل في اشكال الحروف العربية ثم نقل هذه الكتابة حرب بن أمية القرشى الى أهل الحجاز ومن جاورهم من الأميين وقد كانت على حالتها البدوية خالية من النقط والشكل والشدات والمدات وكثير من الألفات خصوصا منها المتوسطات وقد كتب القرآن الكريم بها على هذه الصورة ولم يكن للعرب كتب اذ ذاك غير القرآن وهو محفوظ فى الصدور متلقى بالسند الشفوى المتصل المتواتر فلم يبالوا باللبس فى رسم المصحف ولم يعنوا باصلاح الخط لمكانة السليقة فيهم من جهة والبداوة من جهة أخرى فلما كثر الموالى والمولدون أخذ أفراد من العلماء في عصور مختلفة يزيلون اللبس بالتدريج اشفاقا على الناس ومحافظة على كتاب الله من تحريف غير القراء فان كلمة عبد مثلا كانت مرسومة هكذا (عىد) ولا نكاد تجد فرقا بينها وبين عِند وعَند وعُبُد وعَبْد وعُبَّاد وعِبَاد وعِنَّاد وعبيد وغيد وعتاد الى غير ذلك وكثير من أمثال هذه الكلمة فوضع ابو الاسود علامات الاعراب آخر كلمات المصحف فى خلافة معاوية وهو يعلم اولاد زياد بن أبيه أخى معاوية بالبصرة فلما انتشر اللحن بالعراق فى خلافة عبد الملك بن مروان وولاية الحجاج طلب

(١) هذا رأي مؤرخى العرب ويرى علماء الآثار الآن ان تاريخ الخط العربي المتصل الحروف أقدم من هذا التاريخ ٠

الحجاج من كتابه ان ينقطوا ازواجا وافرادا ويكملوا ماوضعه ابوالاسود فقام بذلك نصر ابن عاصم وجرى على طريقة تخالف طريقة ابي الاسود ثم جاء الخليل بن احمد فتمم مانقص من اصلاح نصر بن عاصم وحسن ما وجده منه واخترع الشدة والصلة والقطعة وعلامة الامالة وبقي الناس يكتبون بخط الجزم وهو الذي سموه الخط الكوفي الى ما بعد الهجرة بنحو ثلاثة قرون حتى جاء الوزير ابن مقلة وزير المقتدر بالله من خلفاء بنى العباس فحول صورته الكوفية الى الصورة الحاضرة هذا ولقلة الكتابة فى صدر الاسلام وانتشار الامية وكثرة اللبس في الخط العربى بقيت دواوين العرب باللغات الاجنبية الى سنة ٨٧ فقد كان ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وديوان مصر بالقبطية(١) فعلوا ذلك للضرورة ولكنهم ما لبثوا ان كشفوا تلك الازمة الكتابية بالخروج عن خط المصحف الى خط اصطلاحى اشتغل به كثير من علماء البصرة والكوفة فدونوا له القواعد على مقتضى الأقيسة الصرفية وأمن اللبس وان الرسم تصوير للفظ فزادوا فيه ونقصوا ووصلوا وقطعوا وقد كان ذلك على حسب سماعهم من العرب ولما كان السماع مختلفا كان الاستنباط كذلك فلم يمض غير قليل حتى ظهر للناس مذهبان بصرى وكوفى بل مذاهب عدة ولكل شيعة وانصار وقد أخذ الناس عن علماء البلدين طرائق شتى فى رسم الحروف خصوصا منها الالف اللينة حتى كاد يكون لكل عالم فى ذلك العصر مذهب خاص مثل ميمون الاقرن وابى عمرو بن العلاء ويونس والاخفش والخليل وابى زيد وابي عبيدة والاصمعي وحماد بن سلمة وسيبويه وقطرب والمازني وابن دريد من علماء البصرة • ومثل الكسائى والفراء وابن الاعرابى والمفضل الضبي وثعلب من علماء الكوفة ولقد كان غيرهم من نحاة الامصار يحذو حذوهم فى تشعب الخلاف وكثرة العلل ولقد كان ذلك فى اول الامر محتملا لاعتماد الناس على الحفظ ولقلة المشتغلين بالعلم وقلة العلوم نفسها

(١) نقل الاول صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج بامر منه ونقل الثاني صالح بن سعد والى الاردن من قبل عبد الملك بن مروان ونقل الثالث عبد الله بن عبد الملك بن مروان في خلافة الوليد بن عبد الملك وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص

وصلاح حياة اكثر علمائهم الى الانقطاع لمثل ذلك فاما بعد تدوينهم العلوم وسير المدنية فيهم وانتشار القراءة والكتابة فى غير العلماء فلم يكن من حقهم البقاء فى هـذه الفوضى ولكن التقليد ضرب بجرانه على كل شئ حتى ما ليس بدين فان الذى وسع المتقدمين فى الخروج عن رسم المصحف كان يسعهم فى الخروج عن رسم اسلافهم للاتفاق على طريقة واحدة قريبة المأخذ بعيدة اللبس ولكن الجمود والتقاطع فيما بينهم كانا ولا يزالان عقبة كئودا في سبيل العلم والمدنيه لتخالف رسم الكتب وكثرة الخطأ والتصحيف فيما رووا عن العرب من اشعارها وفيما دونوا من المؤلفات وحسبنا ان يخطئ ذلك العالم اللغوى الكبير أبو محمد عبد الله البطليوسي في اسم أدب الكاتب لابن قتيبة فيقرأه أدب الكتاب ويسمى شرحه عليه الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب وذلك لان كلمة الكاتب كانت مرسومة على الطريقة القديمة هكذا (الكتب) وهى ان جعلت الفها بعد الكاف قرئت الكاتب وان جعلتها بعد التاء قرئت الكتاب ولا تزال مخطوطات العصور الماضية بين أيدينا نشكو من تخالفها وكثرة لبسها فترى في بعضها كلمة ادعو أمامها الالف وهي فعل الواحد ونجد فى بعض آخر هذه الكلمة للجماعة وليس امامها الف واذا فتشت في المذاهب وجدت لكل مذهبا ٭ ونجد مها مرسومة تارة بالالف واخرى بالياء على طريقة المغاربة ونجد كلمة الجزء تارة مكتوبة بواو واخرى بهمز ومرة بهمز فوق الواو ٭ ومن الكتاب من يكتب الصلاة والمشكاة والزكاة بالواو متبعاً فى ذلك المصحف كابى حيان ومنهم من زاد الفا فى مئه للفرق بينها وبين منه كما زادت العامة عندنا الفا في حسنين للفرق بينها وبين حنين ومنهم من لم يزدها الى غير ذلك ولا يزال الخلاف الى الآن خلافا كبيراً في دور التعليم عندنا وعند سائر الامم العربية نجد ذلك فى جرائدهم ومجلاتهم وكتبهم بل قد يتخالف الاساتذة فى المدرسة الواحدة ويكون التعليم على طريقتين مختلفتين في الفرقة الواحدة المقسمة الى فصلين وكما يكون الخلاف فى التعليم يكون عند تصحيح أوراق الامتحان فبعض المصححين يكاد يجوز كل شيء وبعضهم يكاد يخطئ كل شيء وكل يدلى بحجة

وينقل قولا عن امام يكاد يراه معصوما ولذلك كانوا يضطرون قبل التصحيح الى الاتفاق على الطريقة المشهورة وهي طريقة جمهور البصريين ولكني كنت ولا أزال أرى ان تكليف التلاميذ الكتابة على مقتضى هذه الطريقة ظلم من الاساتذة لا يجوز البقاء عليه فان اللغويين أنفسهم اليوم لا يستطيعون ان يكتبوا على هذه الطريقة كتابة سليمة من الخطأ باطراد الا بعد مراجعة كتب الصرف والقراآت وكتب اللغة لان أكثر قواعد الفن مرتبط بتلك الكتب ارتباطاً وثيقا فكيف نأخذ صبياننا بما لا يقدر عليه فضلاؤنا ومن العجب العجيب ان يشتكي العلماء قديماً وحديثا من صعوبة الاملاء ولا تبلغ بهم الشكوى ان يعملوا على تسهيله فقد قال أبو محمد البطليوسي فى الاقتضاب صفحة ١٦٦ ما نصه وقد اضطربت آراء الكتاب والنحويين فى الهجاء ولم يلتزموا فيه القياس فزادوا في مواضع حروفا خشية اللبس نحو واو عمرو والف مائة وحذفوا فى مواضع ما هو من نفس الكلمة نحو خالد ومالك فأوقعوا اللبس بما فعلوه لان الالف اذا حذفت من خالد صار خلداً واذا حذفت من مالك صار ملكا وجعلوا كثيراً من الحروف على صورة واحدة كالدال والذال والجيم والحاء والخاء وعولوا على النقط فى الفرق بينها فكان ذلك سببا للتصحيف الواقع فى الكلام ولو جعلوا لكل حرف صورة لا تشبه صورة صاحبه كما فعل سائر الامم لكان أوضح للمعانى وأقل للالتباس والتصحيف ولذلك صار التصحيف في اللسان العربى أكثر منه فى سائر الالسنة اه * فأنتم ترون ان هذا العالم الجليل الذي أصلح كتاب ابن قتيبه وهو احد أركان الادب الاربعة يجيز أن يضع الكتاب حروفا أخرى غير الحروف التى عرفت من قبل الاسلام ليرفع بذلك اللبس ويقلل الخطأ ويشكي الناس ولكنه لم يفعل ولم يبلغنا انه دعا معاصريه الى الفعل وأنا فى مقالى هذا لا أريد ان أعمل كما يريد البطليوسي ولا أريد ان ابتدع وانما أريد ان أحمل الناس على مذهب سهل وطريقة متقبلة حتى لا يحمل على المحافظون حملتهم المعهودة

ولقد فكرت أيها السادة في صعاب الاملاء وذللتها بما بلغه وسعي ورأيت ان أصعبها على المتعلمين والمعلمين قواعد الالف اللينة ثم الهمزة وان الخطب فيما بعدها محتمل

اما قواعد رسم الالف اللينة فالظاهر انها وضعت للعلماء المتبحرين لا للنشأ المبتدئين لان منها تخليص الواو من الياء وهو من أصعب المباحث اللغوية التي افتخر بها مجد الدين الفيروز آبادى في مقدمة قاموسه اذ يقول ومن أحسن ما اختص به هذا الكتاب تخليص الواو من الياء وذلك قسم يسم المصنفين بالعي والاعياء (أي بالعجز والكلال) وانا أقول اذا كان يسم المصنفين بالعي والاعياء أفلا يسم المتعلمين من باب أولى بالياس والشقاء اذ كيف يتأتى للناشئ الذى لا يعرف كيف يراجع كتب اللغة فضلا عن التضلع منها ان يعرف ما يفتخر بمثله أئمة اللغة ليصحح كتابة الالف ٭

ومنها ان كل اسم أو فعل ثلاثى ممال تكتب الفه ياء وكلكم يعلم ان الامالة أصبحت فيما بيننا مهجورة لا تكاد تعرف الا من بطون الكتب بل قد بطلت دراستها من أكثر المدارس لقلة الحاجة اليها في الانشاء والخطابة ولم نعد نسمعها الا من بعض القراء الذين يقرءون نادراً بغير قراءة حفص المشهورة بيننا فكيف نحيل الطلبة على الامالة فى تعليم الاملاء بعد ان أصبحت خافية على كثير من المشتغلين بالعربية أفنطالب الصبي ان يرجع الى كتب القراآت وشروح الالفية ليعلم هل الكلمة التى يريد ان يكتبها ممالة فيرسمها ياء أو غير ممالة فيرسمها ألفا ذلك هو الارهاق

ومنها قولهم ان الكلمة اذا وردت ممدودة ولو مرة واحدة فان الفها ترسم الفا قائمة ومعنى هذا ان ينقب الطالب أو المعلم فى أمهات الكتب على الكلمة ويستقصى جميع ما وردت فيه من نظم ونثر حتى يحكم بأنها لم تسمع ممدودة وحينئذ يرسمها بالياء ومن عجيب ما رأيت ان القاموس رسم كلمة سنا بالياء في النسخة التى عليها خطه مع انه قال فى المادة نفسها (ويمد) ولم يفطن لها فيما رأيت الا صاحب اللسان فانه نص على رسمها بالالف فقاعدة هذا أثر التطبيق عليها بين لغويين كبيرين كيف يكون أثرها بين من دونهما فى العلم والانقطاع الى اللغة بله التلاميذ وهل يصح ان يكلف الذى يريد القراءة والكتابة مثل هذا ان هذا لتكليف بما لا يطاق ٠

ألم يقولوا للتلاميذ اذا أردتم ان تعرفوا الواوى من اليائي فاعرفوا ذلك بالتثنية

والجمع والمصدر والمرة والهيئة والفعل والمضارع والاسناد الى تاء الفاعل أو الف الاثنين ولا أدرى لم لم يقولوا لتلاميذهم اعرفوا ذلك بعلم الصرف واللغة بل لا أدرى لم لم يقولوا لهم تعلموا كل شئ فى اللغة قبل ان تتعلموا كتابتها ؟

ألم تكتب المطابع النصرية نحو تسع صفحات بالخط الدقيق فى شروط حذف الف ابن ثم ختمت ذلك بعشرين بيتاً لجمع هذه الشروط وتسهيلها على طالبيها وانى أناشدكم الله أي صعوبة أصعب من هذا التسهيل ؟

أليس من قواعد الالف انها اذا كانت زائدة عن ثلاثة فى كلمة أعجمية رسمت الفا واذا كانت فى عربية رسمت ياء مع ان المتضلعين من اللغة بل من اللغات لا يقفون على أصل بعض الكلمات وتمييز عربيها من عجميها الا بعد التنقيب والبحث الدقيقين وقلما ينفعهم اليوم رجوعهم الى القواعد التى وضعها المتقدمون للفرق بين الكلمات الاعجمية والعربية لان أغلبها ملاحظ فيه اللغة الفارسية فاما اللغات المنتشرة بيننا الآن كالانجليزية والفرنسية والايطالية فلا تكاد تتعرض لها هذه القواعد ولا يذكر منها مثل فى كتبنا لان معاجمنا قديمة لا تتعرض بالضرورة للجديد ولان المشتغلين منا لا يحبون ان يزيدوا مثالا غير الامثلة الموروثة فهل هذه القاعدة التى ناء بحملها الكبار تلقى على الصغار ؟

لهذا كله عمد ناس من المتقدمين وبعض المتأخرين الى جمع الواوي واليائي وما وصل اليه من الكلمات الاعجمية وصاروا يعلمون تلاميذهم باملاء ذلك عليهم كلمة كلمة فراراً من هذه القواعد التى تكاد تقعد باللغة على اطلالها القديمة ورسومها الدارسة

ومنهم من ظن انه يخفف على الناس بجمع المقصور في قصائد فجمع كثيراً منه في كلام غث ثقيل فجعل للواوي من الافعال قصيدة ولليائي قصيدة وللمتراوح بينهما قصيدة ثم ثلاثا أخري للاسماء ومع هذا لم يستقروا ولم يوفقوا للصواب فى كل ماقالوا على ان هذه الطوائف من القصائد اذا ابتلي بها طالب وحفظها فان كلماتها لا تصير

الملكة في يده بمجرد حفظها بل قلما تبقى محفوظة لان الشيء الثقيل القليل الفائدة سريع الزوال

وهل يجوز أن يضيع الطالب زمنه ويكد ذهنه ويملأ حافظته بكلام سخيف لاجل أن يتأتى له رسم الالف اللينة في بعض صورها مع أنه لقنها في الهجاء وعلم أن شكلها أسهل الاشكال وابعدها عن الاشكال وهل في استطاعة اية حكومة ان تجعل التعليم عاما في أمتها مع بقاء مثل هذه القواعد المتعذرة التطبيق لاجل كتابة حرف واحد من لغتها وهو الالف اللينة * باسبحان الله ما اقسى هذه الالف اللينة وما اشد مصيبة التعليم بها

لهذا كله رأيت ان أطوح بهذه الاحمال الثقال وافرج عن المعلمين والمتعلمين واطلق يد الكاتبين وارفع صوتي مناديا بترك هذه القواعد وهذه المنظومات وكل ماخط في رسم الالف اللينة والاستغناء عن هذا كله برسم الالف اللينة الفا قائمة كما ننطق بها وكما علمناها في الهجاء سواء كانت في حرف اواسم او فعل ثلاثي او أكثر علم اوغير علم مختوم بياء اوغير مختوم * واني أقول للحافظين لا يرعجنكم هذا النداء فاني راعيت جانبكم وتقبت في الاقوال المأثورة عن المتقدمين فوجدت كثيرا من علماء النحو يقول بهذه المقالة فلم أك والحمد لله عندكم بدعا فيما أقول واليكم ذلك فقد جاء في صفحة ١٧٣ من الاقتضاب مانصه

{ ومن النحويين من يرى ان يكتب كل هذا بالالف حملا للخط على اللفظ. وهو الذي اختاره أبو علي الفارسي في مسائله الحلبية) بل قد جاء في الكتاب الذي تتداولونه وهو المطالع النصرية في صفحة سنة ١٢٠ ما نصه * واما المسوغ لكتابتها الفا مع وجود المقتضى للياء فسبعة وسرد ستة منها (ثم قال) وسابعها اتباع جماعة من النحاة مشوا على كتابة الباب كله بالالف حملا للخط على اللفظ سواء كانت الالف ثالثة او فوقها ولو منقلبة عن ياء في علم او غيره كما في الشافية ووجهه شيخ الاسلام بانه القياس ولانه انفى للغلط اه

فان كان لا بد من فتوى فناهيكم بفتوى شيخ الاسلام زكريا الانصاري وان كان لا بد من قاعدة فالقاعدة ان كل مسألة فيها قولان ينبغي ان يرجح منهما مايوافق القياس

اخواني هذه الطريقة يوجبها القياس والسهولة وادخار الزمن لعمل انفع وتيسرها للناس

كافة وهى التى تناسب تعميم التعليم ويستوى فى معرفتها العالم الكبير والصبي الصغير وتخفف عنكم شيئا من العناء الكبير الذى تجدونه فى تصحيح الكراسات وتمرين التلاميذ والطلبة على أن المسألة ليست من مسائل الاعتقاد حتى تخشى من مناجاة الناس بها بل هي مسألة اصطلاحية فنية بحتة وقد خرج الناس قبلنا فى صدر الاسلام عن رسم المصحف الكريم الى خط اصطلاحى ولم يروا في ذلك غضاضة على انفسهم ولا حطا من شأن الكتاب العزيز مع أن حاجتهم الى الخروج كانت أقل من حاجتنا اليوم فقد اصبحنا فى حياة كلها منافسة وهى تستدعى علوما جمة وأعمالا شتى واصبحت اعمار الناس لا تنفسح لان يصرف الواحد منهم سبع سنين في تعليم الاملاء ومع ذلك لا يجيده بل لا يزال يخطئ الى أن يموت على أن أهل العلم اذا تشددوا فى التمسك بمثل هذه القواعد العقيمة فانى انذرهم وانذر نفسى بتخلف اللغة العربية عن سير المدنية تخلفا ينسل معه الناس من لغتنا لواذا اما الى العامية وهى لهجة لا تنهض بعلم ولا باخلاق ولا بشيء من مقومات الحياة الطيبة واما الى اللغات الاوربية وفى ذلك فناء الامة فى سواها *

فاذا كان لى منكم عضد ووافقتموني على هذه الطريقة وطلبتم أن يؤذن لكم بتعميمها فى مدارسكم فانى لا اشك فى اجابة طلبكم لانكم انتم لسان الحكومة العربى ويرجع تعليم اللغة العربية فى مدارس الحكومة اليكم ومنكم المدرسون والمفتشون والنظار واذا تم لكم ذلك مشى على أثركم المعلمون فى القطر المصرى وانتقل الى الاقطار الاخرى اذلا يعقل أن يكلفوا أنفسهم الصعب بعد وجود السهل المقبول *

لعلكم تقولون اذا كنت مصلحا ولا بد فضم الى عملك هذا تسهيل رسم الهمزة بل اجعل الاصلاح عاما واعرضه بعد ذلك على العلماء والكتاب وأهل الرأى حتى اذا وافقوك نقلت الناس نقلة واحدة بدل أن تنقلهم كل حين الى مسألة واحدة فان هذا يبطئ بالاصلاح من جهة ويكثر ازعاج الجمهور من جهة أخرى بنقلهم من شئ ألفوه الى شئ جديد * ٦

(م ٦ من الصحيفة)

واني أجيبكم أيها السادة من وجوه . الوجه الاول ان الاصلاح الصغير لا يترك لانتظار الاصلاح الكبير . الثانى انى أردت التدريج مخافة الفشل اذا عملت كل ما أريد وتريدون دفعة واحدة * وصعب على الانسان مالم يعود . الوجه الثالث انى أعددت بقية الاصلاح وتربصت به حتى أعلم رأيكم ورأى الجمهور فى ذلك فاذا أنست منكم ومنهم تقبل بادرت الى اعلانه كله في خطبة واحدة وارجو ان شاء الله أن يكون ذلك قريبا

بقى على ان ارد الشبه التي سيوردها المحافظون فانهم سيقولون لا محالة *

(١) ان المتعلمين على طريقتك التي اخترتها اذا قرءوا فى كتبنا وجرائدنا ومجلاتنا القديمة فانهم ينطقون بالالف المكتوبة على صورة الياء ياء فيقولون فى رمى رمي وفى على علي وفى الى إلي وفى المصطفى المصطفِي الى غير ذلك ورد هذه الشبهة من وجهين الاول ان الطريقة القديمة لا تعصم من مثل هذا بل توقع فيما هو شر منه لان الرسم فيها لا يفرق بين المصطفى والمستفتى اسمى الفاعل والمفعول ولا يفرق بين هوى وهوَى وهوّى وهُوى ولا بين على وعلى الى غير ذلك ولان المعتلات الاواخر المرسومة الفاتها على صورة الياء في الطريقة القديمة تزيد عن الفى كلمة مما يقع في عبارات الكتاب والمؤلفين فالراجع الى الكتب القديمة واقع فى لبس من هذا لا محالة ولا ينجيه منه الا التضلع من علمى الصرف واللغة فالذى ينجيه من هذا على كثرته ينجيه مما تخافون عليه من اللبس القليل فى جانب ذلك فالطالب الذي يرجع الى الكتب القديمة ان كان من صغار الطلبة فانه مخطئ ولا بد سواء جرى على الطريقة الجديدة أو القديمة التى لا تنقط الياء المتطرفة فهو ينطق بالالف المقصورة كما ينطق بالياء ولا فارق فيها يعصمه من هذا الخطأ فخير له على طريقتنا ان يقال خطؤه جداً فان الكتب ستقسم الى جديدة لا يخطئ فيها وقديمة يهجرها الزمان يخطئ فيها كما كان يخطئ من قبل ان دعته الحاجة الى ذلك على سبيل الندور وان كان عارفاً باللغة والصرف فان اعتراضكم لا يجئ لانه متى لاحظها سهل عليه أن يعرف الصواب

الوجه الثاني ان الصدر الاول لم يبال بهذه الصعوبة حينما أحدث الخط الاصطلاحي ولم يبال ابن مقلة حينما غير الخط الكوفي الى الخط الذي تعرفونه الآن لان الزمان كفيل باظهار ما تدعو اليه الحاجة واضمار مالا تدعو اليه فهو الذي يسير بالجديد الحاجي ويقف بالقديم المفروغ منه على ان المطابع ستعيد طبع النافع من الكتب القديمة فتطبعها على الطريقة الجديدة ولا يبقى بلا طبع غالبا الا الذي لا خير في كثير منه للناس وبهذا تذهب الشبهة الاولى .

الشبهة الثانية ان كتابة المقصور كله بالالف تفوت الطالب معرفة أصل الكلمة أمن بنات الواو هي أم من بنات الياء فلا يدرى كيف يثنى الاسماء أو يجمعها جمع سلامة أو يسند الافعال المعتلة الى الضمائر وهذا شئ لا يستهان به

والجواب ان هذه مسألة دورية محالة وذلك ان الكاتب على الطريقة القديمة لا يكتب الالف الثالثة الا اذا عرف أصلها ومعرفة أصلها متوقفة على علم الصرف واللغة وعلم الصرف أو اللغة متوقف على الاملاء في رأى المشتبه فيجيء الدور حتما على ان تثنية الاسماء وجمعها واسناد الفعل الى الضمائر كل ذلك له علم خاص به وهو الصرف فمن أراد ذلك فليطلبه ولا يجوز أن تكلف من لا يريد الصرف ان يعرفه من الاملاء معرفة ناقصة وتضيع عليه زمنه بادخال ما لم يرد فيما أراد فلا يتقن لا هذا ولا ذاك بل لا معنى لتكليفه مالا يطيقه ولا فائدة له منه

الشبهة الثالثة ان الجرى على الطريقة الجديدة غير مأمون اللبس بل يوقع الطالب في أشتباه كان ينجو من مثله على الطريقة القديمة مثال ذلك الى فانها تشتبه بالا وعلى فانها تشتبه بعلا الفعلية

وجواب هذه الشبهة ان الالتباس فى ألفاظ قليلة جداً وتميزها بالقرائن أسهل من تميز سواها على الطريقة الاولى فاذا قلت أرسلت الى فلان أو سعيت الى زيارته ورسمت الى بالالف لم يشتبه الامر على الناظر خصوصاً بعد ان تبلغه الطريقة الجديدة ولا يفوتنك أيها المشتبه ان تمييز الا من ألا وألاً أصعب وأدق من تمييز الى من احدى هذه الثلاث

على انى أجيز للكاتب أن يضبط بعض الكلمات اذا ظن فيها اللبس وأقول للمشتبه اذا رضيت باللبس على الطريقة القديمة في نحو ثلاثة آلاف كلمة ألف سنة أفلا ترضى به على الطريقة الجديدة فى كلمات لا تكاد تستحضر منها بضع عشرة كلمة واذا رضيت بالاشق الابعد عن القياس أفلا ترضى بالايسر الاقيس

الشبهة الرابعة اذا كنت تقول بالقياس وهو ان تكتب كما تنطق ادان اددان والا اللاوادعى اددعى واطأن اطائن وانك ان فعلت ذلك أوقعت الناس فى لبس لم يقعوا فيه من قبل

والجواب انى أقول بالقياس اذا كان مع المصلحة وكلامى اليوم فى الالف اللينة دون سواها والقياس فيها جلى واضح المنفعة واما فى سواها فانى أكون مع المصلحة أينما كانت

الشبهة الخامسة ان الانسان لا يكتب الا ما هو متمكن من معرفته والكلمات التى تدور على ألسنة الناس وفى حاجاتهم قليلة يمكن حصرها وتعليمها اياهم على الطريقة القديمة ولا حاجة الى هذا التغيير

والجواب ان الدعوى الاولى غير صحيحة فقد يكتب الكاتب مالا يعرف اذا أملى عليه من يعرف وقد رأيت عالما أعمى يملى على تلميذه تأليفا له فى علم لم يلقنه اياه فكان يخبط فى ذلك خبط عشواء وهؤلاء الناسخون الذين نشتكي منهم كل يوم هل يكتبون ما يعرفون

وأما كون الكلمات المستعملة قليلة فهذا كلام مقول بالتشكيك وما ذا تريدون من القلة فان كانت ألف كلمة فهى كثيرة وان كانت ألفا فكذلك على ان كلمات التأليف والتحرير غير واقفة عند الحد الذي يجئ في اذهانكم لاول نظره ولقد عنيت بالنظر فى ذلك فرأيت المستعمل فى التأليف لا يقل عن الفي كلمة هذا عدا ما ظننت انه مهجور ويجوز الا يهجره غيرى

الشبهة السادسة انه يشق على الناس ان يخرجوا من عادتهم فى مثل ذلك وتكليفهم

الخروج عما ألفوه ضرب من الارهاق وربما كان منه مالا يحب

والجواب ان الخروج من العادات الضارة واجب وليس فى مثل هذا الاصلاح المسهل ارهاق على أني معتقد ان الناس متى علموا جواز الرسم على هذه الطريقة وانه لا يعتبر خطأ فى الكتابة العلمية والرسمية والادبية سارعوا اليها ونبذوا القديم الذى لا يكاد يسلم من الخطا فيه صغير ولا كبير

وسيقول من يحسن ظنه فيَّ لم لا يشتغل بتأليف كتاب فى آداب اللغة والحاجة شديدة بدل اشتغاله بموضوع صغير كهذا وما هذه الالف اللينة التى يعني بها كل هذه العناية *

والجواب اني مشتغل بما يريد من جهة ومعتقد ان هذا الموضوع الآن افيد للأمة من الموضوع الذى يقترحه علي فان اصلاح الاملاء أمر يرتبط من جهة أخرى فى مصر باثنى عشر مليونا يراد ان يعمهم التعليم وهذا أمر حاجي لا يتأتى تعميم التعليم الا به واما كتاب آداب اللغة فانه يؤلف لطبقة قليلة مخصوصة على أنه الى الآن من كماليات لغتنا فهل يحملك أيها الاخ العزيز حسن اعتقادك فيَّ على أن تصرفني عن الانفع الى النافع وعن الضروري الى الكمالي ذلك ما لا ارضاه لصداقتك وحبك الخير لى وللناس

بقيت كلمة يقولها كثير من الناس حينما يسمعون باصلاح جديد وهى هل اصلحت كل شيء حتى لم يبق الا الاملاء وهذه الكلمة تقال لى اذا أخذت في اصلاح معاجم اللغة كما تقال لسواى اذا هم باصلاح أى شيء وكان من حقي الا ابالى بهذه الكلمة ولا افرض لها وجودا لانها لا تصدر الا من الذين يكرهون كل تغيير ولو كان في مصلحتهم كما كانوا يقولون وهل علمنا البنين حتى نعلم البنات ولكني أردت أن أجيب عنها لارضى العامة او الجامدين أيضا فاقول افرضوا ان هذا اول اصلاح مستطاع الى الآن افأتركه حتى يتأتى لي اصلاح كل ما عداه وهل أترك ما استطيع لما لا استطيع وهل يتأتى اصلاح كل شيء الا بالبدء فى شيء منه كما بدأت بهذا الآن ثم تجيء الاشياء الاخرى التى تتخيلونها بعد فيتم بهذا ما أردتم وقد يقول المحافظون انا نخشى ان جرينا على طريقة

الاصلاح ان نغير من اشكال حروفنا او ان نخرج بها عن المعروف قديما وحديثا لسائر الامم ومن ذا الذي يعلم ما يصل اليه الامر فقد يتطرف متطرف الى اكثر من ذلك ولهذا لا ينبغي أن نغير شيئا مما نحن فيه *

والجواب ان البقاء على ضرر محقق مخافة ضرر موهوم ليس من الكياسة في شيء وانا اخشى على اللغة من الضرر المحقق اكثر من خشيتنا عليها من الضرر الموهوم على ان الخط أمر اصطلاحي متى ظهرت المصلحة في تغيير شيء منه فاى خطر على اللغة من ذلك وانى اعتقد ان الساعي في اصلاحها الآن اشفق عليها من هؤلاء المحافظين الذين يحتملون الضرر الواقع مخافة الضرر الذى يخيل اليهم *

سادتي واخواني ان الناس لا يرضون منا أن نقتصر في اعمالنا على ما تفرضه القوانين الرسمية على المدرسين منا والنظار والمفتشين بل يطلبون الينا ان نهذب لغتنا ونقرب منهم مأخذها ونزيد لهم مادتها حتى تسع مسمياتهم الجديدة كما وسعت مسميات العلوم من قبل واذا كان الله قد الهم الناس هذه الثقة بنا فقد وجب علينا ان نهب حياتنا للنهوض بلغة كتابه العزيز شكراً له على هذه المنة الجليلة وتحقيقا لظن الناس بنا وحسبة في الخير وحق على كل انسان أن يشد ازر أخيه لنعمل باجتماعنا عملا صالحا فاذا كان لي منكم عون فيما اقترحه اليوم فانا نذلل اكبر صعوبة في سبيل تعليم هذه الامة التي تريد أن يكون التعليم فيها عاما اجباريا ليتعلم أبناؤها القراءة والكتابة وما لابد منه من علم الدين والدنيا ويفرغوا بعد لمزارعهم وصنائعهم كما هو الشأن في الامم الراقية

هذا واني لا رجو من غيرتكم أيها الاخوان ان تنقدوا ماعسى ان يكون قد وقع في خطاب أخيكم نقدكم الصحيح الذى يعهده في ذكائكم وفطنتكم وأسأل الله تعالى لي ولكم التوفيق الى طريق السداد وقبل أن أختم خطابي اناشدكم الله الا ما سرعتم الى العمل مجتمعين اذا تقبلتم اقتراحي بقبول حسن

محمد المهدي

حتام نحن مع الفتنة بإليوت

للدكتور عبد الله الطيب

تمهيد :

توماس ستيرنز إليوت Thomas sterns Eliot . ولد سنة ١٨٨٨ م وتوفى سنة ١٩٦٥ م . نشأ بسنت لويس مسورى من الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية وتلقى تعليمه الجامعى بين سنة ١٩٠٦ م و ١٩١٥ فى هارڤارد بأمريكا والسوربون بباريس وأكسفورد بإنجلترا واستقر بإنجلترا بعد سنة ١٩١٥ وتجنس الجنسية البريطانية ويذكر مترجموه أنه كان من أسرة عريقة الأصل من السلالات البريطانية القديمة ذات جاه وثراء . وكان هو مع أدبه فى إنجلترا من رجال الأعمال الناجحين فى ميدان النشر : وكان مرموق المكان بين أدباء عصره من جانبى المحيط الأطلسى ، قريباً فى المنزلة عندهم مما كان عليه أديبا الأمة العربية الأستاذ العقاد والدكتور طه حسين رحمهما الله . اشتهر أول أمره بعد نشره منظومته (الأرض المقفرة The Waste Land فى سنة١٩٢٢. ويقال: إن الذى نشر حينئذ كان شيئا مختصرا ، اختصره منها - وهى طويلة جدا - صاحبه وأستاذه الروحى إزرا باوند Ezra Pound وعندى أن مثل هذا القول ، صح أو لم يصح ، مما لاينبغى أن يُعَوَّل عليه . وإليوت أعظم بها شهرة بين أدباء الغرب المتعلقين به منه بغيرها ، ولكنه فى فرنسا مثلا أعظم شهرة بمسرحيته (مَقْتَلٌ فى الكنيسة Mured in the Cathedral) وللناس فى ما يعشقون مذاهب .

الفتنة باليوت والأرض المقفرة وحتام نحن مع ذلك ؟ :

الفتنة بإليوت بين أدباء العرب المعاصرين كبيرة جدا . وينسب إليه تفوق وإبداع وابتكار . ومما ينسب إليه فى باب الابتكار مذهبه فى الإشارات والاقتباس . وهذا المذهب قديم فى اللغة الإنجليزية وأقدم فى اللغة العربية افْتَتَنَ فيه من الجاهليين ، على سبيل المثال ، زهير ونابغة بنى ذبيان ، ودع الفرزدق وجريرا وذا الرمة وأبانواس وشيخ المذهب فى المحدثين أبا تمام وتلاميذه

من لان أبي العلاء إلى الحريرى : وكان إليوت معروفا بالانحراف عن جون ماتون John Milton الشاعر الإنجليزى الكبير المشهور ؛ ومن جون ماتون استفاد هو طريقة مذهبه فى الإشارات والاقتباس فتأمل هذه الالتواءة ؛ وكأنما كان أسلوب أمثالها له ديدنا وطبيعة والله تعالى أعلم بسرائر غيابات النفوس :

ويدعو الداعون إلى الاقتداء بأسلوب إليوت والتمذهب بمذهبه ويبغون بذلك النهوض بالشعر العربى الحديث وبث روح جديد فيه أو هكذا يقولون . وفى هذه القضية نظر . هذا أقل مايقال . ولوقلنا إنها قضية دعوى من الضلال البعيد والانحراف السمج ما غلونا . وإليك بعض البيان :

أولا : لفت نظرى أن تعليقات إليوت التى جعلها فى ذيل منظومته المسماة The Waste Land أى الأرض المقفرة = خالية من الإشارة إلى العرب وما يمت إلى العرب وما العرب يمتون إليه (القرآن مثلا والإسلام) مع أن هذه التعليقات ذات حظ وافر من الحرص على إظهار المعرفة العريضة والاطلاع الواسع وبعض الغلو فى ذلك حتى إنها لتوشك أن تشمل أكثر أمم الأرض ولغاتها وآدابها الحاضرة والغابرة :

ثانيا : لفت نظرى أن إليوت قد ضمن منظومته (راجع = The Waste Land and other Poems طبعة لندن فى السنوات ١٩٧٢ و ١٩٧٣ و ١٩٧٥ م) فى السطر ١٠٠ – ١٠٣ ص ٣٠ إشارة إلى شئ من شعر وليم وردزورث William Words Worth الرومانتكى الانجليزى الكبير وفى السطر ٢٦٣ – ٢٦٥ من ص ٣٧ إشارة إلى شئ من شعر والتردى لامير Walter de la Mare منشعراء صدر هذا القرن الشديدى التأثر بالرومانتكية . ولم يذكر فى تعليقاته شيئا يدل على هاتين الإشارتين . وقد يبدو لأول وهلة أن سبب هذا السكوت هو شهرة الشعر المشار إليه . ولكننا نجد أن إليوت يشير إلى بيت مشهور تكرر فى منظومته من شعر سبنسر SPENCER (راجع ص ٣٣ و ٣٤ س ١٧٦ و ١٨٣) وآخر مشهور جدا من شعر ANDREW MARVEL أندروما رفيل (راجع ص ٣٤ س ١٩٦) وأشياء معروفة من التوراة والإنجيل وغير ذلك . إذن ينبغى أن نبحث عن سبب آخر لسكوت إليوت عن البيان غير شهرة ماأشار إليه على نحو ماهو معروف من مذهبه .

ثالثا : لفت نظرى أن ذكر العرب الذى قد أضرب عنه إليوت كل الإضراب له ورود واضح فى أصل الإشارتين اللتين تضمنت معانيهما وألفاظها الأمطار التى أشرنا إليها من قبل فى منظومته — الإشارة الوردزورثية ، نسبة إلى وليم وردزورث ، فى الأسطر ١٠٠–١٠٣ والإشارة الديلميزية ،

نسبة إلى والترى لامير ، فى الأسطر ٢٦٣ — ٢٦٥ « ا » الإشارة التى وردت من إليوت فى س ١٠٠ — ١٠٣ من ص ٣٠ إلى شئ من شعر وليم وردزوورث هى قوله :

..... Yet there the nightingale Filledl the desert with inviolable voice and still she cried, and still the world pursues Jug jug' to dirty ears

ترجمـة تقريبية :

ولكن هناك البلبل
ملأ كل الصحراء بصوت لايطمث ولايغتصب
واستمر يصيح وتستمر الدنيا تطارد
زقزقة صغيرة إلى الآذان القذرة

هذا ، الذى أشار إليه إليوت من شعر وليم وردزورث هو قول هذا فى منظومته The Solitary Reaper أى الحاصدة المتوحدة :

Olisten for the vale profound Is overflowing with the sound. No nightingale did ever chant more welcome notes to weary bands of travellers in some shady haunt Among *Alabian* sands.

وضعنا خطا تحت الكلمة الدالة على العرب من نظم وردزورث لمجرد التنبيه على موضعها و ترجمة هذا النظم التقريبية كما يلى :

ألا فاسمع فإن الوادى العميق
يفيض مفعما بالصوت
وما غنى أبداً بلبل
نغمات أطيب لجماعات مضناة
من المسافرين فى ظل مكان ما
بين الرمال العربية

أخذ إليوت معنى فيض الوادى وإفعامه بالصوت من قول وليم وردزوورث حيث قال (راجع السطر الثانى من كلامه الذى مر) :

..... Overflowing with the sound

أى : يفيض مفعماً بالصوت

فجاء بقوله فى السطر ١٠٠ :

Filled all the desert

أى ملأ كل الصحراء كما مر بك فى الترجمة ، وتتمة السطر فى نعت البلبل بأن صوته الذى ملأ الصحراء لايستطيع أحد له اغتصابا وطمثا inviolable وأصل هذا المعنى مأخوذ من حاصدة وردزوورث المتوحدة . شبه إليوت صوت بلبله بالعذراء الحاصدة المتوحدة التى أفعم صوتها الوادى العميق وفضله وردزوورث على صوت كل بلبل ، ونقل عذرية الحاصدة التى لاتنال لتوحدها وبداوتها إلى الصوت نفسه فزعم له عذرية سرمدية لايستطاع نيلها بغصب وطمث ، لايطمثها أحد لا إنس ولاجان كحور الجنة . وأزعم أن إليوت لايخلو أن يكون نظر فى قوله invoilable إلى هذا المعنى القرآنى — قال تعالى فى سورة الرحمن فى وصف الحور العين : لم يطمثهن إنس

قبلهم ولا جان » ؛ وذلك أن ترجمات القرآن في اللغة الإنجليزية وغيرها من لغات أوروبا كثيرة والاطلاع عليها واسع .

هذا وإليوت فى السطر ٩٩ من منظومته يذكر تغيير صورة فيلوصيل Philomel فى نوع من تكلف وإقحام :

The change of Philomel .....

وهو يريد بذلك أن يوقع فى وهمنا أنه يشير إلى خبر Philomela فيلوميلا الأسطورى وخلاصته (وقد أشار إليه فى التعليقات ص ٤٦) أن ماكا تزوج أخت فيلوميلا (أو فيلوميل) ثم شغف بها هى حبا وغصبها نفسها ثم قطع لسانها لكيلا تكلم أحدا بذلك فاحتالت على بث خبرها بتطريز طرزته وتنتهى الأسطورة بمسخ الغاصب والمرأتين طيرا وصيرورة فيلوميلا (فيلوميل) بلبلا لتتغنى كالتعويض لها عن لسانها الذى قطع . وما أشبه كلمة بلبل بفيلوميل لسهولة تحول الفاء والميم باء ويجوز أن أصل اللفظين واحد قديم موغل فى القدم . وهل لذلك صلة ببابل وهى من أمهات الحضارة ؟ ومن خطأ اليونان أو غيرهم فى هذه الأسطورة نسبة الغناء إلى أنثى البلبل لأن الصادح فى الحقيقة هو الذكر .

والدليل القاطع على أن أصل معنى إليوت أخذه من حاصدة وردزورث المتوحدة محاكاته الواضحة لصياغة وردزورث .

استبدل إليوت قول وردزورث الرمال العربية Arabian sands بقوله هو « كل الصحراء » All the desert وما قوله كل الصحراء . إلا كما لو قال رمال العرب أو الرمال العربية أو الصحراء العربية . واستبدل إليوت قول وردزورث للجماعات مضناة « to weary bands » بقوله هو « للآذان أو إلى الآذان القذرة « to diuty ears » وشبه الصياغة ودليل الأخذ فى النص الإنجليزى واضح جداً . ولاحظ مع هذا أن إليوت حذف اللفظ الدال على العرب حين استبدل قول وردزورث « بين الرمال العربية » بقوله هو « كل الصحراء » :

وردزورث : Among Arabian sands

إليوت : Filled all the desert

وقول إليوت

Jug jug to dirty ears ...

أى : زقزقة صفير البلبل إلى الآذان القذرة .

إنما جاء فيه بحكاية الصوت « زقزق » ليوهم بأنه يشير إلى شكسبير ومعاصريه لكثرة ورود هذه الحكاية فى أشعارهم ويصرف الأذهان عن محاكاته لوردزورث كما بينا من قبل .

ولا يخفى أن ثمة رابطة قوية بين طي إليوت لذكر العرب وطيه لذكر وردزورث وأن هذا الأمر قد كان منه عن عمد لا مجرد مصادفة واتفاق .

«ب» الإشارة الديلميرية نسبة إلى والتردى لامير .

قال إليوت فى منظومته السطر ٢٦٣ — ٢٦٥ ص ٣٠ :

Where fishmen lounge at noon, where the usalls of magnus martyr hold. Inexplicable splendourrs of Ionian white and gold.

الترجمة التقريبية :

حيث يستريح صائدو الحوت فى نصف النهار ، حيث جدران (كنيسة) ماغنس الشهيد تحوى :

مايعجز الشرح من روعة الأبيض اليونانى والذهبى .

الكلمة Inexplicable فى هذا النص ومعناها مايعجز الشرح والتفسير تشبه فى روح الفكرة والصناعة كلمته التى تقدمت فى أخذه من وردزورث وهى inviolable أى لايستطاع اغتصابه . وفكرة الأبيض اليونانى والذهبى فيها مشابه من فكرة إقحامة فيلوميل من قبل من حيث الإيهام بالرجوع الى الأصول القديمة الكلاسيكية وصرف النظر عن موضع الأخذ القريب .

وكذلك ذكر كنيسة ماغنس الشهيد وتعميته بذكر المعمارى رن WREN فى ص٤٨ وهو السير كرستوفر رن SIR CHRISTOPHER WREN يشبه إقحامه «زقزق» ليصرف النظر عن أخذه عن دى لامير ويوهم بإشارة بدل ذلك إلى هذا المعمارى وعصره الرفيع فى تأريخ الحضارة والفن والأدب .

عنى إليوت بالأبيض اليونانى والذهبى من قوله المتقدم نقوش الفسيفساء التى فى سقف الكنيسة من الداخل وأصلها يونانى وقول إليوت : Magnus Martyr أى ماغنس الشهيد عنى به كنيسة القديس ماغنس SAINT MAGNUS وذلك اسم كنيسة مما صممه المعمارى المهندس السير كرستوفر رن. ومعنى « مارتر Martyr » التى أقحمها إليوت هو الشهيد ، وصف وصف به القديس ماغنس المسماة باسمه الكنيسة .

(راجع A HISTORY OF ARCHITECTURE أى تأريخ العمارة لمؤلفه السير بانستر فلتشر SIRBANISTER FLETCHER طبع مدينة لندن سنة ١٩٤٨ م ص ٨١١ — ٨١٥) .

السير كرستوفر رن Sir Christophet Wren (١٦٣١ — ١٧٢٣ م) من كبار رجال الفكر والعلم والهندسة والعمارة فى بريطانيا فى القرن السابع عشر الميلادى ، وثيق الصلة بملكها شارلس الثانى ، أعاد تصميم عدد كبير من كنائس مدينة لندن بعد حريقها الكبير فى سنة ١٦٦٦ م ومما أعاد تصميمه كاتدرائية القديس بولص المعروفة SAINT PAUL'S ونقوش سقفها الداخلية البيض المذهبات تعد من الروائع وقد حاكى بها كريستوفر رن طريقة مايكل انجلو الفنان العظيم فى تصميمه كنيسة القديس بطرس بروما وقد حاكى كرستوفر رن فن النهضة فى سائر ماصممه ولا يستبعد أن يكون إليوت ضمن قوله (ماغنس مارتر Magnus Martyr) على شرحه المتكلف له فى ص

٤٨ فى التعليقات ، معنى كاثدرائية القديس بولص تشبيها لها بكنيسة القديس بطرس فى روما إذ لايخفى أن بطرس الحوارى هو شهيد المسيحية العظيم (ماغنس مارتر) وهذا معنى جانبى تجىء ظلاله من طريق تداعى المعانى والأول مع الشرح هو الظاهر ولكنى أحسب أن هذا هو المقصود وهو الأصل ؟ أضرب إليوت عن ذكر دى لامير وأخفاه

وقول والتردى لامير الذى أشار إليه هو أول كلمته ARABIA أى الجزيرة العربية ، هذا هو العنوان — (انظر ص ١٥٥ من مختارات . الشعر الإنجليزى المسماة Selections from Modern Poets لصانعها ج. س. سكوير J.C. SQUIRE طبع لندن — مارتن سكر MARTIN SECKER سنة ١٩٢١ م . قال والتردى لامير فى أول منظومته :

Far are the shades of Arabia,
Where the princes ride at noon,

هذان أول سطرين وقد نظر إلى هذين السطرين وإلى مابعدهما إليوت نظرا شديداً فى الأسطار التى ذكر فيها فيلوميل والتى قبلها (راجع من أول الفصل الذى عنوانه لعبة الشطرنج حيث يبدأ بشئ كمحاكاة وصف شكسبير لسفينة كليوبترة إلى السطر ٩٩) وليس ههنا موضع تفصيل ذلك .

وترجمة سطرى دى لامير على وجه التقريب :

هيهات ظلال جزيرة العرب
حيث يركب الأمراء فى نصف النهار ؟؟؟

استبدل إليوت عبارة دى لامير the shades of Arabia (ظلال جزيرة العرب) بعبارته هو the walls / of magnus martyr ... (جدران كنيسة ماغنس الشهيد) ؛

حذف إليوت اللفظ الدال على العرب وهو جزيرة العرب Arabia واستبدله بكنيسة ماغنس الشهيد وجعل الجدران فى مكان الظلال التى فى عبارة والتردى لامير ولايخفى أن الجدران وثيقة الصلة بالظلال . والغرار عن جزيرة العرب Arabia إن يك بعضه صادراً عن تعصب دينى أو عنصرى أو عقابيل شعور صليبى مما يدعو إلى التماس ملجأ عند الكنيسة اذ لايخفى أن ظلال جزيرة العرب لاتخلو من معنى ظلال سيوف محمد وصلاح الدين والإسلام والجهاد ؛

وقد كان والتردى لامير (١٨٧٣ م — ١٩٥٦ م) معاصراً لإليوت ، أسن منه شيئاً ووصفه تأريخ كمبردج الصغير لآداب اللغة الانجليزية بالأصالة والملكة ذات الطبع الجذاب — (انظر ص ٨٤٧ — ٨٤٨ من كتاب
The Concise Cambridge History of English Leterature
لمؤلفه جورج سامبسون George Sampson طبعة ١٩٧٥ م) وقد كان ذا روح رومانتيكى وطوى ايليوت ذكره طياً مع أن شاهد محاكاته له واضح فى الصياغة والتركيب كما طوى ذكر العرب والجزيرة العربية ؛

واستبدل إليوت لفظ الأمراء the princrs الوارد فى بيت دى لامير بقوله the fishmen أى صائدو الحوت وقول دى لامير ride (يركب) بقوله lounge (يستريح) واحتفظ بلفظا نصف النهار at noon وهو وحده كاف فى النميمة بالمحاكاة . وكرر إليوت لفظ Where (حيث) الوارد فى بيت دى لامير :

.... Where the princes ride at noon

(حيث يركب الأمراء فى نصف النهار)

يترنم به كما ترى :

لايخفى أن ثم رابطة قوية بين طى إليوت لذكر دى لامير وجزيرته العربية كما بين طيه لذكر وردزورث ورماله العربية ؟

بعض هذا مرجعه كما قدمنا منذ حين إلى الشعور الصليبى الموروث والتعصب الدينى والتعصب العنصرى ، وبعضه مرده إلى الزهو والغرور والاعتداد بالانتماء إلى حضارة اليونان والرومان وأوزوباوالسوربون وهافارد واكسفورد والاستنكاف عن أن ينسب إلى الرومانتيكية لادعائه الانتساب إلى الكلاسيكية مع أنه غارق إلى أذنيه فى الرومانتيكية مدين لشاعرها ووردزورث السابق له فى الأوان ولشاعرها والتردى لامير المعاصر له فى الزمان، وبعضه مردّه إلى شخصيته وبيئته كنشأته فى أمريكا وتحوله إلى الجنسية البريطانية وتقلب أهوائه فى السياسة والدين ، وأكثره مرده إلى طموح جامح طلب مملكة محدودة المدى أن يساوى ملتون وشكسبير ويحل كمثل محلها فى عصره ، معتمداً فى ذلك على الكدّ والمكر والدهاء كالذى رأيت من كتمانه محاكاته لوردزورث ودى لامير وتغطية ذلك بضباب من الكلاسيكية والتعليقات الأكاديميه . وككتمانه أمر ديْنه لهما وإضرابه عن ذكرهما فى النص والتعليقات كذلك كتم أمر دينه للعربية وأضرب عن ذكره والإشارة إليه كل الإضراب .

ووجدت فى كتاب برنارد برغونزى عن ت . س . إليوت فى طبعته البريطانية الثانية سنة ١٩٧٢ م س ١٤٣ (راجع الكتاب واسمه بالإنجليزية :

T.S. ELIOT BY BERNARD BERGONSI

أشطارا هجاه بها أحد نقاده ونصها كما يلى :

How unpleasant to meet Mr. Eliot !
With his features of clarical cut,
And his brow so grim
And his mouth so prim.
And his conversation, so nicely
Restricted to what *Plecisely*
And If and Perhaps and But.

وترجمتها على وجه التقريب :

ما أسمج لقاء المستر إليوت
بسمت تقاطيعه الاكليروسي
وبحاجبه جدّ الكالح
وبفمه جدّ المتنطس
وبمحادثته حق الحريصة على أن

تتقيد بأمثال ماذا تقول على وجه التحديد ، وأمثال إذا كان ويجوز ولكن .

ومع ما في هذه الأشطار من سخرية ومرارة فان الصورة التي تطالع القارئ منها غير بعيدة الصفة والملامح جداً مما يطالع قارئ شعر إليوت من أثناء أسطاره وتعليقاته قبل أن يطلع عليها . وفي الذي قدمنا ما عسى أن يشهد بصحة ما نقوله في هذا الصدد .

* * *

قال الشاعر الجاهلي أحد أصحاب المعلقات، لبيد بن ربيعة العامري :

عفت الديار محلها ومقامها
بمنى تأبد غولها ورجامها

وضعنا خطاً تحت (عفت الديار) إذ لفتتنا قوة الشبه بين هذا التعبير وبين عنوان إليوت لمنظومته The Waste Land أي الأرض التي جُعِلَتْ عافيـةً فأقوت وأقفرت وعفت وعفّتها السنون :

* وغيّر الأيام والليالي *

كما قال ذو الرمة .

في قاموس الدكتور صمويل جونسون أن معنى Waste الصفة المشتقة من الفعل أولا يدل على تعفية المكان وجعله قفرا وثانياً يدل على الخلو كل الخلو مثل خلو الصحراء والبرية التي لا ديار فيها . وكلا المعنيين متضمن في عنوان إليوت The Waste Land أي الأرض التي أقفرت أو الأرض المقفرة أو قل عفت الديار .

ولإليوت بعد هذا العنوان عنوان ثان لفصله الأول هو :

The Burial of the Dead.

أي : دفن الموتى .

هذا أيضاً لفت نظري على بُعْدٍ في ذلك

شعراء العرب تبدأ في باب الأطلال بذكر تعفية الديار ثم تذكر أن الرياح دفنتها بما أهالته عليها من غبار : ثم جاءت رياح أخرى فأزالت هذا الغبار فبدت معالم الدار ظاهرة فيعرفها الشاعر بعد تأمل ، قال امرؤ القيس :

فتوضح فالمقراة لم يَعْفُ رسمها
لما نسجتها من جنوبٍ وشمأل

وقال ذو الرمة : وبائيته مما ترجمه الأفرنج ونشروه وحققوه :

من دمنة كشفت عنها الصبا سفعاً
كما تنشر بعد الطية الكتب

وقال لبيد بعد قوله : (عفت الديار) الذي معناه كمعنى عنوان إليوت
The Waste Land

فمدافع الريان عُرِّيَ رسمها
خَلَقاً كما ضمن الوُحيَّ سلامها

أي كانت مدفونة فعرّتها الرياح وعرّتها السيول فأظهرتها ، وذلك قوله :

وجلا السيول عن الطلول كأنها
زبر تجد متونها أقلامها

وبعد تعفية الديار ودفن الرياح لها ثم كشفها لها من بعد وتعريتها لرسومها حتى بدت كالنقش القديم على حجارة آثار الأمم الماضية ، بعد هذا يقول لبيد :

رزقت مرابيع النجوم وصابها
ودق الرواعد جودها فرهامها

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت
بالجلهتين ظباؤها ونعامها

والعين ساكنة على أطلائها
عوذا تأجل بالفضاء بهامها

وجلا السيول عن الطلول كأنها
زبر تجد متونها أقلامها

وموضع استشهادنا هو البيت الأول الدال على أن مدافع الريان التي دفنتها الرياح ، وهذا المعنى متضمن معروف ، قد عريت فبدت ملمساً عليها الآثار كالنقوش إما عرتها رياح معاكسة التي دفنتها وإما عرتها السيول .

ورب قائل إن المعاني مشتركة والعواطف الإنسانية التي تلابس المعاني متقاربة وخواطر البشر كثيراً ما تتفق ، ولذلك قديماً ما قيل ، قد يقع الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر ، ويرد على مثل هذا القائل بأن الصياغات والأشكال البيانية والرنات المغ ة المؤثرة هي التي يتفوق بها الشعراء والكتاب والخطباء ويتميزون عن غيرهم ، وهي التي يقع فيها التقليد الأخـذ والتوليد والنظر والإغارة والاختلاس . ولقد فطن إلى ذلك نقاد العرب القدماء وخصصوا له الأبواب في تصانيفهم . ومما تعمقوا في الفطنة إليه والتنبيه عليه أن الأخذ يكون نوع الصياغة كما يكون في المعاني . من ذلك مثلا ما ذكروه عن أبي عبادة البحتري أنه سأل النوبختي عن بيت أبي نواس :

ولم أدر من هم غير ما شهدت به
بشرقي ساباط الديار البسابس

وهو آخر أبياته السينية الجميلة التي أولها :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا
بها أثر منهم جديد ودارس

أتدري من أين أخذ أبو نواس قوله ؟ قال النوبختي فقلت لا . قال من قول أبي خراش :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه
ولكنه قد سل عن ماجد محض

قلت له : والمعنى مختلف ؟ قال : أما ترى حذو الكلام واحداً ؟

وأبو خراش من شعراء هذيل والبيت من قطعة يذكر فيها أبو خراش مقتل أخيه عروة ونجاة ابنه خراش ويمدح رجلا ألقى على خراش رداءه ليجيره حتى نجا ولم يعرف هذا الرجل فهذا مراده من قوله : « ولم أدر من ألقى عليه رداءه ، وفطن البحتري إلى أن أبا نواس حذا كلامه على نهج كلام أبي خراش مع اختلاف المعنى والموضوع . وقد كان البحتري ناقداً ثاقب النظر (راجع الذخيرة لابن بسام : دار الكتب مصر

سنة ١٩٣٥ م القسم الأول المجلد الأول ص ٥٩ — ٦٠) .

ومن أمثلة حذو الكلام على الكلام مع شدة مراعاة الصياغة على تقارب المعانى قول المعرى يصف نار القرى :

حمراءُ ساطعة الذوائب فى الدُّجى
ترْمى بكل شرارة كطراف

والطراف ضرب من بيوت البادية .

حذا المعرى كلامه على الآية : « إنها ترْمى بشررٍ كالْقَصْرِ » وقد نبه على هذا الزمخشرى فى تفسير هذه الآية فى الكشاف .

ومن أمثلة الحذو بمراعاة الصياغة مع تباعد المعانى قول المتنبي :

فياشوق ما أبقى ويالى من النوى
ويا دمع ماأجرى ويا قلب ماأصْبى

وهو فى نسيب قصيدته (فديناك من ربع وإن زدتنا كربا) حذاه على منهج ليلى الأخيلية فى رثائها توبة بن الحمير حيث قالت :

فيا توْب للهيجا ويا توب للندّى
ويا توْبَ للمستنبح المتنوّر

اهتم أبو الطيب كما ترى بمحاكاة الإيقاع (راجع إلتماسة عناوين الشعراء ص ١٢٢) وإنما استطردنا هذا الاستطراد للتنبيه على أن الأخذ لايقع فى المعانى وحدها وأن التشابه والتوافق وتوارد الخواطر فى المعانى جائز ، أما الصياغات وأشكال الأداء فأمرها مختلف ، ومتى وجدنا تشابهاً فيها وجب علينا أن نرجح أخذ المتأخر فى الزمان عن المتقدم وأن نجزم بذلك حتى ما وجدنا مايدل على الصلات والوسائط التى يكون بها الأخذ. ورب حَدْسٍ كترجيح وترجيح كجزْم . والله تعالى أعلم .

ونحن إذ ذكرنا لبيداً والأبيات الأوليات من معلقته نريد التنبيه على حذو إليوت على شكل القصيدة العربية بوجه عام وعلى أول معلقة لبيد بوجه خاص وكذلك حذا على نماذج من معلقة امرىء القيس — على أنه لا ينبغى أن ننسى غموض إليوت والتواءات أسلوبه ولا شيئيته ذات السطح المتعمق .

سياق معانى لبيد هكذا :

(١) تعفية الديار : The Waste Land

(٢) اندفات الرسوم ثم تعريتها حتى وضحت معالمها : The Burial of the Dead

(٣) هطول أمطار الربيع وما نشأ عنها من زيادة التعفّية .

April is the cruellest month

جعلنا فى مقابلة سياق لبيد بعض عناوين إليوت وابتداءاته : سياق تأليف إليوت ينتهى بعد عنوانيه The Waste Land (الأرض المقفرة ، الأرض التى عفت ، عفت الديار) The Burial of the Dead (أى دفن الموتى وقد تقدم كلامنا عنه)

بذكره الربيعَ وأمطارَه كالذى صنعه لبيد في قوله :

رزقت مرابيع النجوم وصابها
ودق الرواعد جودها وجهامها

قال إليوت بعد العنوانين اللذين يشبهان طريقة بَدْء قدمائنا بعفاء الديار واندفانها (انظر منظومته من السطر ١ — إلى — ٨ ص ٢٧) :

April is the cruellest month breeding
Lilacs out of the dead land, mixing
Memory and desire, stirring Drill roots
with spring rain. Winter kept us warm,
covering Earth in forget ful snaw, feading
A little life with dried tubers.
Summer surpoised us .....

نافت النظر أول شيء إلى لزوم إليوت في خمسة من أسطاره هذه نظاماً ذا شبه بالقافية العربية وهو الصيغة الصرفية (انق) ing . وقد جاء بسجعة تامة فى breeding (بريدنق — القاف مقاربة للكاف كنطقها فى دارجتنا ودارجة كثير من البلاد العربية feeding (فيدنق) وكالتامة فى stirring (ستيرنق) وفى covering (كفرنق) وترجمة كلام إليوت الذى مر كما يلى على وجه التقريب :

أبريل أقسى الشهور ، منبتاً :
زهرة ليلى من الأرض الميتة ، مازجاً .
الذكرى بالشهوة ، مثيراً .
الجذور الفاترة بمطر الربيع ؟
كان الشتاء قد حفظنا فى دِفْئه ، مغطياً
الأرض فى الجليد الناسى ، مطعماً .
حياة قليلة بأنابيش جافة
فاجأنا الصيف . . . ؛

قول إليوت : أبريل أقسى الشهور الخ بعد تعفية الأرض The Waste Land وبعد دفن الموتى The Burial of the Dead يشبه قول لبيد :

رُزِقَتْ مَرَابيعَ النجوم وصابها
وَدَقُ الرواعد جَوْدها فرهامها

الجود بفتح الجيم وسكون الواو المطر الغزير والرِهام بكسر الراء وهاء مفتوحة بعدها ألف ثم ميم جمع رهمة بكسر الراء وسكون الهاء وميم مفتوحة بعدها علامة التأنيث التاء المتحركة وهى الأمطار الخفاف اللطيفة .

ترجمة هذا البيت كما ترجمه المستشرق الانجليزى السير وليم جونز :

The rainy constellations of spring have made their hills green and luxuriant : the drops from thunder clouds have, drenched them with profuse as well as gentle showers.
Showers

مجمل معنى كلام لبيد أن أمطار نجوم الربيع هطلت على هذا المكان المقفر فزادته توحيشاً لتعفيتها كل أثر ولخلوه من الأحبة ، ولحلول النعام والبقر الوحشية وما أشبه فيه بعد عهدهم . هذه قساوة لاتخفى ؟

مع هذا علينا أن نتذكر أن السير وليم جونز جاء فى ترجمته بكلمة Showers ومعناها رش المطر وهموله فى قوله :

.... Profuse, as well as gentle showers..

ليدل بذلك على معنى المطر الغزير (الجَوْدُ) والأمطار الخفاف اللطاف (الرهام) أو كما قال لبيد : وَدْقُ الرَّواعدِ جَوْدُها فَرِهامُها » .

قول وليم جونز هنا « ... Showers » ينبغى أن يوقف عنده لأن هذه الكلمة كثيراً ما ترتبط فى الذهن بالقول الانجليزى المعروف الجارى مجرى المثل :

March winds, April showers, Bring forth May flowers.

أى رياح مارس وأمطار أبريل .

تخرج بهن أزهار مايو .؟

«لا يخفى أن مارس هو آذار وأبريل نيسان ومايو أيار فمن شاء أن يضع ذلك مكان ما وضحناه فله أن يفعل) .

وأبريل بحبوحة أشهر الربيع فذكره يدل عليه . واستشهدنا بترجمة وليم جونز لنشير إلى أنه لو صحَّ أن إليوت أطلع عليها فإنه يكون بنى قوله « أبريل أقسى الشهور » على كلمة (Showers) الواردة فيها . وقد سبق التنبيه منا على أن قوله : « أبريل أقسى الشهور » بعد عنوانيه الدالين على العفاء والأندفان شبيه فى سياقه بسياق لبيد :

(١) عفت الديار محلها فمقامها . . .

(٢) فمجلا السيول عن الطلول . . .

(٣) رزقت مرابيع النجوم . . .

ولا يقف الأمر عند هذا كما سيجىء من بعد أن شاء الله :

هنا نتساءل : هل أطلع إليوت حقاً على ترجمة السير وليم جونز للمعلقات ؟

كان السير وليم جونز. Sir William Jones (١٧٤٦ – ١٧٩٤ م) من قدماء الاستشراق وجهابذته تعلم فى هافارد واكسفورد — (التى قصدها إليوت وتعلم بها (وأتقن اللغات الكلاسيكية (أى اليونانية القديمة واللاتينية) مع الفرنسية ولغـات أوربية معاصرة أخرى ودرس العربية والفارسية وكتب ملخصاً فى نحوها وبعد درسه القضاء واشتغاله بالقانون عُيِّن قاضياً بالمحكمة العليا بفورت وليم (كلكتا) بالهند وتعمق فى درس السنسكريتية (لغة الهند القديمة) وكتب رسالة عن الشعر الشرقى باللغة الفرنسية

TRAITÉ SUR LA POÉSIE ORIENTALE

طبعت أول مرة بلندن سنة ١٧٧١م [وأعيد طبعها وأعاد كتابتها بلغته الإنجليزية أيضاً] أشاد فيها بمكان الشعر العربى ونبه على موضع معلقة لبيد وامرئ القيس واستشهد فى ما استشهد بقول أبى تمام :

إن القوافى والمساعى لم تزل
مثل النظام إذا أصاب فريدا
هى جوهر نثر فإن ألفته
بالنظم صار قلائداً وعقودا

مترجماً للبيتين من دون ذكر نصهما العربي وله مختارات من أشعار العرب والفرس وأمم المشرق من ضمنها لامية المعري .

أعن وخد القلاص كشفت حالا

ومن عند الظلام طابت مالا

أوردها نموذجاً لشعر المدح الذى استشهد على أهميته ببيتي أبي تمام المتقدمين . وكان أبو تمام من أوائل من عرفه المستشرقون وطبعت حماسته فى ألمانيا سنة ١٧٤٨ وترجمت باللاتينية وقد تأثر جوته الشاعر الألمانى فى ترجمته للامية المنسوبة إلى تأبط شرا :

إن بالشعب الذى دون سلع

لقتيـلاً دمـه ما يُطَلّ

بترجمة فرتياخ اللاتينية فى ما زعمه المستشرق الإنجليزى السير شارلس ليال .(انظر ترجمته لها وتعليقه ص ٥٠ مختاراته المترجمة من الشعر العربي القديم

TRANSLATIONS OF ANCIENT ARABIAN POETRY

تأليف شارلس جمس ليال

CHARLES JAMES LYALL

الموظف ببنغال طبع لندن١٨٨٥ م) .

وترجمة السير شارلس ليال هذه ذكر هو نفسه أنه صنعها متأثراً بترجمة ألمانية للحماسة .

وقد ترجم السير وليم جونز المعلقات السبع ترجمة حسنة ناصعة الأسلوب وجعل لكل معلقة مقدمة موجزة وافية تحدث فيها عن الوزن وما يقابله من أوزان الإنجليزية وعن طريقة أسلوب الشاعر ومعانيه وتشبيهاته ومجازه وعناصر الوحدة فى نظمه وأردف ذلك بكتابة بالحرف اللاتيني بحسب النطق لكل معلقة مبالغة منه فى التقريب . وقد تأثره واقتدى ليال فى كتابه المشار إليه آنفا ونيكلسون فى ترجماته التى ضمنها تأريخه للادب العربي . ولم يترجم ليال من المعلقات غير آخر لامية امرىء القيس وغير ميمية زهير وكأنه اكتفى فى هذا المجال بعمل السير وليم جونز لجودته . وترجمه السير وليم جونز للمعلقات فى ٤٦ صفحة نشرت وطبعت بلندن سنة ١٧٧٢ م وسنة ١٧٨٣ م ومرات بعد ذلك وتوجد من ذلك نسخ فى مكتبة المتحف البريطانى رأيتها ومن قبل اعتمدت على نسخة صورت لى منها وفى كمبردج نسخة من مجموعة مؤلفات السير وليم جونز صورت لى منها نسخة من رسالته عن الشعر الشرقى المشار إليها آنفاً ولا ريب فى وجود نسخ من مؤلفاته باكسفورد وسوى ذلك من ذلك من خزانات الجياد وترجمة السير وليم جونز المستشرق فى الجزء الثالث عشر من الموسوعة البريطانية ومكان اسمه فى الفهارس عامرٌ بماله من تصانيف ومن أهم تآليفه ترجمته للسكونتالة وهى من مسرحيات اللغة الهندية القديمة . وترجح الموسوعة البريطانية (ج ١٣ ص ٢٤٤ طبعة ١٩٤٧ م. (أن مؤلفها ـ كالداسة KALIDASA من أدباء الهند القديمة عاش

فى المائة الميلادية الثالثة وللسير وليم جونز كتاب فى الموازنة بين تشريع الملكية الخاصة عند المسلمين وعند الهندوس وغير ذلك مماهو ادخل في حدود فلسفة القانون وعلوم الاجتماع :

إذا تذكرت أيها القارىء الكريم أن إليوت كان على جوينب من الاستشراق إذ قد درس لغة الهند القديمة سنتين بهارڤارد وفلسفة الهند مدى سنه وهو يعد للدكتوراه ، ثم عدل عن ذلك لما وجد فيه من العسر ، وقد قال : إن دراسته هذه ، معترفاً بما أصاب فيها من مشقة ، تركته فى حيرة مستنيرة enlighted mystification (واجع كتاب برغونزى ص ٢٣) ومع ذلك كان يزعم أنه كان يتذوق الشعر — السنسكريتى وقدترك فى نفسه أثراً عظيماً.
إذ تذكرت هذا وأضفت إليه صحبته لإزراباوند وتأثره به وكان هذا ذا ولع صادق فيه أو كاذب بلغة الصين وآدابها . وإذا أضفت أيضاً أن إليوت اتصل بجماعة التصويريين Imagists — وكانوا يدعون إلى محاكاة اشعار الشرق واساليب اغانى العهد القديم العبرانية ، وزدت على هذا ان إليوت نفسه قد ذكر أنه كان قرأ فى صباه رباعيات الخيام المترجمة وأعجب بها :

احسب أن إليوت ذكر أن ذلك كان سنه فى زمان الصبا أنفة منه أن ينسب إلى — الرومانتيكية وهو صاحب كلاسيكية زعمه وواقعية جادة : ونذكر على سبيل الاستطراد فى هذا الصدد مقال برتراندرسل Bartrand Russel فى كتابه :
HISTORY OF WESTERN PHILOSOPHY
تاريخ الفلسفة الغربية طبعة ١٩٧٤ م ص ٦٥٤ حيث قال عن الرومانتكيين الألمان : إنهم كانوا شباناً وفى أوج شبابهم كان أجود تعبيرهم عن الروح الرومانتيكى ، أما الذين لم يسعدهم الحظ منهم بالموت فى الشباب كما قال فقد طاحت فرديتهم إذ طغت عليها فغطتها الكثلكة بما تتطلبه من خضوع وتسليم . فهل كان تراجع إليوت من مذهب أسرته وآبائه البيوريتانى — والبيوريتانية طرف من المذهب البروتستانتى — إلى محافظة الكثلكة الإنجليزية من دافع رومانتكى يا ترى ؟ هذا وإذا تذكرت مع ما تقدم أن إليوت أديب مثقف ناقد قارىء وذو دعوى فى ذلك طويلة عريضة ، ألا ترجح معى حينئذ ألا يكون قد خفى عنه مكان السير وليم جونز المستشرق فى معرفته باللغات الشرقية والصينية والسنسكريتية وآدابها وفلسفة الهند القديمة مما زعم أنه أثر فيه وإن يك قد وجد فيه عسراً وانصرف عن مواصلة درسه متحيراً مستنيراً كما زعم ، ولعل السكونتالة مع ترجمة وليم جونز كانت من مقرر الدرس . وقد كانت رسالته الفرنسية وأختها الإنجليزية عن الشعر الشرقى معروفتين عند المستشرقين وقد ذكرنا أنه نبه على المعلقات وعلى امرىء القيس ولبيد وقد دافع عن شعر العرب وقطع بأن الافرنج الاوائل إنما أخذوا القوا فى عن

عرب الأندلس ؟ أضف إلى هذا أن إليوت كان معجباً بالبريطانيين وامبراطوريتهم معتزاً بذلك ، وقد ترك بلاده التي كانت تعد من بلاد الرمز إلى الحرية لثورتها على الاستعمار فى سنة ١٧٨١ م ولإعلانها حقوق الإنسان ، وتجنس بالجنسية البريطانية وببريطانية أقام وإلى كنيستها الإنجلوكثلوكية انتمى ؟

ونذكر من باب الاستطراد أن إليوت كان شديد الإعجاب بالشاعر المعاصر لزمان شكسبير جون دن John Donne وكان غامض العبارة كثير الإشارة ملتوى عقد الأسلوب واسع الاطلاع عالماً بالكوميدية الإلهية لدانتى فى نصها الأصيل من أسرة متطرفة فى الكثلكة نشأ كاثوليكياً ثم تحول إلى كنيسة إنجلترا الإنجلوكثوليكية وأخلص فى خدمة الملك واتهمه بعض نقاده بأنه كان فى نفسه منطوياً على شعور بالخيانة لعقيدته وتراث أسرته فلذلك جرّ عليه كثيراً مما أخذ به من عُقَد الأسلوب . وحمد النقاد لجون دون أنه قارب برنة نغمه الشعرى رنات نبرات الكلام الذى يدور فى حديث الناس .

هذا والشيء بالشيء يذكر ، فتأمل .

ونعود إلى ما كنا فيه فنقول : لا بد أن يكون إليوت قد اطلع على مؤلفات السير وليم جونز فى شعراء فارس والصين والهند وضروب تصانيفه فى هذا الباب الشرقى القصىّ الذى كان فيه من أعمدة أستاذيْه : شارلس لامان وجيمز وود :

(Charles Lamman and James Wood)

أستاذى السنسكريتية والفلسفة الهندية بها فى هارفرد بلا ريب . وهل تظن أيها القارىء الكريم أنه إذا دعا واجب الدرس إليوت الطالب المعد للدكتوراة أن يتحبر ويستنير بشعر السنسكريتية — وهو أمر أقر بمعرفته وادعى تذوقه وسكونتالة جزء منه ومعرفته ترجمتها متممة لتذوقه — هل تظن أنه إذا اطلع على ذلك وعلى ما تُرجِمَ من أدب الفرس وكان إليه مائلاً ولوليم جونز فيه من العمل ما قدمنا ذكره مع اختياراته من شعراء الشرق ومن بينهم حافظ الشيرازى . . . هل تظن أنه إذا فعل ذلك سيتجاهل كتاب وليم جونز الخفيف اللطيف الوافى الذى ترجم فيه المعلقات ؟ هذا مع العلم بأن السير وليم جونز قد نبه فى رسالتيه الفرنسية والإنجليزية عن مكان شعر المعلقات الرفيع ؟

إن مكتبات الأقسام الشرقية فى جامعات أوروبا كثيراً ما تكون فى موضع واحد ، وكثيراً ما تقع بين طلبة لغات الشرق الذين يختلفون إليها ضروب من التعارف وتبادل الآراء ، ويكونون أشبه بقبيلة فكرية واحدة ، فيشتاق من يقرأ الهندية مثلا أن يقرأ لمستشرق مشهور كتب فى آداب الفارسية أو التركية أو العربية مثلا أو كتب فى باب من أبواب الأدب المحض ذى الطابع الشرقى القوى كالسير شارلس داوتى Sir Charles Doughty فى كتابه ARABIA DESERTA (أي الصحــراء العربية) وردیارد كبلنج Rudyard Kipling فى قصته KIM (كم)

وغيرها وكان إليوت به معجباً وقد عاصره ولعله لقيه وكان يقال له شاعر الامبراطورية الكبير ووصفه إليوت بأنه — كان من كتاب التراتيل الدينية العظام فيما ذكره روبسون (ص ١٧) a great hymn writer . وكان للمدرسة الهندية البريطانية في المكتبة الشرقية مكان مرموق وقد قدمنا ذكر السيروليم جونز وكان فيها بمنزلة المؤسس وممن كان ينتمي إليها من الكبار المستشرقين السير شارلس ليال صاحب ترجمة المختارات التي مر ذكرها ومن بينها شيء من المعلقات (زهير وامرىء القيس) وصاحب ترجمة المفضليات والشرح والتعليق الوافي (اكسفورد عام ١٩١٨) وراجع للمزيد في هذا الصدد تاريخ كمبردج الصغير للأدب الإنجليزي الذي مر ذكره في الفصل الذي جعله للأدب الهندي الإنجليزي من ص ٧٣٤ إلى ص ٧٤٤ . وقد نشر مكارتني على زمان إليوت شعر ذي الرمة ولعله لقيه وقد ترجمت بائية ذي الرمة من قبل . وقد ترجمت المعلقات بالفرنسية وبانت سعاد وترجم بالألمانية شعر عربي كثير وكان إليوت بالفرنسية والألمانية وغيرهما عالماً وقد درس بألمانيا كما درس بباريس .

إذا صح ما قدمناه من تعارف أسرة من يعرفون اللغات الشرقية وتقارب أسباب قبيلتهم فكيف يكون الأمر إذ كان أحد هؤلاء أديباً شاعراً طموحاً موسوعياً ذا مقدرة و دهاء مثل إليوت وأصاب ضالة نادرة في موسوعي نادر مثل وليم جونز الذي لما وصل الهند كان مستشرقاً ناضجاً وزاد بها نضجاً وفتح الطريق لمن بعده ؟

على أن الاستشراق في زمان إليوت في هذا القرن الميلادي العشرين إلى قريب من أوساطه قد صارت تغلب عليه سمة التخصص مكان الموسوعية فإذا أخذ إليوت مثلا من الأدب العربي وهو غير معروف بأنه درس لغة العرب وآدابها ولكن معروف بأن درسه إنما كان للغة الهند القديمة ، فمن سيفطن إلى أنه أخذ من الأدب العربي القديم ثم يتهمه بناء على ذلك بالسرقة من أدب العرب ؟

بعيد جداً أن يتنبه أحد إلى أن — السير وليم جونز صاحب ترجمة السكونتالة أو الشاكونتالة Shatuntala (تأريخ كمبردج ٧٣٥) والمختارات من أشعار فارس والهند والصين هو أيضاً قد كان طريقاً سرياً خفياً سلكه إليوت إلى النظر او الأخذ أو الاختلاس أو السرقة من أسلوب المعلقات وشكل صياغتها ومعانيها وكتمان ذلك وإخفائه كل الإخفاء وحذفه كل الحذف ، كما قد حذف كلمة (العربية Arabian) وإشارته إلى وليم وردزورث وكلمة (جزيرة العرب Arabia) وإشارته إلى — والتردى لامير . نعود بعد هذه الفذلكة إلى ماكنا فيه من تتبع أسطار منظومة إليوت :

* * *

أول ما ذكره إليوت من شواهد قساوة إبريل انباته زهرة ليلى و هى التى يقال لها فى الإنجليزية : (ليلاك : Lilac) ونقل برغونزى (ص ٥) أن الليلاك كان كثيراً فى سياجات ها فارد النباتية كأنه يشرح بذلك وروده فى شعره . وذكرُ إليوت هذه الزهرة الشرقية الإسلامية المعدن فى سياقه الذى يقرنها فيه بالذكرى والجنس .

عجب : (راجع قوله :

...., breeding
Lilacs out of the dead land, mixing
Memory and desire, ...

والترجمة : منبتاً
زهرة ليلى من الأرض الميتة ، مازجاً الذكرى بالشهوة) .

إذ قد كان أشبه بأساليب لغته وحضارته لو قد ذكر الوردو كان من ضروب نواوير أوربا وبريطانيا وأمريكا — أم ليت شعرى هل فر من رومانتكية الورد وما بمجراه ؟

فى معجم أكسفورد فى تخريج كلمة (ليلاك Lilac) أن أصلها من (ليلك) العربية ولا وجود لهذا اللفظ (ليلاك أو ليلك) فى العربية اسماً لهذه الزهرة . وأصل هـذا التخريج من المستشرق ر . دوزى R. Dozy (راجع المجلد الثانى ص ٥٦٢ من معجمه طبعة باريس وليدن ١٩٧٢ — واسم المعجم يدل على أنه تكملة وملحق للمعاجم العربية :
(SUPPLEMENT AUX DICTIONAIRES ARABES)

ظن دوزى أن النيلج بكسر النون هو الليـلاك Lilac مع أنه كان يعلم أن النياج بكسر النون هو النيلة الزرقاء . وذكر — الفيروزابادى (النيل) بلا تاء فى آخرها فى مادة (وسم) فى تفسير لفظ الوسمة بفتح الواو وكسر السين أو سكونها وبعدها ميم مفتوحة فهاء التأنيث قال الفيروزابادى : « ورق النيل أو نبات يختضب بورقه » . وأحسب أن الشك جاء الفيروزابادى من أن لفظ العظلم الوارد فى شعر عنترة يستخرج منه صبغ أسود أو النيلة وقيل هو صبغ أحمر وبيت عنترة هو قوله فى معلقته :

عهدى به مـدّ النهار كأنما
صُبِغَ البنان ورأسه بالعظلم

وذكر الفيروزابادى (النيلج) بكسر النون فى مادة (نلته) وذكر طريقة استخراج (النيلج) بمعنى (النيلة) من العظلم . جاء هنا بالنيلة مقرونة بالتاء المتحركة علامة التأنيث وفى شرحه لكلمة (الوسمة) ذكر النيل مثل اسم نهر النيل بلا تاء التأنيث . وكلمة (النيلج) بكسر النون غير عربية الأصل ولكن معربة مثل فالوذج وابرزينج وهلم جرا ومعنى النيلج كما تقدم النبات الذى تستخرج منه النيلة الزرقاء .

واضطرب شراح بيت عنترة واكتفى السير وليم جونز برسم لفظ العظلم نفسه بالحروف اللاتينية من دون ترجمة له ، هكذا (IDHLIM) والراجح عندى أن

عنترة أراد لون الزرقة لا الحمرة يكنى بذلك عن الموت وذها بحمرة دم الحياة . وقد نقل عن الأزهرى أنه اختضب بالعظـلم يسود به شعره فهذا يقوى ما ذكره — الفيروزابادى وعليه تفسير التبريزى فى شرحه أن العظلم هو الوسمة ولم يزد على ذلك عن عنترة أن عـهـدـه به ، وقد قتله ، وقد صار لون رأسه كله ، والوجه من الرأس ، ولون أصابعه أزرق هامداً بعد أن كان كل ذلك مشرقاً ناضراً بالحياة . ولا يخلو عنترة فى قوله هذا من بعض التعريض الساخر المر ، كأن يقال مثلا : « صار المسكين أسود مثلى أنا العبد بعد أن كان حراً أبيض » . قال تعالى : « ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً » . والله تعالى أعلم .

ليس (النيلج) بكسر النون هو الليلاك Lilac

الليلاك شيء غير النيلج . الليلك Lilac هو زهرة ليلى الفارسية وقد يقال له فى عربية اليوم زهر البنفسج وليس كله بنفسجياً ولكن منه ذو اللون البنفسجى وذو اللون الأبيض . وفى معجم أكسفورد ومعجم وبستر أن الشبه المتوهم بين اللون الأزرق واللون البنفسجى هو مما جعل اسم « ليلاك Lilac » يطلق على الزهرة المسماة باسمه اشتقاقاً من كلمة (النيلج) الدالة على اللون الأزرق وهـذا أصله من دوزى وهو بعيد وليس بشيء : وفى معجم لاروس الفرنسى أن أصل « الليلاك » من بلاد الشرق الأوسط وأنه يزرع من أجل نواويره البيض والبنفسجيات وذكر لاروس أنه من أسرة Oléacées (أوليباسيه) التى منها الياسمين والزيتون .

ويظهر أن هذه الكلمة الفرنسية Oléacées (أوليباسيه) نفسها قد حرفت من الفارسية (جل ياس) تنطقها كالجيم المصرية بين الكاف والقاف وتكتب بالكاف المعقودة (كل ياس) . على أن أصل Oléacées لاتينى فى مدلولها العام .

و (جل ياس) أصلها من (جل ليلى) أو (كل ليلى) أى وردة ليلى أو زهرة ليلى ثم شبهوها بالياسمين فقالوا : (جل ياس) أو (كل ياس) بالكاف المعقودة كما ذكرنا من قبل .

ونبئت أن (جل) بالجيم التى كالكاف معناها بالفارسية الورد وهى أصل الجل بفتح الجيم وضمها الواردة فى شعر الأعشى :

وشاهـدنا الجل والياسمون
والمسمعـات بقصـابهـا

قال الفيروزابادى : (وبالضم ويفتح الياسمين والورد أبيضه وأحمره وأصفره) ومن (جل ياس) أخذت كلمة Oléacées الفرنسية ومنها أخذت الكلمة الدالة على هـذا الزهر فى الفرنسية الآن وهى : ليلا بكسر اللام بعدها ياء فلام ألف (Lilas) — راجع لاروس الكبير طبعة ١٩١٥ م المجلد ٤

ص ٣٠٥٣ والمجلد ٥ ص ٣٧٦٠ . وراجع أيضاً المعجم الفارسى المتوسط لمحمد معين طبعة طهران ١٩٧٥ م ص ٥٢٤٣ فى المجلد الرابع وقد اطلعتُ عليه واستعنت بمن يعرف الفارسية ومنه أفدت ما تقدم وذكر كلمة (ليلاك) وهى ذات مدلول مختلف فى — المجلد ٣ فى ص ٣٦٧٠ .

وقد ذكر لين LANE فى معجمه العربى الإنجليزى أن الخل من أصل فارسى وأصاب (طبعة بيروت المصورة ١٩٨٠ م ٢ ص٤٣٧) والعجب لبادجر BADGER فى معجمه العربى الإنجليزى (تصوير بيروت ١٩٨٠ م ص ٥٧٦) إذ ترجم (ليـلاك Lilac) بـ (لعَلّى) وهى لفظ لا وجود له .

هـذا ،

وبعد أن انتهى إليوت من نعت قساوة إبريل ، منبتاً زهرة ليلى ، مازجا الذكرى بالشهوة ، انتقل إلى ذكر الصيف وذلك قوله :

SUMMER SURPRISEDUS ...

ومعناها : فاجأنا الصيف . . .

تأمل شدة الشبه بين قول لبيد :

رزقت مرابيع النجوم . . . (البيت)

فعلا فروع الأيهقان . . . (البيت)

وبين قول إليوت جاء الربيع منبتاً زهرة ليلى . . . إلخ . تأمل الشبه فى السياق والصياغة بين قول لبيد : (فعلا فروع الأيهقان بعـد ذكره مطر الربيع وبين قول إليوت منبتاً زهرة ليلى (الليلاك) بعد ذكره مطر الربيع الذى إبريل رمز له . . . منبتاً زهرة ليلى . . . أى فعلت أغصان « الليلاك » كما علت فروع أيهقان لبيد . الأيهقان عربى و « الليلاك » فارسى . محاكاة نهج لبيد الذى اطلع عليه فى ترجمة وليم جونز لا تخفى .

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت
بالجلهتين ظباؤها ونعـامها

جاءت الظباء والنعام فى مكان الحبيبة والظبية تشبه بها الحبيبة . ههنا مجال للذكريات واتصال معنى ولادة الظباء أطفالها وإفراخ النعام بالشهوة غير خاف ، ومن هنا أخذ إليوت مزجه الذكرى بالشهوة . ثم انتقل من بعد إلى ذكر الصيف وذلك قوله :

Summer surprised us ....

أى فاجأنا الصيف .

ثم انتقل بعد مفاجأة الصيف له إلى ذكر (محبوبة) التجأ معها من مفاجأة مطر الصيف إلى بناء ذى صف من أعمدة ثم خرجا إلى ضوء الشمس ثم إلى الحديقة .

ولبيد بن ربيعة العامرى صاحب المعلقة يخرج من نعت القفر إلى مرابيع النجوم أو كما قال السير وليم جونز فى ترجمته :

.... profuse, as well as gentle showers

ثم يخرج من ذلك إلى إنبات الأيهقان ، وهو من نبات البادية قيل هو الجرجير البرى ، الذى علت فروعه ، ثم إلى الوحش

الذى خلف الأحباب على الديار وجعل بحيوية الربيع يُطَفِّل ويُفْرِخ. ثم يتذكر لبيد الحبيبة ويقسو عليها وعلى نفسه حين يقباح فى صدره أمر انصرام عهودها وتبدد زمان وصلها :

بل ما تذكر من نوارٍ وقد نأت
وتقطعت أسبابها ورمــامها

يقول السير وليم جونز فى مقدمته لقصيدة لبيد : إن أبياتها الخمسة عشر الأولى من روائع التصوير ، يعذل الشاعر فى آخرها نفسه على هواه الضائع سدى عند امرأة لا تستجيب ، فيدعوه ذلك إلى أن يفر من الهوى إلى الراحلة ، ثم يعود إلى ذكر محبوبته نوار بعد نعت الرحلة برجوع فيه نوع من قلة الاهتمام بدلا لها . هذا ملخص كلام السير وليم جونز فى مقدمته . أ هـ .

ليت شعرى هل مجرد توافق خواطر شبه :

١ — قول إليوت فى عنوانه The Waste Land بقول لبيد : « عفت الديار ... إلخ »

٢ — وقول إليوت فى عنوانه The Burial of the Dead بطريقة الشعراء العرب ومنهم لبيد بأن الديار تندفن وتكشف آثارها الرياح والسيول (عرى رسمها) (وجلا السيول عن الطلول) .

٣ — وذكر إليوت أمطار إبريل وقساوته وشبه ذلك بقول لبيد : « رزقت مرابيع النجوم ... إلخ » .

٤ — وقول إليوت بإنبــات زهور ليلى Lilacs وخلط الذكريات بالشهوات وشبه ذلك كما قدمنا بقول لبيد : « فعلا فروع الأيهقان ... إلخ » .

٥ — وانصراف إليوت عن مطر الربيع إلى مطر الصيف حيث قال : « فاجأنا الصيف » — هل هذا أيضاً مجرد توافق خواطر ؟

٦ — وتذكر إليوت للحبيبة بعد إذ ساقاها القهوة وتقطعت أسبابها ورسامها . (راجع الأسطر ٨ — ٩ — ١٠ — ١١ — ١٢) .. هل هذا أيضاً مجرد توافق خواطر ؟

وقد ركب لبيد ناقته بعد تصرم أسباب نوار وشبهها بحمار وحشى وذكر الصيف وحره ... :

. . . . . وتهيجت
ريح المصايف سومها وسهامها

أى أعاصيرها وسمائمها .

٧ — أم هل مجرد توافق خواطر قول إليوت فى س ٢٣ ص ٢٧ :

And the dead tree gives no shelter

أى : والشجرة الميتة لا تعطى مأوى .

مع شدة شبهه بقول لبيد فى وصفه للبقرة الوحشية التى أصابت السباع ولدها ، وأحاطت بها المخاوف بعد ترددها تبحث عنه وتناديه بنوح وبغام ، ولفّتها بين الرمال ليلة ذات برق ومطر وأهوال :

تجتاف أصلا قالصاً متنبذاً
بعجوب أنقاء يميل هيامها

أى تلتمس بقرنيها جوف أصل شجرة قديم فى قعر كثبان من الرمل منهالة ، وترجمة وليم جونز :

She shelters herself under the root of a tree

٨ – أم ليت شعرى – بعد الذى لم نشك فيه من كتمان إليوت مصادر أخذه من العربية هل مجرد توافق خواطر ذكر إليوت لمفاجأة الصيف :

Summer surprised us ....

وأن الشتاء أدفأنا

Winter kept us warm ....

يمدح بذلك الشتاء ؟

هل اطلع إليوت على ترجمة ما لبعض شعر أبى تمام ، فقد عاش فى الزمان الذى كان فيه الاستشراق العربى بين اكسفورد وكمبردج ولندن وباريس وألمانيا ضارباً بجبران وكان لأبى تمام صاحب الحماسة فى ذلك مكان مرموق – قال عنه ليال فى مقدمة اختياراته :

... I ... and was himself a desting-unshad poet

أى وكان هو نفسه شاعراً ممتازاً .

هل أطلع إليوت على ترجمة لقصيدة أبى تمام فى وصف الربيع التى أولها :

رقت وجوه الدهر فهى تمرمر
وغدا الثرى فى حليه يتكسر

وفيها قوله :

* جاءت مقدمة المصيف حميدة *

(أو فاجأنا الصيف

(Summer surprised us

ويد الشتاء جديدة لا تنكر

Winter kept us warm

شكراً للشتاء . . .

لولا الذى صاغ الشتاء بكفه
قاسى المصيف هشائماً لا تثمر

شكراً للشتاء – ولأبى تمام الذى مدح الشتاء خلافاً للشعراء الذين كانوا يذمونه كقول الآخر :

إذا اغبر آفاق السماء . . . إلخ .

لقد أفاد إليوت من الشعر العربى إما من قراءة تراجم له وإما من مشافهة معاصرين له عارفين به .

وقد أفاد من اطلاعه على ترجمة السير وليم جونز لا لمعلقة لبيد وحدها ولكن لسائر المعلقات ، خذ مثلا الأسطر ١٩ – ٢٤ من ص ٢٧ وهى أولى صفحات المنظومة فى الطبعة التى رجعنا إليها :

What are the roots that clutch, what Branches grow out of this stong rubbish ? Son of man, you cannot say, or guess, for you know only A heap of broken images, where the pum beats, and the dead tree gives no shelter, the cricket no relief, and the dry stone no sound of water ....

الترجمة على وجه التقريب :

ما الجذور التى تمسك ؟ ما الأغصان التى تنمو .

من هذه القمامة الحجرية ؟ يابن آدم .

إنك لا تستطيع إن تقول بيقين أو ظن لأنك إنما تعلم .

كونه من ظلال متكسرة ، حيث
الشمس تصك .

وحيث الشجرة الميتة لا تعطى مأوى ،
ولا الصرصور راحة ولا الحجر اليابس
صوت ماء . . .

أحالنا إليوت على سفر حزقيل أول الاصحاح الثانى بالنسبة إلى سطره (الثانى أعلاه) ٢٠ ليؤكد أن مواده من قوله : Son of Man (أى يابن آدم أو يا أيها الإنسان) هو معناها الذى فى العهد القديم لا معنى « ابن الإنسان » الذى عند النصارى . ولاشىء يمنع ملابسه هذا المعنى المسيحى لكلامه هو لأنه هو مسيحى الديانة لن يخلو منه بحال ولن يخلو من القصد إليه وليس تأكيده الذى زعم بملزم استبعاده أحدا .

وهذه الإحالة لما هو ظاهر من عدم الحاجة إليها لا تخلو من تعمية ما وتضايل . وكاد السارق يقول خذونى مرات . ذلك بأنه فى سفر حزقيل فى الإصحاح نفسه بعد رقم « ١ » ، الذى فيه son of man ورد فى رقم ٢ و ٣ و ٤ ذكر تمرد بنى إسرائيل وقسوة قلوبهم . وهذا وارد فى قول إليوت متضمناً لمعناه فى :

And the dry stone no sound of water

أى : « ولا الحجر اليابس صوت ماء » ، أى القلوب قاسية كهذا الحجر اليابس .

لكن هذا التشبيه وهذه العبارة نفسها لم ترد بهذا اللفظ وهذا البيان التصويرى فى سفر حزقيل الذى أحالنا عليه تعمية وتضليلا فيما نرجح ، إذ لاريب أنه أخذها من القرآن -- وتراجمه كثيرات -- لأنها بعينها واردة فى خبر تمرد بنى إسرائيل : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بعدِ ذلكَ فهِيَ كالحجارةِ أو أشدُّ قَسْوَةً وإنَّ مِنَ الحجارةِ لَمَا يتفجَّرُ منهُ الأنهارُ وإنَّ منها لَمَا يشَّقَّقُ فيَخْرُجُ منه الماءُ » -- سورة البقرة ، ٧٤ . ولكن هل يعقل فى إليوت الكتوم لذكر وردزورث ودى لامير وظلال جزيرة العرب The shadrs of Arabia وما أشبه أن يخطىء فيحيلنا على القرآن ؟ أليس ذكره سفر حزقيل فى إحالاته ههنا شبيها فى طريقة الاستبدال بما صنعه من جعل جدران كنيسة ما غنس ما رتر فى مكان ظلال جزيرة العرب ؟

وبالنسبة إلى الأسطر ١٩ -- ٢٤ (انظر ما تقدم) أحالنا إليوت فى تعليقاته على السطر ٢٣ وهو الخامس فى ما ذكرنا لننظر فى سفر (الجامعة) من العهد القديم وهو الذى يقال له (الواعظ) أو The Preacher بالإنجليزية وأيضاً يقال له Ecclesiastes رقم ٥ فى الإصحاح ١٢ من أجل توضيح مراده من الكلمة Cricket أى الصرصور الواردة فى النص المتقدم . وكلمة Cricket أى الصرصور غير واردة فى نص سفر الجامعة ابن داود الذى أحالنا عليه ولكن وردت كلمة grass-hopper أى الجندب وإنما أحالنا إليوت على سفر الجامعة تعمية وتضايلا .

وقد وجدت من نقاد إليوت البروفسور ملبون يقول بمثل ما نقول به من عمده إلى التعمية في تعليقاته إذ ذكر بمعرض حديثه عن الأرض المقفرة في كتابه عن الأدب الإنجليزي الحديث ، وسبقت الإشارة إليه في ص ١١٢ ، أن إليوت أضاف تعليقات أحياناً هي غامضة غموض الأسطار التي يراد بها شرحها .

.... Later Eliot added notes sometimes as cryptic as the lines they punport to elucidate .....

ومن تعليقات إليوت المضللة ، والشيء بالشيء يذكر نورد ذلك على سبيل المثال ، إحالته بالنسبة إلى سطره رقم ٦٣ على جحيم دانتي وإنما خطف خطفاً من مسرحية ماكبيث لشكسبير من قول مشهور وهو مقال امرأة ماكبيث في الفصل الخامس في حديث هذيانها : « من كان يظن أن هذا الرجل العجوز دمه كثير هكذا ؟ ويجوز أن يكون شكسبير رمق دانتي وأخذ من هناك وأن إليوت نظر إلى دانتي كما نظر إلى شكسبير إلا أنه حذا على صياغة هذا . ونحو ما يجري هذا المجرى هو ما سماه أبو تمام السرق (بفتح السين والراء) المورى بضم الميم وفتح الواو وراء مشددة مفتوحة بعدها ألف لينة — قال يمدح شعره :

إليك بعثت أبكار القوافي
يليها سائق عجل وحادى
شداد الأسر سالمة النواحي
من الإقواء فيها والسناد
منزهة عن السرق المورى
مكرمة عن المعنى المعاد

الأقواء والسناد من عيوب القافية كما لا يخفى

وقد أحكم نقاد العرب باب السرقات إحكاماً وأبواباً غير من النقد كثيرات .

هذا والصرصور Cricket شيء غير الجندب grass-hopper وظاهر مراد إليوت في إحالته على سفر الجامعة » أن يشعر القارئ مثلاً بأنه إستبدل كلمة grass - hopper أي الجندب بكلمته : cricket أي صرصور لداع دقيق من دواعي البيان والصناعة الشعرية . هنا مكان التعمية والتضليل والغموض . وليس بين النص الوارد في سفر الجامعة ووردت فيه كلمة الجندب grass - hopper أدنى صلة معنوية بكلام إليوت في الأسطر ٢٢ — ٢٣ :

.... where the sun beats
And the dead tree gives no shelter, the cricket morelief,

أي ..... حيث تصك الشمس .

وحيث الشجرة الميتة لا تعطى مأوى ، ولا الصرصور راحة ، ونص كلام الجامعة الذي ورد فيه ذكر الجندب كما يلي (دار الكتاب المقدس ، العهد القديم) :

وأيضاً يخافون من العالي ، وفي الطريق أهوال ، واللوز يزهر ، والجندب يستثقل ، والشهوة تبطل ، لأن الإنسان ذاهب إلى بيته الأيدي والنادبون يطوفون في السوق . اهـ .

Also when they shall be afraid of that which is high and fears shall be in the way, and the almond tree shall flourish, and the grasshopper shall be a Burden, and desire shall fail : because man goeth to his long Lome, and the mourners go about the streets. (Ecclesiastes-Chapter 12 - 5).

مجمل المعنى أنه فى زمن اكتساء شجر اللوز بأزهاره البيضاء الحسان وهو زمن الربيع حين تزداد الحيوية والنشاط وتدب الشهوة فى النفوس ، فى هذا الزمن حين يقترب الموت من الإنسان تذهب لاقترابه كل حيوية وكل روح نشاط ، حتى أن الجندب الصغير الجسم الخفيف الوزن ليستثقل المرء وزنه ثم يحمل المرء إلى القبر ويطوف نادبوه ينوحون .

إليوت لا يشير إلى الحين الذي يستثقل فيه الإنسان وزن حشرة صغيرة لأن الموت الذى اقترب منه يجعل كل شيء ثقيلا ، فلماذا يحيلنا على سفر الجامعة ابن داود ؟ نعم ، الصناعة الشعرية — صناعة السرق المورى ورحم الله أبا تمام — هى التى دفعت إليوت إلى استعمال cricket أى الصرصور مكان grass hopper أى الجندب . لا لأن الجندب فى نص الكتاب المقدس فى العهد القديم فذلك أدعى له لأن يذكرها لا أن يتفاداها ، ولكن لأن الجندب في شعر العرب ومن هنالك أخذها . الجندب حشرة نهارية ، والصرصور حشرة ليلية تأوى إلى مواقد البيوت ذوات المواقد (فى أوروبا مثلا) نهاراً لظلامها ودفئها ولا تنفك تصرصر ولا تكف . gives no relief ....

وكلا الجندب والصرصور حشرة مصوتة وثابة Jumping, chirping كما يقول المعجم الإنجليزى ، ومراد إليوت واضح وهو استمرار الصرصور يصيح بلا انقطاع . والضرورة الشعرية التى دعته إلى ذكر الصرصور مكان الجندب (cricket مكان grass hopper) هو أنه ذكر الشمس وحرارتها وذلك قوله :
Where the sun beats

أى حيث الشمس تجهك .

وليس الصرصور — cricket — بأخى الشمس ولا موقده الذى يأوى إليه نهاراً وهو مظلم دافىء ، بوهج الشمس الملتهب الذى تتكسر منه أكوام الظلال .

أخـــذ إليوت فكرة صرصوره لا من سفر الجامعة ابن داود ولكن من جندب أشعار العرب . حشرة سفر الجامعة ابن داود خفيفة الوزن وثابة بين أزهار اللوز ، لا مزعجة صخابة فى حر الهجير حيث تصك الشمس وتتكسر الظلال . قال كعب بن زهير فى بانت سعاد وهى مما ترجم :

وقال للقوم حـــاديهم وقد جعلت
ورق الجنادب يركضن الحصى قيلوا

جعلت الجنادب تركض الحصى بحثاً عن الظل ، عندئذ قال الحادى للركب الآن وجب المقيل .

وقال ذو الرمة ، ونشر ديوانه بكمبردج سنة ١٩١٩ م وترجمت بانيته من قبل ولعل إليوت أن يكون قد لقى مكارتينى الذى حقق الديوان ، وقد نبه شارلس ليال على منزلة ذى الرمة فى ذيل ص XXXIII من مقدمة مختاراته قائلا :

Dhu-r-rummah was the last really great representative of desert song ....

أى كان ذو الرمة حقاً آخر شعراء الصحراء العظام — أو آخر ممثل لعظام المتغنين بالصحراء قلت : فى هذا نظر وأبو عمرو بن العلاء عندنا أصبح بصراً بالشعر من شارلس ليال على حسن اجتهاده ورأيه فى ذى الرمة معروف إذ جعله شاعراً من المحدثين وهو فى الحقيقة لهم رائد ؛ وما نشك أن إليوت اطلع على ترجمة ليال فى اختياراته ومقدمتها وأفاد من ذلك فى معرفة طريقة نظم الشعر العربى ، فى زمان كان فيه شعراء أوروبا والإنجليز خاصة يريدون التجديد ويطلبونه من طريق الأخذ عن أمم الشرق أشد طلب . وقد ذكرنا من قبل أن شارلس ليال نشر اختياراته — سنة ١٨٨٥ م وكان موظفاً بالهند ومن قبل سبق له نشر بعضها فى مجلة بنغال ثم إنه فى سنة ١٩١٨ م نشر ترجمته للمفضليات مع تعليقاته الناضجة النفيسة وقد حقق شرح ابن الأنبارى للمفضليات كما هو معروف . وسنعرض إن شاء الله من بعد لما نرى أن إليوت أخذ من ليال فى المقدمة التى ذكرناها.

قال ذو الرمة يصف الجندب :

معروريا رمض الرضراض يركضه

والشمس حيرى لها بالجو تدويم

البيت مشهور وقيل فيه : إنه أكثر رمضاً من رمال دمبرين لتكراره الراء والضاد وهذا يسمى الآن الجناس الداخلى وهو فن فى العربية قديم . وبيت ذى الرمة هذا يحتوى على معنى ظلال إليوت المتكسرة وشمسه التى تصك :

Where the sun beats

* والشمس حيرى لها بالجو تدويم *

وتأمل (رمض الرضراض) مع قوله : (يركضه) لأن الجندب يطلب المأوى فى بقية الظل المتكسر فى رمض الرضراض .

وأخذ ذو الرمة من كعب بن زهير قوله : « يركضه » لأنها من قول كعب :

. . . . وقد جعلت

ورق الجنادب يركضن الحصى

ومن كليهما أفاد من أفاد .

.... for you know only

هذا وفى قول إليوت :

A heap of broken images

أى إنما تعلم — كومة من ظلال متكسرة .

فيه نوع من السخرية بأساليب الشعراء إذ كلمة image كما تدل على الظل تدل أيضاً على الصورة البيانية من تشبيه واستعارة وما أشبه وفيه صدًى من وردزورث — ودى لامير كليهما وتأثر بمقدمة وليم جونز لمعلقة لبيد حيث ذكر أوصافه وتشبيهاته

وزعم أنها مثل التشبيهات الطويلة التى ترد فى الشعر الكلاسيكى أى (اليونانى واللاتينى) هذا وزيادة على ما تقدم ، واعتماداً على ما هو نازل عندنا منزلة الدليل القاطع من قوة الملابسات التى تشهد باطلاع إليوت على عمل السير وليم جونز ، وطريقته فى الإخفاء والكتمان ، نرجح أن إليوت اطلع على كثير مما ترجم من أدب العرب وعلى ما كتبه كبار المستشرقين بالإنجليزية . على أقل تقدير وعلى ما كتبه السير شارلس ليال مما يدل على فهم عميق لطريقة الوحدة والانسجام عند شعراء العرب القدماء مثلاً تعليقه على بائية سلامة ابن جندل ولامية بشامة بن القدير وعينية سويد بن أبى كاهل وطويلتى علقمة بن عبدة ومما عن ذكره ههنا أن بعض من كتبوا عن شعراء المفضليات من فضلائنا أخذوا عنه ولم يشيروا إليه ومنهم من تابعه آخذاً غير معترف فى الخطأ وفى الصواب وهذا باب ربما أتيح لنا بعض تفصيله فى موضع غير هذا مما يناسبه . وإنما دعا إليه أن الشيء بالشيء يذكر ، وكما يقول سيبويه : رب شيء كهذا .

ولا شك أن إليوت قد اطلع على شيء من مقدمة ليال لمختاراته (طبعة ١٨٨٥ م) إذ كان ذا استشراق ومن عصبة نجباء الحكومة البريطانية بالهند إحدى مراكز السحر الشرقى الكبرى وقد وصف ليال القصيدة العربية القديمة بأن شكلها لا يمكن أن يوصف بما عليه أوصاف الأشكال فى شعر أوروبا وأنه عسى أن يكون أقرب الأمور به شبهاً ما كان اليونان يسمونه بالقطعة الوصفية أو الأخبارية idyll وأنها تعرض علينا صوراً متتابعة مأخوذة أخذاً مباشراً فى التجارب والواقع مصوغة بمهارة وإحكام يربط بينها عنصر من الوحدة التى لا تبدو وثيقة واضحة ولكن تخضع لروح من الشاعر يهيمن عليها بكشف ما يشتمل عليه ضميره شيئاً بعد شيء — (راجع ص XVIII من المقدمة) .

مما أخذه إليوت من المعلقات سوى الذى ألمعنا إليه من محاكاة لبيد أنه حاكى طريقة النظم فيها ونظر فى ذلك نظراً شديداً إلى المعلقة الأولى ، التى ينبغى أن يكون حين بدأ بالقراءة قد بدأ بها .

عول إليوت فى نظم أرضه القفر على اتباع طريقة صياغة أمرىء القيس حيث بنى تأليف لاميته المعلقة على وحدة مستمدة من الربط العاطفى الإيقاعى وتداعى المعانى المنبعثة من حل عقد خيط الذكريات (أو كشف ما تشتمل عليه ضميره شيئاً بعد شيء أو كما قال شارلس ليال the poet's unfolding of himself — ص XVIII) من حل عقد خيط الذكريات عقدة بعد عقدة ، من الوقوف والاستيقاف إلى ذكر أم الرباب وأم الحويرث — دارة جاجل — نحر الناقة — خدر عنيزة — حديث الحب — حديث الجمال — الليل — الصعلكة — الفروسية والصيد وزمان الشباب — ذكريات

الطفولة — المطر والسيل وانمحى كل شيء إلا منظر ثبير وصوت الطير — والسباع الغرقى — كل ذلك فى تجاوب مذهل من الإيقاع والصور وضروب الموسيقى الظاهرة والباطنة .

من حيث لا يحتسب يدلنا إليوت على أخذه من معلقة امرىء القيس فى السطرين ٧ و ٨ من أرضه البلاقع أى المقفرة وقدموا فى أول كلامنا ، واخترنا لفظ الأنابيش . فى ترجمتنا لقوله tubers لأنه الأصل الذى نرجح أنه أخذ منه قوله :

.... feeding
A little life with dried tubers

أى : . . . . مطعماً
حيـــاة قليلة بأنابيش جـــافة

ونشير ههنا إلى قول امرىء القيس فى المعلقة :

كأن السباع فيه غرقى عشية
بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

العنصل بضم العين وسكون النون وضم الصاد هو البصل البرى والأنابيش ما ينبشه الصبيان من عروق ونحو ذلك . التبريزى :— « الأنابيش جماعات من العنصل يجمعها الصبيان ويقال الأنابيش العنصل والعنصل بصل برى » ا . هـ . (راجع شرح التبريزى للمعلقات العشر وطبعاته كثيرة) . وترجمة السير وليم جونز :

The beasts of the wood, drowned in the floods of the night, float like the roots of wild anions

(وراجع ترجمة ليال لهذا البيت فى ص ١٠٤ حيث قال :

(,like earth-stained roots of squills.)

الاصطلاح الإنجليزى لما ينمو من النبات كالبصل ينتفخ أصله الملامس بجذوره للتراب Bulb ولما ينمو كالبطاطس بانتفاخ جزء الساق الملامس للتراب هو Tuber واستعمل إليوت اللفظ الدال على النوع الثانى فيبدو أولا أن هذا بعيد من أن يكون مأخوذاً من عبارة السير وليم جونز the roots of wild anions (أى عروق البصل البرى) التى ترجم بها (أنابيش عنصل) . وترجمة ليال غير بعيد من هذا . وأخذ إليوت قوله المتقدم من (أنابيش عنصل) هذه . وقد أبت فكرة صورة الجثث التى غرقت وبدت أطرافها من شوارب وآذان وأذناب كأطراف أنابيش العنصل أن تفارق إليوت فنمت بنفسها فى أسطاره ٧٠ — ٧٢ من ص ٢٩ وذلك قوله :

You who were with me in the ships at Mylae that corps you planted last year in your garden, Has it begun to sprout ?

أى :

يا أنت الذى كنت معى فى سفينات ما يليس
تلك الجنازة التى غرستها العام الماضى فى حديقتك
هل بدأت تخرج شطئها ؟

عنى إليوت بما يلبس هنا المكتشف الدنمركى ما يليس لدوج Mylius Ludurig الذى غامر باكتشافه سواحل جرنلندة فى أوائل هذا القرن الميلادى ومات سنة ١٩٠٧ م بعد مغامرة أخيرة فى سنة ١٩٠٦ وكانت هى من أسباب هلاكه :

استعمل إليوت صيغة المضاف إليه اللاتينية (مايلاى) من (ما يليس) . وهل خفى عنك أيها القارىء الكريم عنصر تداعى المعانى الشديدة فى النظر إلى بيت امرىء القيس ههنا ؟

امرؤ القيس :

غرق . جنائز سباع غرق فى العشية . تشبه مناظرها فى الأرجاء القصوى أطراف البصل البرى التى ينبشها الصبيان أو خرجوا لينبشوها .

إليوت :

سفائن ما يليس (At Mylae) معها البحر ومخاطره . جنازة مفروشة فى حديقة فى العام الماضى . هل نبتت وأخرجت شطأها مثل النبات ؟

هذه المشابهة فى نهج الصياغة هل هى مجرد توافق خواطر مع بيت امرىء القيس ، كما مطر إبريل وعلو أغصان (الليلك) مجرد توافق خواطر مع مرابيع النجوم وعلت فروع الأيهقان ؟ وهل فكرة dried tubers (أى الأصول النباتية الجافة أو العروق الجافة) مجرد توافق خواطر مع أنابيش العنصل ؟ العنصل هو (Bulb) بحسب الاصطلاح النباتى ومع هذا الاصطلاح يرد دائماً الاصطلاح الآخر المقابل له TUBER — أليس تحويل (Bulb) إلى (Tuber) فيه لون من أسلوب تحويل (grass-hopper) إلى (cricket) وما مر بك من قبل من أمثلة « السَّرَق المُوَرَّى » ؟

قولنا عن امرىء القيس آنفاً : إنه تذكر الصبا وتذكر الطفولة نشير به إلى قوله :

يزل الغلام الخف عن صهواته

ويلوى بأثواب العنيف المثقل

وإلى قوله :

كميت يزل اللبد عن حال متنه

كما زلت الصفواء بالمتنزل

وليس ههنا موضع التفصيل وقد كان امرؤُ القيس صاحب ذكريات وتُذْكَرُ له أبياتٌ لطيفة يصف بها زحلوقة الأطفال

أولها :

لمن زحلوقة زُلّ

لهــا العينان تنهل

لاحظ أن تذكر الزحلوقة هنا أبكاه كما بكى من ذكرى الأحباب والمنازل .

وإلى قوله :

درير كخذروف الوليد أمَرَّه

تتابع كفَّيه بخيطٍ مُوَصّل

هذا .

ومثل أبى تمام إذ فاجأته « مقدمة المصيف حميدة » نجد إليوت فاجأته مقدمة المصيف — ولكن غير حميدة (إبريل أقسى الشهور) ومثل امرىء القيس خلص إليوت الذى هو امرؤ الأرض القفر من البدء بذكر الأطلال (عفت الديار كما تقدم) إلى حل العقد من خيط الذكريات — المقهى فى أول المنظومة (السطر ١١) — إلى النعت المنظور فيه إلى سفينة كليوباترة بعين ، (س ٧٧ ص ٢٩) :

The chair she sat in, like a burnished throne, glowed on marble.....

أى : الكرسى الذى جلست عليه كان يتوهج من فوق بلاط الرخام كأنه عرش مجلو . . . . . (راجع نعت أنوباربس لسفينة كليوباترة عند شكسبير) ومنظور أيضاً فيه بنفس العين أو بعين أخرى تحت الحاجب الكالح إلى قول امرىء القيس :

إذا قامتا تضوع المسك منهما

نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

(راجع من قوله س ٨٤) :

The glitter of her jeusels rose......

أى : قام بريق جواهرها . . . . .

إلى . . . .

her strange synthetic perfumes.....

أى : عطورها المصنوعة الغريبة — س ٨٧ ص ٣٠) .

وقال وليم جونز فى ترجمة هذا البيت :

When those two damsels departed, musk was diffused from their robes, as the eastern gale sheds the scent of clove-gilly flowers.....

لاحظ استعمال إليوت prolucion فى س ٧٥ وكذلك poured فى مقابلة diffused التى عند وليم جونز و sheds...

تأمل ذلك أيها القارىء الكريم .

الفصل الذى فيه هذا النعت جعل إليوت عنواناً له « لعبة الشطرنج A Game of chess » وهو الفصل الثانى من الأرض المقفرة والعنوان مأخوذ من اختيارات — وليم جونز إذ عنوان إحدى القصائد الهندية التى اختارها هناك هو هذا ، فتأمل . . . .

رجع الحديث ، راجع قولنا قبل إلى النعت المنظور فيه . . . إلخ والآن . . . . إلى لقاء الكويتبة فى الفصل الثالث الذى عنوانه ترتيلة النار أو كما قال : A FIRE SERMON

ونلفت نظرك ههنا إلى ما ذُكِرَ عن ليوت أنه وصف رديارد كبلنج شاعر الامبراطورية الذى نشأ فى الهند بأنه كان من عظام أصحاب التراتيل .

لقى إليوت فى منظومته الكويتبة فى الفصل المذكور على مائدة فاترة وصال من نوع ما يقع فى سأم المدن المعاصرة . . . شىء ممسوخ من وليمة عنارى دارة جلجل ودخول الخدر خدر عنيزة : (وقد ترجم ذلك السير وليم جونز ترجمة حسنة حية :

Woe to thee ! than wilt compel me to travel on foot

تقول لك الويلات إنك مرجلى .

من هنا أخذ إليوت عبارته (ص ٣٢) :

..... caresses
Which still unreproved, if undesined

وتأمل بعد أسطاره من ٢٣٥ – إلى – ٢٣٨ فى حديث عنيزته هو :

The time is now propitious as he guesses
The mean ended, she is bored and tired,
Endeavours to engage her in careses
Which still unreproved, if undesived

الترجمة التقريبية :

الوقت الآن مواتٍ كما يظن .

انتهت الوجبة وهى متعبة وسئمت :

يحاول أن يشركها معه فى ملامسات .

استمرت بلا مؤاخذة إن لا بلا اشتهاء .

كذلك من قبل ظن امرؤ القيس الوقت مواتياً بعد عقر الناقة وانتهاء الوليمة وارتماء العذارى – يطبخن – بلحم مطيته (يخطىء من يحسب أنهن كن يترامين بقطع اللحم كالغولات وكأن اللحم كرات لعب) وبشحم كهداب الدمقس المفتل ، الذى هو حريرهن وبياض أبشارهن ، فدخل الخدر خدر عنيزة ليشركها معه فى ملامسات ومداعبات فزجرته بقولها : « لك الويلات إنك مرجلى » ومع زجرها له مال بهما الغبيط معاً :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً
عقرت بعيرى ياامرأ القيس فانزل

ولكنه لا ينزل :

فقلت لها سيرى وأرخى زمامه
ولا تبعدينى من جناك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذى تمائم محول

كلام امرىء القيس فيه شيطنة وأريحية وحرارة عاطفة وصدق فنى مباشر مع الزمان والبيان الناصع . كلام إليوت مصقول كخشب النجار الماهر ولكنه ناشف لاعاطفة فيه ولا حرارة ولكن حرارة برود تعالٍ فكرى وشىء من سخرية . غطاء كثيف يخفى حقيقة السريرة ولو كانت فيها أريحية من عواطف البيان والصدق الشعرى لهتكته .

فى كلام إليوت روح سآمة كسآمة الليل والبعير الذى شبه بهامرؤ القيس الليل لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل ، وكسآمة الحبلى التى ذكرها امرؤ القيس فزعم أنه ألهاها عن طفلها ذى التمائم المحول :

إذا ما بكى من تحتها انصرفت له
بشق وتحتى شقها لم يحوّل

وقد استفحش النقاد هذا من مقال امرىء القيس وعذلوه عليه وعابوه وأبى الشعراء من بعد إلا أن يحاكوه فيه ويسرفوا كالذى صنعه سحيم عبد بنى الحسحاس فى يائيته « عميرة ودع إن تجهزت غادياً » وفيها :

توسدنى كفاً وتثنى بمعصمٍ
على وتحنو رجلها من ورائيـا

وفيها وجدان وغرام وفتك وكالذى صنعه بشار فى الرائيتين ، المقيدة التى يقول فيها :

أمتى بدّد هذا لُعبى
ووشاحى حلّه حتى انتثر

والمطلقة التى يقول فيها :

قولى لهـا بقة لهـا ظفر
إن كان فى البق ما له ظفر

وفى كلتيهما تهتك وزندقة ومجون .

وهل نظر بعض شعرائنا المعاصرين إلى عنيزة امرىء القيس وإلى دعوى التحضر والتقدم بالنظر إلى عنيزة وجبة طعام أرض إليوت المقفرة الباب الخراب ؟ هذا باب يكتفى فيه بمجرد الإشارة واللمح :

ويبقى وزن إليوت : ومداره كما يذكر نقاده على محاكاة نبرات الكلام المألوف وعلى الجناس الحرفى الداخلى وعلى سجعات القوافى وهذا أمرٌ خالف فيه أصحاب الشعر الحر الفرنسيين ومن مال إلى مذهبهم . وقد تأثر فيما ذكروا بإزرا پاوند وقد سبقه فى مذاهب من النظم جرارد ما نلى هو بكنز ١٨٤٤ - ١٨٨٩ م

GERARD MANLEY HOPKINS

ورجع إليوت فى ما يذكر إلى نمـاذج من الشعر الإنجليزى القـديم الذى يقال له المتوسط مثل منظومة وليم لانجلاند (ولا يكادون يستشهدون إلا بها) التى أسماها بطرس الحراث William Lang Land (ولد سنة ١٣٠٢ م وتوفى ١٤٠٠ م) — بطرس الحراث Pibrs Ploughman وعنـدى أن الجناس الحرفى أو الداخلى ليس بأصيل فى اللغة الإنجليزية على اتصاله بأوائلها ولكنه أخذت أصوله من البديع العربى إذ هو قد كان النموذج الأدبى البراق المحتذى فى القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلادى فما بعدهما وقد كانت أمّةُ العربية آنئذ هى أمة المدنية الكبرى المرموقة فى ذلك الزمان — تحاكى أساليب حياتها وآدابها كما نفعل الآن بتقاليد الأفرنج . ذكر صاحب الذخيرة نقلا عن المؤرخ أبى مروان بن حيان فى صفة ريموند صاحب برشلونه (ص ١٥٥ القسم أ ح أ) : «فإذا هو جالس على مرتبته عليه ثياب من ثياب المسلمين » أ . هـ .

أمر آخر ينبه إليه مما عسى أن يكون إليوت قد أخذه أيضاً من أساليب العربية ، هو مذهبه فى غرابة التشبيه . ويوقف كثيراً عند قوله فى إحدى منظوماته :

Let us go then, you and I
When the evening is spread out against the sky Like a patient ethervised upon a table

أى :

دعْنا إذن نذهب أنت وأنا .
عندما يكون الليل قد مدد بإزاء السماء .
مثل مريض بنج على منضدة « العمليات ».

ووصفه برغونزى بالجمال والغرابة (ص ١٥) .

والحق أن تشبيه إليوت ههنا جارٍ على ما يسميه البديعيون بالتشبيه المقلوب ، المريض ساعة الغيبوبة والامتداد على المنضدة هو المشبه بغروب الشمس إذ كمفاجأة غشيان

الظلام الأفق تكون مفاجأة غيبوبة المريض بالبنج .

من أمثلة التشبيه المقلوب المعروفة :

وبدا الصباح كأن غرته
وجه الخليفة حين يُمْتَدح

وما الأمر إلا أن وجه الخليفة المشرق بغرة الانشراح للمدح قد صار جسم مريض ممدوداً على منضدة عملية . وغرة الصباح الباهرة صارت غروباً . . هل أخذ إليوت من ههنا أم هو توارد خواطر ؟ لعله توارد خواطر ولكنه بلاريب تشبيه مقلوب .صناعة وبديع محمة ولـ متكلف لا أكثر ولا أقل .

أشهد أن أول مادعا إلى الشك فى أصالة إليـوت فى منظومته The Waste Land (الأرض المقفرة) ما قدمته من ارتياب النفس من تعليقاته ومن حذفه اسم العرب وأسماء من أشاروا إليهم ومن غلبة البرود والتنطس على أساوبه ومذهبه ومن الفتنة المفرطة به ولاسيما من ليست لغتهم بلغته وفى لغتهعلى أهل لغته هو الإنجليزيةعُسْرُشديد. حتى المعجبون به ذكروا ذلك . مثـلا قال انتـونى بيرغس Anthony Burgess فى كتابه من الأدب الإنجليزى طبعة ١٩٨٠ م وهو من المعجبين بإليوت أن منظومته The Waste Land (الأرض المقفرة) فيها عسر ومشقة على القارىء وذكر من بين أسباب ذلك كثرة الإشارات والاقتباسات والأخذ من أدب أورباوالهند وتداخل الصور إلى آخر ما قال .

ومع أن تأريخ كمبردج للأدب الإنجليزى بعد إليوت من ثلاثة العصر فى الشعر الإنجليزى الكبار ، مع هذا عاب عليه كثرة أخذه من دون إشارة إلى موضع الأخذ أو علامات تدل عليه وقال إنه كان يلزمه بيان ما أخذ وماستعار.وألمع تأريخ كمبردج إلى أنه إن كان المراد من هذا الحنين إلى الماضى هو للتعبير عن الضجر عن العصر بأسلوب أدبى ، فإن ذلك غيرخارج عن نطاق الأساليب التقليدية، ونص عبارة تأريخ كمبردج هو كما يلى وما قدمناه نحواها وملخصها ، (ص ٨٥٣) :

But we may doubt wheither the disgust with the realities of the modern world, and the nostalgia for the past, not in its own kind of disgusting reality but as abstracted in literatuie and art, is anything more than a traditional litenary device.

كلمة صدق تقال للمفتونين بإليوت :

إن كتمانه وسرقته و دينه للمعلقات وشعر العرب من طريق مستشرقى الهند وفرنسة وألمانيا وهافارد وجامعتى أكسفوردوكمبردج ومن يكون لاقاه فيهما وفى غيرهما وشافهه ، ينبغى أن يكون ذلك موضع زراية به ونفور عنه لا فرط إعجاب به وإقبال عليه .

أسأل الله أن تكون الموضوعية النقدية لنا رائداً ودليلا فى ماتقدمه من حدس مرتب على مشابه قوية وملابسات دليلها قاطع ، وقد اكتفيت فى أكثر ما قدمت بالمصدر الأول لأكثر من منظومة إليوت The Waste Land

خشية الإطالة إذ ليس هذا مجالها وإنما مرادى التنبيه : ولقد أقبلت على كتابة هذه الكلمة الموجزة فى بابها ، وحسك من القلادة ما أحاط بالعنق ، بعد مناقشة مادتها الأولى وجملة معناها مع زملاء فضلاء وطلبة أذكياء وأساتذة علماء وغيرهم من المعارف والأصدقاء فمنهم من لبه على ما لم أكن له منبهاً ومنهم من أعان على تيسير المراجع أودل عليها ومنهم من ساهم بالرأى وبالكلمة المفيدة — من ذلك مثلا أن عنوان إليوت لعبة الشطرنج AGAME of CHESS لا يخلو من نفس امرىء القيس إذ كان يلعب النرد لما جاءه خبر مقتل أبيه : ومن ذلك مثلا أن قول إليوت :

Let us go then, you and I

فيه شبه بصياغة الأمر فى نحو :

قفا نبك من ذكرى . .

عوجوا فحيوا لنعم دمنه الدار . . :

خليلىّ عوجاً من صدور الرواجل : :

قفى قبل التفرق ياظعينا : : .

ونحو هذا كثير . ونحو هذا القول محتمل [إلا أننى أرجح أن يكون إليوت اقتدى بطريقة] شكسبير ومعاصريه ، نحو قول شكسبير فى مسرحية ريتشارد الثانى الملك ، على لسانه :

Of comfort let no man speak

أى لا يتحدثن امرؤ عن الراحة وفيها let us sit upon the ground أى لنجلس على الأرض : ويعجبنى منها قوله (راجع التماسه عزاء ص ٤٤) :

Let's talk of graves and worms and epitaphs Make dust our paper and with rainy eyes write sorrow on the bos an of the earth

وترجمته التقريبية (التماسة عزاء ٤٤) :

هلموا من الأحداث والدود والرثا

حديثكمو ثم اجعلوا الترب قرطاساً

ومن أعين تهمى بكالغيث سطروا

على ثدى هذى الأرض للحزن أنفاساً

وشبه كلام شكسبير بقفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل فى نمط الصياغة غير بعيد :

وقال درايتون Drayton من معاصرى شكسبير

Since there is no help, let us kiss and part

وأقرب ما يترجم به هذا شطر بيت المثقب العبدى :

أفاطم قبـــل بنيك متعينى

وليس بجد بعيد من : فسلى ثيابى من ثيابك تنسل . توارد الخواطر كثير فى المعانى الإنسانية ، ولكن روح التعبير هنا عربى المعدن وكان الأخذ فى زمان النهضة الأوربية عن معارف العرب وآدابهم أمر شائعاً :

وأخذ إليوت من شعراء الإنجليزية خاصة قد كفانا مئونته نقاده ، حتى بيرغسى الموالى له لم يغمض فيه وتاويخ كمبردج للأدب الإنجليزى الذى سبق أن أحلنا عليه من قبل قد بكت إليوت كما مرّ على الأخذ بلا اعتراف أو تعليق ونعى عليه استعمال التضمين والاقتباس بطريقة آلية صارت من بعد مجرد

حياة أسلوبية عند مقلد الكثيرين وكما قال (ص ٨٥٣) :

...... A mere trick of fashion in his numerous imitators

هذا ، ومنهم — أى ممن ناقشت — من حث حثا على تدوين ما بدا خشية أن يؤخذ من المشافهة فأسبق إلى نشره ولا يشار إلى المصدر . وهذا قبيح . ولكن ليس السبق إلى النشر هو الغرض . ولكن الغرض هو التنبيه على كتمان إليوت تقايده لطريقة العرب فى صياغة القصيد — وقد عرف العرب التضمين والإشارة وغرائب من البديع مع الذى سبق توضيحه من مذهبهم فى الوصف وتداعى المعانى على النحو الذى بين جانبا منه ليال فى مقدمته القيمة .

يسمى بعضنا صياغة القصيدة الذى لو أقبلنا على درسه لأغنتنا روائعه أساوباً تقليدياً .... ويسمون إبداعاً تقليد إليوت الذى يقلده ، فتأمل .

الآراء التى بثثت بطرف منها ههنا قديمة عند كاتب هذه الأسطر ألمع إلى بعضها فى حديثه عن أبى الطيب الذى ألقاه فى المهرجان الذى أقيم له ببغداد فى تشرين الثانى سنة ١٩٧٧ وطبعت ثم فى سفر بعنوان الطبيعة عند المتنبى وقد جاء فيها ذكر أخذ الشاعر أندرد مارڤيل فى منظومته البستان The Garden من :

مغانى الشعب طيباً فى المغانى

وأخذ وليم بليك فى منظومته عن النمر من أسد أبى الطيب الذى ما قوبلت عيناه ...

ما قوبلت عينـاه إلا ظنتا

تحت الدجى نار الفريق حلولا

وهذا باب يتسع فيه القول ومجال البحث .

ولله الحمد فى المبدأ والختام .

وعلى رسول الله الصلاة والسلام :

وعلى آله وصحبه أجمعين ،

عبد الله الطيب
عضو المجمع من السودان



الجزائر

للأستاذ احمد توفيق المدني

الجمهورية الجزائرية : دولة عربية إسلامية ، تتوسط بلاد المغرب العربي ، وتقع بين جمهورية تونس شرقا وبين مملكة المغرب الأقصى غربا ، يمتد ساحلها ١٢٥٠ كيلو مترا على البحر المتوسط ، وتضرب في أعماق الصحراء جنوبا ، حيث تتصل بالبلاد الليبية ، وجمهوريات النيجر ومالي ، وموريتانيا ، والصحراء الغربية . مساحتها ٥٢,٣٧٦,٤٠٠ وسكانها سنة ١٩٨١ يبلغون ٢٠,٠٠٠,٠٠٠

أرضها : في بلاد الجزائر ثلاث مناطق أفقية مختلفة من حيث التضاريس هي : منطقة التل شمالا ، تليها منطقة النجود وسطا ثم منطقة الصحراء جنوبا ولكل من هذه الأقسام ميزات خاصة ، ومناخ خاص وإنتاج اقتصادي مستقل ، فمنطقة الشمال تمتد على كامل الساحل البحري وفيها من شرقها إلى غربها جبال التل ، تتخللها السهول الخصبة والمزارع الغنية ، وفيها جميع الأنواع من الأشجار المثمرة والحبوب المختلفة ، كسهول عنابة وهي بونة القديمة وسهول متيجة الواسعة حوالى العاصمة وجنوب العاصمة الجزائرية ، وسهول وهران غربي البلاد وسهول المدية وسيدي بالعباس وتستمر جبال الأطلس التلي متتابعة على خط أفقي من الشرق إلى الغرب وأعلى قمة فيها هي : لالاخديجة التي ترتفع ٢٣٠٨ أمتار ، وثلاثة أرباع سكان الجزائر يعيشون مما تنتجه هذه الناحية الزراعية الممتازة التي تجود عليها السماء بأمطار موسمية وابلة يبلغ معدلها ١٠٠٠ ملليمتر في السنة . وفي هذه الناحية أيضا سدود عديدة لجمع مياه المطر والإفادة منها زمن الحر . أما مناخها فهو معتدل ، شتاء لطيف وصيف مقبول . أما منطقة النجود أو الهضاب العليا فمعدل ارتفاعها عن سطح البحر ٨٠٠ متر وهي تكاد تكون خالية من السكان إلا في ناحيتها الشرقية الغنية . ومزروعاتها ضعيفة ، إلا في ناحية الشرق لكنها تنبت طبيعيا شجيرات الحلفاء التي يصنع منها أحسن أنواع الورق وبعض الأقمشة . وهي كثيرة التباين من حيث المناخ فارتفاعها ووقوعها بين سلسلة جبال الأطلس التلي شمالا وجبال الأطلس الصحراوي

جنوب يجعل شتاءها قارصا حيث تكتسى بالثلوج ويجعل صيفها قائظا لكنها بين الشتاء والصيف تكتسى باعشاب • مرتفعة ذات جمال وزهور بديعة ، تكون مرتعا خصبا للملايين من الغنم التى تصعد إليها من الجنوب وإذا جفت تلك الأعشاب أصبحت — تدعى « الهيشر » وهى مغذية جدا للأنعام وتتلقى هذه النجود من المطر معدل ٣٠٠ ملليمتر سنويا .

وأما منطقة الصحراء ، وهى نحو مليونى كيلومترا ، فتقع جنوب سلسلة الأطلس الصحراوى وهى أضخم الجبال الجزائرية وأكثرها ارتفاعا ، ويبلغ أقصى ارتفاعها ٢٣١١ مترا فى قمة الشلية بناحية الأوراس الغنية البهية ، ذات المجد التالد والطريف تليها جبال اولاد نايل وعمور ، وتسكنها القبائل الهلالية العربية الشهيرة ، وتتلقى هذه الجبال كمية ضخمة من الأمطار كل سنة. والصحراء قسمان قسم صخرى لاحياة فيه لحيوان او نبات ، ويدعى « الحمادة » وقسم رملى ناعم ، يدعى «العرق» وهو القسم الأكبر وفيه عدد لايستهان به من الواحات الخضراء البديعة التى طبقت شهرتها الآفاق "كبسكرة ، وطولقة والأغواط وكامل جهات الزبيان ووادى سوف شرقا وبلاد ميزاب جنوبا ، وشلالة واولاد سيدى الشيخ غربا بحيث كلما برزت على سطح الارض منابع طبيعية من المياه الجوفية المنحدرة من سلاسل الأطاس تكونت الحياة الانسانية والنباتية فى أبهى مناظرها والقاسم المشترك الأعظم بين هذه الواحات هو جنات النخيل الباسقة الشهيرة بجمالها وثمارها وفى الجنوب الصحراوى توجد جبال (الهقار) الشامخة المتشعبة التى تسكنها قبائل « الطوارق » الملتمون وكانوا أصحاب حضارة كبيرة بائدة ، والمرأة عندهم هى صاحبة المكانة الأولى فى المجتمع . وفى أقصى الجنوب الشرقى على مقربة من الحدود الليبية ، توجد جبال الطاسيلى وبها رسوم وصور ملونة متقنة لأزمنة ماقبل التاريخ : تعاصر الحضارة المصرية القديمة ويهتم بها الباحثون من مختلف بقاع الدنيا كثيرا .

سكانها : إن العشرين مليونا من سكان الجزائر اليوم كلهم مسلمون لم يبق بينهم دخيل منذ نزوح الأوربيين واليهود عامة سنة ١٩٦٢ عند إعلان الاستقلال. كلهم يتبع مذهب الإمام مالك بن أنس إلا نحو عشرة آلاف من بقايا الأتراك العثمانيين يتبعون مذهب أبى حنيفة . النعمان ، وستين ألفا يتبعون المذهب الأباضى وأغلبيتهم العظمى ببلاد ميزاب ، ان أصل السكان هم قبائل « الأمازيغ » أى الرجال الأحرار ، نسبة إلى جدهم الأعلى « مازيغ بن قحطان » — ويدعوهم الرومانيون (البربر) أى الأجانب ، وتبعهم ابن خلدون فى هذه التسمية غالطا .وبعد الفتح الإسلامى ،

وخاصة بعد استقرار قبائل بنى هلال وبنى سليم بالبلاد اندمجت أغلب القبائل الأمازيغية فى العرب واعتنق جميع الأمازيغ الإسلام ، فخذقوا لغة العرب اثر حفظهم للقرآن فلم يبق فى كامل الأرض الجزائرية إلا نحو أربعة آلاف نسمة يسكنون أعالى الجبال ،لايتكلمون — على خلاف بينهم — إلا لغة أمازيغية قديمة وتمتاز سكان الأرض الجزائرية عموما بأمرين: أولهما نسبة الشباب التى تزيد عن ٥٥ ٪ ممن سنهم دون العشرين وثانيها نسبة الزيادة السنوية فى السكان ، حيث هى تزيد قليلا عن ٣,٥٠ بالمائة .

مركزها الاقتصادى : تزداد أهمية الجزائر الاقتصادية ،منذ الاستقلال زيادة ملحوظة فالجزائر بلد زراعى رعوى أساسا ينتج الحبوب المختلفة ،وكل أنواع الأشجار المثمرة وخاصة الحمضيات منها، والزيتون المنتشر فى بلاد الشمال (نحو ١٢,٠٠٠,٠٠٠ شجرة تنتج زيتا كثيراً والنخيل فى الجنوب) (نحو ١٠,٠٠٠,٠٠٠) ومنه نوع دقلة نور ذات الشهرة العالمية ،وكل انواع البقول المختلفة ،لكن تزايد عدد السكان بصفة عالية جدا جعل تلك الخيرات الدافقة لا تكاد تكفى لسد حاجتهم ، كذلك عدد الماشية من الضأن التى كانت على نسبة شاة واحدة لكل فرد من السكان ، فأصبحت لاتكاد تفى بحاجة المستهلكين :

نشأت بالبلاد بعد الاستقلال صناعة مختلفة عمت كل الجهات ،زيادة عن الصناعات التقليدية القديمة كصناعة النحاس ، والحلى من الذهب والفضة ، والزرابى التى تختص كل جهة بنوع جميل منها ، وانسجة الصوف والحرير الطبيعى ،فالمعامل الكبيرة الجديدة تشمل صناعة التعدين وخاصة الحديد الموجود بوفرة ، ومعامل الأقمشة المختلفة ،ومعامل الورق ،ومعامل الآلات الزراعية الثقيلة والخفيفة ومعامل الأدوات المنزلية من معدنية وفخارية على الطريقة الصينية ، ومعامل للصناعات الكهربائية المختلفة ،ومعامل للنشارة والأخشاب ،تستثمر الغابات الجزائرية العديدة كالأرز ، والصنوبر والفلين،وغيرها والغابات تنمو فى الجزائر بشكل غريب، ناهيك أن الدولة تنشىء الآن غابة سميكة تمتد نحو ١٥٠٠ كيلو متر متواصلة فى الجنوب لتمنع تسرب الرمال إلى أرض الشمال .

وفى أرض الجنوب معادن غنية جدا ، منها مالم يستثمر بعد،كالذهب الموجود وافرا، وقد رأت الدولة أن يبقى مكتوما إلى أن تحين ساعة الحاجة إليه ، ومنها ما استثمر بعضه كالنفط الذى هو عمدة الاقتصاد الجزائرى اليوم حيث ينتج نحو ٥٠ مليون طن سنويا ونشأت بالجزائر صناعة نفط كاملة ،لها أنابيب صنعت بالجزائر لإيصاله إلى الناحية الشمالية حيث يرسل منه نحو ٥٠

مايون طن إلى مختلف بلاد العالم ، وكالغاز الطبيعي الذي يخرج بكثرة متدفقا وأنشئت له معامل عديدة لتنميه ، وتزويد مختلف البلاد الأجنبية به ، زيادة عن الاستهلاك المحلي الذي شمل كل مدن القطر ، ولازالت البلاد تكتشف مناطق جديدة للنفط والغاز . وكل هذه الموارد الضخمة تنفق في سبيل الإنشاء والتعمير ، وجزء منها لأعمال التسيير .

تاريخها = للجزائر تاريخ حافل طويل قبل الإسلام وبعده يمكن تلخيصه كما يلي :

١ ـ جاءها العرب من بني كنعان (فنيقيا) قبل المسيح بألف سنة وعاشروا أهلها سلما قصد التبادل التجاري ، ثم اسسوا مدينة (قرطاجنة) سنة ٤٨٠ ق .م واصبحت لها امبراطورية ضخمة عمت الشمال الإفريقي كافة وتأسست فيه ممالك أمازيغية كبيرة خاصة في جهتها الشرقية والوسطى (نوميديا) :

٢ ـ استعمرها الرومانيون بعد تحطيم قرطاجنة سنة ٢٥٠ ق .م ودام استعمارهم لها إلى سنة ٤٢٩ ق .م وقامت ضد الرومانيون ثورات عنيفة جدا اخمدوا الكثير منها الى ان استعان الأمازيغ عليهم بالوندال (سكان الأندلس) فجاؤوها فاتحين ، وأعانوا الأمازيغ على تقويض كل أثر للرومان :

٣ ـ لم يمكث الوندال بالبلاد إلا مائة عام (٤٢٩ ـ ٥٣٠) استرجع خلالها الأمازيغ سلطانهم وحريتهم :

٤ ـ جاء الروم من بلاد القسطنطينية فاتحين فأخرجوا الوندال (٥٣٠م) إنما كان الأمازيغ قد استرجعوا استقلالهم ، فلم يكن الروم يحتلون إلا مراكز عسكرية محددة النطاق :

٥ ـ فاضت انوار المدينة الإسلامية بالفتح العربي تحت قيادة عقبة بن نافع ، وحسان بن النعمان وعم الفتح كل جهات المغرب العربي ، وبعد معارك قليلة متفرقة أسلم الأمازيغ وحسن إسلامهم وأصبح المغرب ومنه الجزائر ، جزءا من بلاد العروبة والإسلام وتوالى عليها الولاة من قبل دمشق .

٦ ـ أقام الأباضيون بوسط الجزائر (تاهرت) أول دولة إسلامية خارجة عن الخلافة ، سنة ١٢٩ هـ هي دولة بني رستم ، وكان نظامها دينيا إسلاميا صادقا يتولى أمرها الإمام وجماعة « الشراة » ودامت الدولة ١٣٦ سنة .

٧ ـ عمت دعوة الشيعة التي نشأت بشرقي الجزائر كل أقطار المغرب العربي وتأسست بالمغرب الأقصى دولة الفاطميين التي وحدت كامل المغرب ، وقضت على دوله المستقلة إلا أنهم فتحوا القاهرة ونقلوا إليها ملكهم ، فتأسست بالقطر الجزائري دولة بني حماد (٣٩٨ ـ ٥٢٩ هـ) وكتاب من أحسن دول الإسلام بلغت بجاية في أيامها أوج المدنية علما وعملا وفي أيامها استقر الأعراب الهلاليون بالبلاد :

٨ — نشأت بالمغرب دولة الموحدين (٥٢٤—٦٨٧) وعمت موجتها كامل بلاد المغرب العربي فوحدته توحيدا كاملا وكانت إدارة صالحة .

٩ — أسس أهل المغرب الجزائرى بمدينة تلمسان دولة بنى زيان ، أثر انقراض دولة الموحدين سنة ٦٢٧فكانت دولة من أحسن دول البلاد بلغت أوج الحضارة ، ونبغ فيها العلماء ، و الأدباء والمخترعون ، وتوسعت فى البلاد إلى أن أصابها الهرم ، وتنازع أمراؤها على كرسى الملك ، كما تنازع وتقاتل امراء بنى حفص الذين أسسوا ملكا ببجاية وعلوا كبيرا ، وكانت النتيجة : هى مهاجمة الأسبان لهذه البلاد بعد تفويض دولة المسلمين بالأندلس وأشعاوها صليبية رسمية ، فاحتلوا كامل الساحل الجزائرى من وهران إلى بجاية ، وذبحوا أهاه وخربوا أعمرانية ولم يجدوا مقاومة عنيفة ، لان الشعب فقد قيادته .

١٠ — كان البطلان المسلمان (عروج) (وخير الدين) وهما من قراصنة الدولة العثمانية يقومان بانقاذ بقايا مسلمى الأندلس والقدوم بهم إلى الأرض الجزائرية . فأرسل لهما الجزائريون يطلبون نجدتهم العسكرية لإنقاذ بلاد الإسلام من احتلال الأسبان ، ولبى البطلان الطلب فنزلا خلف بجاية ثم استقرا ببعض المدن الساحلية ومنها قدما إلى مدينة الجزائر وكان سرور الشعب بهما عظيما ، فأسسا بكامل البلاد دولة الجزائر المستقلة ، لأول مرة فى التاريخ سنة ١٥١٦م . وأقبل الشعب عليهم ، فنظموا الحكم وأقاموا الإدارة ووحدوا البلاد ، وأنقذو الساحل الجزائرى من الأسبان وكان عدد الأتراك قليلا جدا إنما التف أهل البلاد حولهم فكانت البلاد تحت الحماية العثمانية دولة قوية قهرت أسبانية بصفة لا مثيل لها وحاربت أغلب الدول الأوربية واستمرت الحرب مع أسبانيا من أجل إنقاذ وهران ٣٠٠ سنة واستمرت الدولة الجزائرية هكذا إلى سنة ١٨٣٠حيث احتلت فرنسا العاصمة .

١١ — رغم المقاومة البطولية التى قام بها أهل البلاد تحت قيادة الأمير عبد القادر وأحمد الشريف والى المقاطعة الشرقية تمكنت فرنسا بعد خسائر كبيرة ، من احتلال كامل البلاد ، وقهرت أهلها وإذلتهم لأنها كانت محاية إلا أن الأحرار أسسوا سنة ١٩٥٤(جبهة التحرير الوطنى) وأعلنوا باسمها الثورة العارمة الشاملة يوم أول نفامبر ، وسلك الفرنسيون سياسة التدمير وإتلاف كل أنواع الحياة إلا أن ذلك لم يغن عنهم قتيلا ، وتكبد الجزائريون أثناء حرب التحرير خسارة فادحة فى الأنفس والأموال ، إذ قتل الفرنسيون منهم مليونا ونصف مليون من الأنفس واستمرت الحرب إلى مارس ١٩٦٢حيث اعترفت فرنسا مكرهة للجزائر بحق تقرير المصير ، وأعلن الاستقلال

يوم ٥ يوليو ١٩٦٢ وتأسست أول حكومة وطنية بها :

١٢ – نظامها وإدارتها = يقول الدستور الجزائرى والميثاق الوطنى الجزائرى أن الدولة دينها الإسلام ولغتها العربية، وهى دولة ديمقراطية شعبية يديرها حزب جبهة التحرير الوطنى الجزائرى بواسطة حكومة رئاسية تعتمد على مجلس أمة شعبى وبها ٣٢ ولاية لكل منها مجلس شعبى ولائى منتخب ولكل مدينة فيها مجلس شعبى بلدى (وعددها ٧١٠) وهى تسير فى نظام اشتراكى لا يعارض الإسلام دين الدولة . فأنشات منذ الاستقلال تعليما وطنيا قويا تشمل أقسامه الابتدائية ٤,٥٠٠,٠٠٠ طفل يتعلمون العربية فقط خلال ثلاث سنوات مع حفظ شىء من القرآن ، وعلوم الدين ؛ ثم يتناولون اللغة الفرنسية بعد ذلك إلى جنب العربية لبقية مدة الدراسة وبالجزائر اليوم ٦ جامعات لتدريس العلوم العليا ، وهى سائرة نحو التعريب التام رجالها الخالدون = من أشهر رجال العلم والأدب فى الجزائر منذ إسلامها العلامة إبراهيم ابن عبد الرحمان التنسى ، والشاعر العظيم بكر بن حماد أيام الدولة الرستمية ، والعالم الطبيب اللغوى ابن تميم والجغرافى الكبير ابن الوراق أيام الفاطميين ومحمد بن على الصنهاجى المؤرخ الكبير واللغوى النحوى ابن العفراء والعلامة المجتهد ابن الرماح فى دولة الفاطميين أما فى أيام الموحدين فقد نبغ فى أرض الجزائر الشريف ابن عمارة الشاعر الكبير والحسن ابن العكون القسنطينى ، ويوسف بن إبراهيم الوارجلانى : أما فى أيام دولة بنى زيان فقد نبغ نبوغا كبيرا وتفوق أمثال عبد الرحمان الثعالبى ومحمد بن يحيى الونشريسى ومحمد السنوسى والقاصادى الفلكى وابن الفحام المهندس واضع اول ساعة متكاملة ، والمقرى صاحب كتاب نفح الطيب أما أيام الدولة الجزائرية العثمانية فقد نبغ رجال عظماء من محمد بن عمار الجزائرى وعيسى بن محمد الثعالبى ، ويحيى بن صالح المليانى وعمر المنقلاتى . أما فى أيام فرنسا فقد سجلت بكل فخر أسماء الأمير المجاهد عبد القادر ابن محى الدين وأحمد الشريف المجاهد بقسنطينة ومحمد ابن أبى الشنب ، وعبد الحميد بن باديس محى العربية والإسلام والبشير الإبراهيمى العالم الأديب عضو مجمع اللغة العربية والشاعر الكبير محمد العيد ومفدى زكريا .

والجزائر عاصمة الجمهورية الجزائرية مدينة جميلة تقع داخل جون واسع على البحر المتوسط . تمتد على الساحل وترتفع شيئا فشيئا إلى قمة ربوة ترتفع نحو ١٢٠ مترا حيث توجد قلعة (القصبة) والمدينة ذات قسمين مختلفين بصفة ظاهرة : المدينة العربية العتيقة وهى المرتفعة على سفح الربوة وبين منعرجات طرفها الظيفة نجد الديار العديدة ذات الطابع الأندلسى ؟ والعثمانى وكلها مبنى على نمط واحد بهيج ، يشرف أكثرها على البحر ثم المدينة الأوربية التى بنيت

انقاض المدينة العربية العثمانية التي كانت على الساحل البحرى ، وكانت تشمل أجمل المساجد وأبهى الدور العربية ومقر الإدارات العثمانية المختلفة . فبعد احتلال فرنسا لهذه المدينة (يوليو ١٨٣٠)حطم المستعمرون كامل الشريط الساحلى وأتلفوا ما فيه من مساجد (١٠١) ومن حدائق وقصور ، وبنوا على أنقاضها مدينة أوربية كاملة ، وللمدينة مرفاء كبير كان فى قديم الزمان مجموعة من عشرين جزيرة ، جمع بينها القائد العثمانى الشهير خير الدين باشا سنة ١٥٢٠ بواسطة سدود ، فأصبحت مأوى لأسطول بحرى من أشهر أساطيل القرصان الذين لعبوا دورا خطيرا فى البحر المتوسط فيما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ميلادى ووسع ذلك المرسى الذى لا يبعد عن مرسيليا إلا مسافة ٨٠٠ كيلو مترا ، حتى أصبح من أهم وأعظم مراسى الحوض الغربى بالبحر المتوسط .

تاريخها = أسس العرب الكنعانيون (الفنيقيون) هذه البلدة حوالى ١٠٠٠سنة ق .م فأصبحت من أهم مراكزهم التجارية التى أسسوها على ساحل البحر المتوسط وكان اسمها يومئذ (أقسوم) ثم استولى عليها الرومانيون بعد تحطيم قرطاجنة ثم تولى أمرها كل الفاتحين من بعدهم (انظر قسم الجزائر الجمهورية) إلى أن تولى العرب المسلمون أمرها وتداولت عليها دولهم ، وقد خربتها الأعمال الحربية المتوالية وأهملت .فأعاد الأمير الحمادى الشهير بولكين ابن زيرى بناءها حوالى سنة ٩٨٠ م : وأصبحت ماءهولة بقبيلة « بنى مزغنة » الأمازيغية ثم استقر حولها الأعراب من بنى هلال وخاصة من الثعالبة الذين دخلوها وتاءلفوا مع سكانها وفى سنة ١٥١٦جاءها القائدان العثمانيان عروج وخير الدين فى أسطولها القرصانى وأبعد عنها الخطر الأسبانى الذى ضيق عليها الخناق . واتخذا منها عاصمة للدولة الإسلامية الجديدة التى تدعى (دولة الجزائر) محتمية بالخلافة العثمانية فى استامبول .

أخذت المدينة تنمو وتستقر بها الأوضاع منذ تلك السنة وتوالت عليها الحملات الأسبانية القوية براوبحرافقهرها الجزائريون وحطموها جميعا ، سنوات ١٥١٦ — ١٥١٩ — ١٥٤١ حيث حطموا كامل أسطول وجند الملك شرلكان وتوطدت أركان الحكم الإسلامى العثمانى مدة تزيد عن ٣٢٠ سنة ، إلى أن احتلها الجند الفرنسى يوم ٥ يوليو ١٨٣٠ بعد معركة رهيبة واتفاقية أبرمت من أجل تسليم المدينة ، ولكن الفرنسيين أهملوها وعملوا على نقيضها .

أصبحت مدينة الجزائر تحت الاحتلال الفرنسى مدينـــة كبيرة ارتكزت فيها الإدارات العامة والولاية العامة ، وكانت محط رجال الاستعمار ومركز المعاملات التجارية والتبادل الاقتصادى وأصبح

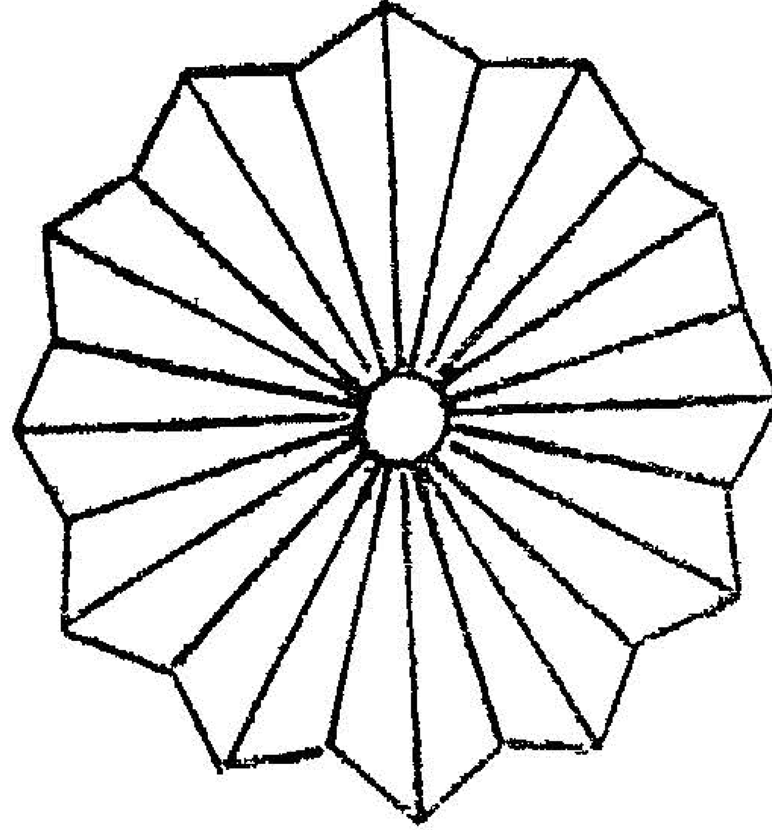
سكانها يومئذ يبلغون ٦٠٠٠٠٠ منهم ١٥٠٠٠٠ فقط من أهل البلاد :

وهكذا إلى أن أعلنت الحرب التحريرية العظمى يوم ١ نفامبر ١٩٥٤ فاشتركت مدينة الجزائر اشتراكا فعالا في حوادث تلك الثورة العارمة ، إلى أن أيقنت فرنسا بأن التعنت لا يجديها نفعا وكثرت خسائرها ، وسقطت حكوماتها ، فاعترفت للقطر الجزائري بحق تقرير المصير . وأعلن الاستقلال باجماع الأصوات أواخر سنة ١٩٦٢

يومئذ تأسست بمدينة الجزائر حكومة وطنية من رجال جبهة التحرير وجيش التحرير وأخذت الجزائر عامة تسير في ميدان التقدم العلمي والاجتماعي والاقتصادي ، واستقرت ، على إنقاض النظام الاستعماري إدارة وطنية صرفة عملت بجد وإخلاص لإصلاح ما أفسده الاستعمار كما استقرت بها الشركات الوطنية الكبرى التي تدير اقتصاد البلاد الذي ينمو ويستقر بصفة مستمرة .

أما السكان فقد أصبحوا اليوم نحواً من ٢٧٥٠٠٠٠ كلهم جزائرين وقد غصت بهم المدينة القديمة ، وضاقت بهم العمارات التي لا يكاد يحصيها عدد ، والتي أنشأتها حكومة الاستقلال .

أحمد توفيق المدني
عضو المجمع من الجزائر



أصحاب اللسانين

للدكتور حسين مجيب المصري

من غير شك أن الفرس بعد إذ تعربوا بلغوا كل مبلغ فى امتلاك ناصية العربية وكل ما هو متصل بسبب منها ، ولقد ترددت على ألسن فصحائهم كما جرت على شباة أقلام بلغائهم ولمائهم ولا نسيان على طول الزمان لما أورثوا التراث العربى من بدائع وروائع .

وبالذكر جدير أن انعقاد الوصلة بين الفرس والعرب متوضح فى مظهر لغوى بالتراث هو التقاء بين العربية والفارسية جميعا لدى بعض الفرس لغتين فى كفتى ميزان تتراجحان وبهذا نظموا على الأخص شعرهم ودبجوا نثرهم وأصدروا التآليف والتصانيف . ويسعنا قولنا إن مثل تلك الظاهرة تقوم كدليل على أن التراث الإسلامى فى شتى نواحيه إنما تتوزعه أكثر من لغة فما كان حكرا على لغة الضاد ليس إلا . وفى ذلك ما يرشد إلى ما كان للدين الله ولغة كتابه المبين من جليل القدر وعظيم الخطر وكبير الفضل على أجيال من الناس وأجيال جمعتهم من الدين جامعة وانتظمتهم وحدة فلما أصبحوا من أهل لا إله إلا الله تألفت ثقافاتهم وإن تخالفت لغاتهم وتساندت ألسنتهم فى التعبير تبعا لتشاكلهم وتقاربهم فى الشعور والتفكير . ولا غرو فإن وحدة العقيدة مترتبة عليها بالجمع وحدة الثقافة وهى التى أدعم عليها كل ما خفق فى القلوب وانتقام فى العقول والأفهام ومن حيث مست الحاجة فى كل شعور وتفكير إلى إبانة عنه وتفسير له ، كان التراث الإسلامى متكامل العناصر متشاكل ، وهى عناصر ما من سبيل إلى فصل أحدها عن الآخر — فبينهما ندية لاضدية — أما اختلاف لغات ذلك التراث فتعلق بالمظهر غير متصل بالجوهر .. وما ذاك إلا لأن المعنى يلبس اللفظ ثوبا ومن اكتسى ثوبا عوضا من ثوب تبدلت بزته رأى العين وما تبدلت حقيقة فى واقع الحال .

ونستخلص من هذا كله أن من بلغاء وعلماء الفرس من اتخذوا لهم لسانين هما والفارسية والعربية ولذلك امتازوا بتلك التسمية من غيرهم الذين لم يقدموا إلى تراث

المسلمين مزيدا وجديدا إلا بلغتهم الفارسية وفرق بين صاحب قدرة وصاحب قدرتين وليس سواء شئ وضعفه .

وهذا الملحظ يتأيد ويتأكد بخاصة فيما يتعلق بشأن صاحب اللسانين وماذاك إلا لأنه ملحوظ جلى لا مجال للريب فيه .

أما إذا كان من الخير أن نسوق الكلام على وجه التحديد وتطلق الحكم فى شمول وعموم ، فلنا أن نشير إلى أن أصحاب اللسانين من الفرس لا يشكلون كثرة بل قلة فى نطاق الإمكان حصرها وهى من قبيل تلك القلة التى للجهابذة الأعلام وصفوة أهل التحصيل الذين برزوا على غيرهم واوتوا من العلم ما لم يؤت سواهم إلا فى الندرة . كما أن هؤلاء تظهر لهم نصوصيتهم المرموق من قدرتهم الأمر طويل زمان على فتح العرب لفارس وقامت الفارسية على ساق ولها مكتمل من كيانها وأهلها معتزون بها ذهابا منهم إلى اعتزازهم بقوميتهم الفارسية التى ردت عليهم بعد أن محقها العرب أو كادوا . ومن ثم يستبين فصل صاحب اللسانين الذى يقتدر على التعبير بلغة الضاد التى لم تعد لغة الفرس مالهم لغة سواها . على نحو ما ينطلق تعبيره بلسانه الفارسى الذى أصبح قومه كافة . فما كان عليه بأس إذا ما عالج من ذلك ما عالج وقد امتلأ فخرا ، لأنه إنما شق على نفسه بمزاولة مطلب صعب وركوب مركب وعر .

ولكن بين أصحاب اللسانين تفاضل وتفاوت ، فمنهم من كانت إحدى اللغتين أوفى نصيباً من اهتمامه من اللغة الأخرى فأكثر من تأليفه بالفارسية مثلا ، وذلك يطرد عكسا . كما لا يخفى أن إجادته فيهما ليست على قدر متساو .

وأول حقيق بالذكر من هؤلاء الأمير قابوس بن وشمكير الزيادى المتوفى عام ٤٠٣ هـ وهو من الملوك الأدباء وصاحب هذه الأبيات المأثورة :

قيل للذى بصروف الدهر عيرنا
هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف
وتستقر بأقصى قاعه الدرر
فإن تكن نشبت أيدى الزمان بنا
ونالنا من تمادى بؤسه الضـــرر
ففى السماء نجوم مالها عـــدد
وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وكان يقول الشعر بالعربية والفارسية ولقد ثقلت عليه العلة وناكرته حروف الزمان إلا أنه كان منقطع القرين فى علو همته وكرمه وأدبه وله فى النثر العربى روائع ورسائله من البلاغة فى رتبة رسائل بلغاء العرب[1].

بيد أننا لا نعرف له فى لغة الفرس نثرا فنيا ولا شعرا مطرباً معجبا وله أبيات يقول فيها .

---

(١) آشتيانى : قابوس وشمكيرزيارى ص ١٣ (برلين ١٣٤٣)

(إن أمر الدنيا كله رغبات وحاجات أنا لست أشغل القلب بما يحتاج ويرغب ولقد اخترت عشرين شيئا من هذه الدنيا كلها ، كيما أقضى بها الحياة بطولها — الشعر والغناء والحسناء ، وما طاب لى من صهباء ، والشطرنج والنرد ، والمصاد والبازى والفهد ، والميدان والخضرة والملاحم والكرة والملاحم والولائم والفرس والسلاح والسخاء ، والصلاة والدعاء)[1]

فإذا ضاهينا هذا المثال — من شعره الفارسى بما أوردنا من شعره العربى ، تبين لنا ما بين المثالين من تخالف . وأدركنا فى يقين أن قابوس بن وشمكير صاحب اللسانين قال فى العربية شعرا مستقيم المنهج شرق المعانى يرى على اللسان للتمثل بحكمة وبلاغة ، أما فى الفارسية فلا يستدل من شعره على أنه شاعر رفيع الطبقة لطيف التخيل . وما قيل من أن له الروائع فى النثر العــربى بخاصة ، يقيم الدليل على ما نذهب إليه من أنه فى عداد أعيان البيان ولكن فى لغة العرب لا لغة الفرس .

وإنا لنتذكر بقابوس بديع الزمان الهمذانى لما بينهما من وجوه شبه . فبديع الزمان من فاضت له الشهرة فى الآفاق بمقاماته التى راقت ديباجتها ونمقت عبارتها : ونثره يفضل شعره . وكان يرغب إليه أن يترجم الشعر الفارسى غريب المعنى إلى شعر عربى . فيجمع فى ترجمته بين الإسراع والإبداع إلى عجائب كثيرة لا تحصر[2] .

واتفق للصاحب بن عباد أن أراد امتحانه — معاجزا له — فاقترح عليه ترجمة أبيات من الشعر الفارسى إلى شعر عربى . وبلغ بديع الزمان من اقتناعه بعظيم قدرته على أداء ما طلب إليه على الوجه الأكمل أن يختار أصعب القوافى والبحور وأن يترجم على البديهة ، وكأنما امتلأ زهوا وعول على مواجهة المتحدى بأيسر جهد والإشارة ضمنا إلى أنه ماله إلا هو .

وإن دل ذلك على شئ فدلالة على اتساع باعه فى لغة الضاد . ولا غرو فإنه من البلغاء المشاهير ولا ريب ، أما ما فيه بعض الريب فكونه صاحب فصاحة وإبانة فى الفارسية لأن ذلك مالا نعرفه عنه ولا نعهده فيه .

ومادام الشئ بالشئ يذكر ، فهذا فارسى آخر من أصحاب اللسانين يسمى ابن أبى كوبة ثوبة ، (قيل إن أحد الندماء فى مجلس شرابه أنشد بيتين من شعر أبى نواس ، فتأمل ساعة ثم ترجمه إلى شعر فارسى ترجمة عناية فى دقتها وجودتها)[3] .

---

(١) كارجهان سرار أزاست يانياز   من بيش دل بيش آزونيازرا
من بيت جيزرا بجهان بركزيده ام   تاهم بدان كزارم درازرا
شعر وسرود ورود وفى خوشكواررا
ميدان وكوى وباركه ورزم وبزمرا شطرنج ونرد وصيدكه وبوزويازرا
اسب وسلاح وجود ودعا ونمازرا

(٢) الثعالبى : يتيمة الدهر . ص ٣٤١ ج ٤ (القاهرة ١٩٣٤)

(٣) عوفى ، لباب الألباب ص ٧٦ ج١ (ليدن ١٩٠٩)

وجملة ما يقال فى هذا الصدد أن ابن أبى توبة كان راسخ القدم فى علمه باللغتين . فهو من أصحابهما . ومن أهل القرن الرابع الهجرى أبو الفتح البستى الذى ينسب اليه محمد عوفى صاحب لباب الألباب ديوانا من الشعر العربى وآخر من الشعر الفارسى ، وخصه الثعالبى فى يتيمته بسبع وعشرين صفحة يورد فيها الأمثلة من نظمه ونثره إلا أنه لا ينسب إليه ديوانا من الشعر الفارسى . وفى هذا أخباره أنه ترجم عن الفارسية إلى العربية شعرا . وبما أننا لم نطلع على شعره الفارسى ، لايتيسر لنا معرفة الراجح من الرجوح المرجوح من شعره فى اللغتين ، وإن كنا أميل إلى أرجحية شعره ونثره فى العربية وذلك لمنزلة فى أدب العرب لا فى أدب الفرس .

كما قيل أن ابن أبى عباس الاسفرابين وزير السلطان محمود الغزنوى كان يترجم الشعر العربى إلى شعر فارسى . مما يستدل منه على أن كثيرا من الفرس ألفوا الترجمة المنظومة إلا أن هذا إنما كان رياضة ، ورغبة فى التباهى بعلو كعبهم فى اللغتين جميعا . وهنا نتحفظ فى الحكم لنقول ان هؤلاء المترجمين إذا اقتصروا على الترجمة وحدها وعلى نحو محدود فهم من أصحاب اللسانين ولكن لا يبلغون مبلغ غيرهم ممن نظموا ونثروا وألفوا فى اللسانين جميعا .

ويأتى الترتيب بعد ذلك على ذكر عمر الخيام ، من حيث كونه شاعراً ذاعت شهرته برباعياته الفارسية ولما كاد يعرف بأنه معدود فى أصحاب اللسانين . لقد اشتهر بشعره الفارسى لا العربى وأصبحت الترجمة الإنجليزية لرباعياته ضمن روائع الأدب الإنجليزى وهى أكثر تداولا عند قراء الإنجليزية ولا يضاهيها إلاروائع شكسبير[1] .

وقيل إن الخيام يربط بين الشعر الفارسى والعربى فى تصورنا أبياتا فى لزوميات أبى العلاء تذكرنا بأشعار الخيام)[2] .

وهذا رأى لا نميل إلى الأخذ به لما فيه من تحكم وتجاف عن حقيقة الأمر وليس يكفى أن يتفق الشاعران على أن أديم الأرض من هذه الأجساد للحكم بأن الشعر العربى والفارسى ملتقيان فى قولهما .

أما ما نلاحظه على شعر الخيام العربى بالخاصة ، فهو اختلاف غرضه فيه كلية عن غرضه فى شعره الفارسى لأنه القائل :

تدين لى الدنيا بل السبعة العلى
بل الأفق الأعلى إذا جاش خاطرى
أصوم عن الفحشاء جهرا وخفية
عفافا وإفطارى بتقديس فاطرى
وكل عصبة ضلت عن الحق واهتدت
بطرق الهدى من فيضى المتقاطر
فإن صراطى المستقيم بصائر
نصبن على وادى العمى كالقناطر

---

(١) د . حسين مجيب المصرى : من أدب الفرس والترك ص ١٩ (القاهرة من ١٩)

2. weir : Dmarkhoyyam tee poar pll Ifahore 1954î.

وإذا تدبرنا هذا الشعر مبنى ومعنى ، ألفيناه مهلهل النظم تعوزه استقامة العبارة وسلامتها ، ويرشد إلى أن قائله نازل عن رتبة المجيدين وهو ذاهب بنفسه إلى أبعد الغايات . ويا ليته كان سمح القريحة ، فلقد جهد أن يتألق غير أنه لم يوفق . ولكن الخيام قبل هذا من قوله مورد على الخاطر أنه فى شعره العربى مناقض "معاند لنفسه فى شعره الفارسى الذى ذهب الدارسون مذاهب شتى فى التعرف على حقيقة غرضه . ونحن نتخذ من شعره العربى هذا على ضعفه وركته ما نؤيد به رأينا فى الرجل ورباعياته. فالذى عندنا أنه كان عالما نحريرا وسع علمه الأصول والفروع من تفسير وحديث ولغة وطب ونجوم ، ولذلك عرف بحجة الحق ، وقلة الزلفى والحظوة وعلو المنزلة عند السلطان الذى كان يجلبه ويوقره ويجلسه إلى جانبه ، ولايستقيم فى بداهة العقول أن يحمل قوله فى الدعوة إلى معاقرة الصهباء والتهافت على مفاتن دنيا إلى فناء على الظاهر . فلم يبق إلا أن تكون جمهرة رباعية الفارسية منحولة مدسوسة عليه وهو الأقرب إلى الحقيقة ، أو أنه كان لكلام ظاهر غير مقصود وباطن هو المقصود ومازال اللبس يغشى ذلك المقصود .

ويبدو حكيما حلب الدهر أشطره ، متمرسا بتجارب زادته علما ولأعماق الصراع فهما ، فهو القائل :

زجيت دهرا طويلا فى التماس أخ
يرعى ودادى إذا ذو خلة خانا

فكم ألفت وكم أصبت غير أخ
وكم تبدلت بالإخوان إخوانا

فكأن هذه القلة من الأبيات العربية التى دخل فى زمرة أصحاب اللسانين أبدت مارواه أصحاب السير من سيرته كمؤمن موقن تقى نقى . وأعانتنا بالتالى على الاجتهاد بالرأى فيه ، فخرجنا به خروجا بعيدا من طائفة أهل المجانة والصبوة والملاحدة المارقين قمين بالذكر أن قرنا واحداً هو القرن الخامس الهجرى أظل الخيام وشاعرا آخر يسمى مسعود سعد سلمان . وكان مداحا إلا أنه أول من ضمن القصيدة الفارسية خاصا من أحاسيسه وطبعها بطابع من ذاتيته[1] .

ومن أهم ماتميز به سيرته أنه قضى فى السجن سنين عددا على غير ذنب مقتضى لسجنه وإنما زجه فى غيابه السجن كيد الكائدين وحقد الحاقدين المنتقمين ، مما أفرغ على شعره لونا مميزا له مخصوصا به . وهنا يجول فى الخاطر ماجال بشأن الخيام وأبى العلاء من رابطة التشابه بين شاعر فارسى وعربى ، وذلك أن مسعود سعد سلمان برز فى فن مستطرف هو فن الحبسيات ، وحبسياته تعقد وصلة بينه وبين الشاعر العربى أبى فراس الحمدانى صاحب الحبسيات المأثورات .

1. Bousani : Storia Jella Lettaratusa dal Paiistan I F 65, 66 (Mlans 1958) .

أما إذا كان مناط اهتمامنا فى هذا المقام شعره العربى ، فها هو ذا يصدقنا القول فى شأنه من يقوله فى بيت من الشعر الفارسى ماترجمته (ولواختبرنى فى العربيةوالفارسية إنسان — لكنت أنا فارس هذا الميدان [١])

وقد أورد رشيد الدين الوطواط الشواهد من شعره العربى والفارسى فى كتابه (حدائق السحر) وهو كتاب فى البلاغة ، ولكن ناشر ديوانه الفارسى يقول إن جمع شعره العربى بين دفتى ديوان موضع نظر [٢] .

ولعل مسعود سعد سليمان بما ذكر عن سعة علمه بالعربية والفارسية يطلعنا كما لم يطلعنا غيره على واقعة الحق ، كما أنه قدم العربية على الفارسية وتاه تيها بتضلعه منهما فى آن .

أما أن يسوق مؤلف فى البلاغة أمثلة من شعره فيها جميعا ، فلن يسقط به الاستدلال على أنه كان ينظم بهما جياد أشعاره ، مما يلزم منه أن يكون علمه بهما بمقدار واحد ونظمه فيهما بالسوية على الأرجح ومن قوله :

لعل كأن الشمس ضلت ممرها
وليس لها نحو المشارق مرجع
نظرت إليه والظلام كأنه
على العين غربان من الجو وقع
فقلت لقلبى طال ليلى وليس لى
من الهم منجاة وفى الصبر منزع

وفى أخباره ما إذا استقرأناه وتدبرناه وجدناه يحمل الدليل على أنه أخلى ذرعه للنظم بالعربية وبلغ شأو المشهود لهم بالإجادة قيل إنه كانت بينه وبين الحريرى صاحب المقامات ألفة ومودةمكانا يتراسلان بالشعر ، واتفق أن أرسل إلى الحريرى أبياتا أثناء مقامه فى مصر [٣] . فرد عليه الحريرى بشعر يقول فيه :

كلام كنور الربى فاح غضا
وقد غازلته شآبيب قطر
وريح الشمال جرت ثم جرت
على صفحة الأرض أذيال عطر
ونجم الليالى ونظم اللآلى
ومقبوط عمر ومضبوط أمر

ونحن وإن لم نطلع على مانظم مسعود من أبيات ، نقطع بأنها عربية فبعيدكل البعد أن يكون قد بعثه إليه الشعر فارسى لاعلم له باللغة ، ولوكان كتب إليه بالفارسية لأجابه بلغته .

فالأدلة تتوافر على أنمسعود سعد سلمان من أصحاب اللسانين الذين شغلوا أنفسهم بالعربية والنظم وعرضوا مافى جعبتهم على

---

(١) د . حسين مجيب المصرى : صلات بين العرب والفرس والترك . ص ١٦٤ (القاهرة ص ١٩)
(٢) رشيد ياسمى : ديوان مسعود سلمان . ص س (تهران ١٣١٨)
(٣) محمد محمدى : الدراسات الأدبية ص ١٥ عدد ٣ عام ٢ (بيروت ١٩٦٠)

أبلغ البلغاء فى العربية وكأن لهم رغبة فى المعارضة والمساجلة .

ويذكر بعده سعدى الشيرازى من أهل القرن السابع الهجرى ، ويعد أكبر وأشهر الأخلاقيين فى الشرق وأكثرهم شعبية[1] .

وهو ذلك الحصيف سديد الرأى الساخر المتهكم فى تسامح إذا تناول بالنقد والتجريح نقائص ومعايب الإنسانية ، وتلك مزية له نكاد نعدمها عند معاصريه . مما يثير فرط الإعجاب به[2] .

وسعدى فى تراثه الأدبى المنثور والمنظوم يمثل البليغ الإسلامى الحق الذى جمع أشتات العلوم الإسلامية من أطرافها . وكان العلم بلغة الضاد قواما يقوم به كيان ثقافة . وحسبنا أن نشير أنه قضى شطرا من عمره يحصل العلم فى المدرسة النظامية ببغداد ، ومن هذا شأنه يجدر به أن تكون العلقة بينه وبين العرب ولغتهم أقوى منها لدى سواه ممن لم يعيشوا بين ظهرانى العرب .

وفى كلياته قسم عنوانه (قصائد عربية). وهذا العنوان دال على كثير ، لأنه يؤكد أن صاحب تلك الكليات أو مجموعة أخرج صاحبها من تأليف تتضمن قسما قائما برأسه لما توفر الشاعر على نظمه من شعر عربى إلى جانب مانظم من شعر فارسى وكتب من نثر فنى . وذلك مايتبوأ به سعدى رفيعا من منزلة بين أصحاب اللسانين .

وعند بعض العلماء أن سعدى نظم بعض أشعاره العربية بالضرروة وهو مقيم فى بغداد[3] ونحن نتلقى هذا الرأى على أنه جائز عقلا ، وإن كنا لانستطيع الحكم بأرجحيته لخلو اليد من حجة تؤيده . وأياما كان فهو مؤكد أن الشاعر عاش فى بيئة عربية ، وذالك مايدنوبه ويدنو من شعر العرب وقد يتأتى له به أن يكون أقدر على نظم الشعر العربى من فارسى سواه لم يعايش العرب فى أرضهم ، وبالتالى تبرز فيه صفات ذى اللسانين على نحو ليس لغيره .

وأول ما نلتفت إليه من الشعره العربى قصيدة طويلة يتوجع فيها لما حاق ببغداد من خراب واندثار لمعالم حضارة الإسلام فيها بعد غزو التتار لها فشأن الريح الهوجاء فى عصفها وقصفها .

وهذه القصيدة من اثنين وتسعين بيتا ، ولاتتماسك فى وحدة ، وسعدى متنقل فيها من غرض إلى غرض لكثرة مايتوارد عليه من معان ، ففى ديباجتها يعبر عن كوامن الشجن فى نفسه ويبدى مرير الأسف على ماحاق بحاضرة الإسلام التى سواها العتاة الطغاة بالأرض هدما ، وانهالوا على الأسفار

---

1 - Horn . Geschichte pessischen litteratur. 2168 (Leipzig 1901).

2 - B arlior de Meynard . le Booton . P 26 (Paris 1880)

3 - Massu Essai aur le Poéte Soodi R 21 (Poris 1919)

تمزيقا وتحريفا ووضعوا السيف فى أهل العلم والفضل إلى غير ذلك من مآثم ومحارم . والحق أن سعدى جعل من قصيدته وثيقة تاريخية لها عظيم من الأهمية إلى إنطاقها لساناً لكل مسلم فى قاصية الشرق وقاصية الغرب فى قلبه مثل حز الحسام من لوعة الأسى :

حبست بجفنى المدامع لاتجرى
فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لوكانت تمر على قبرى
لزمت اضطبارى حين كنت منازفا
وهذا فرات لايعالج بالصبر
أديرت كؤوس الموت حتى كأنه
رؤوس الأسارى قد رجحن من السكر
بكت جدر المستنصرية ندبة
على العلماء الراسخين ذوى الحجر
نوائب دهر ليتنى مت قبلها
ولم أر عدوان السفيه على الحبر
محابر تبكى بعدهم بسوادها
وبعض قلوب الناس أحلك من حبر
مررت بصم الراسيات أجوبها
كخنساء من فرط البكاء على صخر

ويبسط القول فى وصف البكاء وشدة الجزع لوقوع البلاء إلى أن يطرق غرضا آخر هو الأسف على أن السلطان هلك عن العباسيين وقد ذهبت ريحهم بعد ما كان من سؤددهم واتساع ملكهم ، ويفضى ، ذلك إلى التوجع للخليفة المستعصم آخر خلفائهم فتتداركه الرقة له ويشبهه بالأئمة فى عصمته واستشهاده وتتأذى نفسه بألا يذكر على المنابر .

إلا أنه يغلب على تصبره وتجلده فبعد أن حدثنا ماشاء الله أن يحدثنا عن سقوط الخلافة ونكبة الخليفة مشبها فى ذلك من يؤرخ الحقائق ويعرف بمصائر أمور الدول سرعان مايعود إلى التعبير عما يكرب نفسه ويمضها حين يتصدى لوصف السبايا وهن يسقن سافرات ذليلات ذليلات ، ويأتى يرمز لتحقيرهن بعدما كان من توقيرهن » وبذلك ضمنا إلى ماحاق بالمسلمين من ذل وهوان بعد أن غلبوا ونكبوا : ثم يجرى على مايجرى عليه شعراء الفرس خصوصا من قول فى الحكمة والموعظة وبذل النصيحة ، كأن يغلظ اللائمة على الشامت المعير بالدهر والأيام دول والزمان ذو غير .

ولسعدى قصيدة فارسية فى الغرض نفسه ، تفترق عن القصيدة بوصف نكبة المسلمين بسقوط خلافة أمير المؤمنين فى تفصيل بيان وتحديد حقائق . وبذلك تتكامل القصيدتان فيما تتضمنان من معان وأغراض ، وقلة فسعدى الشيرازى صاحب اللسانين بهاتين القصيدتين يبدو بجانبين متماثلين متوازيين يتسقان فى لغتين .

ولكن سعدى مع ماعرفنا من جدية توفره على نظم الشعر العربى . لم يعرج فى سماء شهرته إلا بماله فى الفارسية من منظوم ومنثور . ومثل تلك الظاهرة تتجلى على نحو أوضح لدى الشاعر حافظ الشيرازى من أهل القرن الثامن الهجرى الذى تجتمع الكلمة فى المشارق والمغارب على أنه شاعر الفارسية الرقيق الأنيق ..

وهذا مستشرق روسى لايعزو شهرته بشاعريته إلى الخارق من قدرته على التصوير والتخيل، بل إلى نزعته الغلابة إلى غنائيته[1].

وإن كنا أميل إلى القول بأن رقة معانيه ودقتها وجمال عبارته وأناقتها هى التى رفعت بين شعراء الفرس من منزلته ووهبته ماله من حيثية .

ولحافظ شعر عربى ، إلا أنه ليس فى مجموعة كما هو الشأن فى شعر سعدى العربى ، وشعره متفرق فى مواضع من شعره الفارسى ، فتارة يورد شطرا بالعربية مقابل شطر بالفارسية وهذا مألوف عند شعراء الفرس كافة ومعروف بالتلميع وأصل التلميع أن تكون فى جسم الفرس مواضع من لون تخالف لون جسمه ، فكان مصطلح التلميع على التشبيه . كما يورد بيتا أو أبياتا فى أول شعره أو نهايته . وقد يتتالى البيتان فى موضعين ونورد له أربعة أبيات متعاقبة لنتبين فيها خصائص شعره العربى :

ربيع العمر فى مرعى حمايه
حماك الله ياعهد التلاقى
مضت فرص الوصال وماشعرنا
وإنى الآن فى عين الفراق
نهانى الشيب عن وصل العذارى
سوى تقبيل وجه واعتناق
دموعى بعدكم لاتحقروها
فكم بحر جمعن من السواقى

فهذا شعر عربى لاماء فيه ولا رواء وهو بادى العجمة والركة. وإذا تحصل معنى من البيت الرابع فقد عجز اللفظ عن أدائه . وفرق أى فرق بين حافظ فى شعره الفارسى وشعره العربى .

ولما كان المتوقع منه أن يقول شعرا عربيا على هذه الصفة ، وهو الذى قيل عنه فى شعره الفارسى إنه مبدع فى تعبيره وحسن ألفاظه . وقد تهيأ له بذلك أن يتخذ لنفسه على حدة ، تجمع بين الجزالة والسلاسة والحزن والطرب ، كما أن تغاير المعانى فى كلامه مما يشهد له ببراعة منقطع نظيرها[2] .

والتحصل مما سلف نذكره عن شعراء أصحاب اللسانين ، أن شعرهم العربى كان على تفاوت فى جودته ، ومنهم من نظم

1. Braginski : Khaafiz. Sti. 27 (Moskva 1950)

(٢) على دشتى : نقشى از حافظ . ص ١١٣ (تهران ١٣٣٩)

بالعربية رياضة وتكلفا للصنعة كما أنهم لم يكونوا جميعا على نحو واحد فى اهتمامهم بالنظم فى لغة الضاد .

وإذا ما عرجنا على شعراء الترك ألفينا مثل تلك الظاهرة الأدبية لديهم مع فوارق تمس الحاجة فيها إلى فضل إيضاح .

وأول ما نحن ذاكرون فى هذا الصدد . أن الترك كانوا أضعف من الفرس صلة بلغة العرب ، فما خالطوا العرب وعايشوهم بهم كما كان من شأن الفرس وإنما عرفوا لغتهم لغة القرآن والحديث والشرع والعلم ، وما أولوها جانبا كبيرا من عنايتهم من حيث كونها لغة للأدب . وماذاك إلا لأنهم ورثوا حضارة الفرس فى كل مظاهرها ، وتأثرت لغتهم بلغة الفرس فى الأعماق والأبعاد ، ونظروا إلى الفارسى مثالا يحتذى . وذلك ما فرضه واقع تاريخهم وحقيقة وضعهم . وكانت الفارسية لدى بلغائهم هى لغة الثقافة والأدب العالى ، وما كان لأديب الترك وعالمهم غنية عن العلم بالعربية والفارسية ، ولكن على أن الأولى لغة دين وعلم والأخرى لغة أب وشعر .

وترتب على ذلك أن ظهرت فى تاريخ الأدب التركى ظـــاهرة أصحاب اللسانين أو الثلاثة ولكن بكيفية ونوعية تأليف مع ما عرفنا عنه الفرس وتختلف عنها .

ونبدأ بالتعرف إلى شعراء الترك وإقبالهم على النظم بالعربية ، كما أن بلغاء الترك لم يحددوا أن يكون للعرب شعر غاية فى روعته . فها هوذا شاعر تركى يسمى (نابى) كانت وفاته عام ١٧١٢ يوجه الخطاب إلى والده ناصحا وهو يقول (ما أكثر أشعار العرب وهى التى قيلت فى الشام وحلب . لاتقل أنها من الأوزان مجردة ، فإن لها أوزانها على حدة وعامرة بالمعانى الراقصة ، وما أشبهها بالمشعل اللماع ، يلقى الشرر فى الأسماع ، ويالهذا المطرب المعجب ، الذى يجلو مرآة القلب[1] .

فيؤخذ من مثل هذا القول اقتناعه الحازم بما للعرب من جياد الأشعار إلا أن تلك الحقيقة السافرة لم تحرك إلا القليل من همم شعراء الترك إلى النظم بالعربية ، وفى نظرنا أن عمدة السبب فى ذلك هو انصرافهم إلى شعر الفرس انصرافا تاما حرفهم عن شعر العرب وهو فى لغة أصعب عليهم تعلمها من لغة الفرس فما نظم فى العربية إلا من اكتملت أداته وغزرت معرفته وهم قلال .

---

(١) شعرى جوقدر شعراى عربلك نرده ما يدسى شام وحلبده
ديمه ابيانه ناو دون ور أنلك اوزانلرى ديكركون در
نيجه معنا لري وار رقص آور مشعل أساد وكر اسماعه شرر
وارا سچنده نيجه أشعار كثار كه قومز أنينة دلده عبار

وأول ما نعرف من شعراء الترك الذين نظموا شعرا عربيا القاضى برهان الدين المتوفى عام ١٣٩٨ م .

وله كذلك شعرفى الفارسية، وذلك ما يرفعه إلى منزلة الشاعر التركى بالمفهوم الحق عند قدماء الترك لأن الشاعر فى عرفهم كان من أحاط علما بأصول العلوم وفروعها وعرف لغات الأدب الإسلامى الثلاث وهى العربية والفارسية والتركية . أما أن يقتدر على النظم فى لغة القرآن فهذا فضل كبير له وغاية لا يبلغها إلا نواحى الخواص أهل العلم والأدب .

وفى الشطر الأول من القرن الخامس عشر الميلادى نظم شاعر تركى يسمى يازنجى أوغلى محمد منظومة بالعربية عنوانها (مغارب الزمان)، وقد استقى مادتها من تفاسير القرآن والحديث وكتب المتصوفة وأفواه العلماء والحكماء حتى قيل إنها احتوت اثنى عشر علما. ولنا أن ندرك من نظمه لها بالعربية أن العربية كانت عند الترك آنئذ لغة العلم بخاصة والشاعر إنما نظم فى أفانين العلم . وترجمها إلى التركية نثرا أخ للشاعر اسمه أحمد وسماها أنوار العاشقين كما يتيسر فهمها والانتفاع بها على النطاق الأوسع .

وتنسب إلى السلطان سليم الأول أبيات من الشعر العربى وهى معدودات لا ترقى به إلى مرتبة الناظمين بالعربية من شعراء الترك . وإن كان له ديوان من الشعر الفارسى ينطوى على الجيد الرائق .

ويذكر بعده فضولى البغادى أمير الشعر التركى القديم الذى يحدثنا من شعره العربى فيقول فى مقدمة ديوانه التركى أنه نظم الأراجيز العربية[1] كما يذكر فى مقدمة ديوانه الفارسى أنه أطرب فصحاء العرب بشعره العربى[2] .

وله ديوان من الشعر العربى ، ويقول بعضهم إن ديوانه العربى يتألف من ثلاثين ألف بيت من الشعر[3] ومنذ خمسة عشر عاما أو ما يقرب ، أتيح لى الاطلاع على كتاب بعنوان الاعتقاد والقصائد العربية لفضولى الذى نشره حميد آراسلى الأستاذ بجامعة باكو الروسية . وبذلك أصبح فى الإمكان النظر فى شعره العربى فى مجموعة إضافة إلى ما تفرق منه فى ديوانه التركية بيتا أو بيتين .

من مثل قوله فيما يعرف فى الشعر التركى بالمنعت وهو مدح النبى صلى الله عليه وسلم وذكر صفاته :

أثنى على خير الأنام محمد
كشف الدجى بضياء بدر جماله

بثنائه رفعت مدارج قدرنا
خصت تحيتنا عليه وآله

---

(١) فضولى : كليات فضولى . ص ٩ (استانبول ١٣١٥)
(٢) فضولى ديوان فضولى . (مخطوطة بمكتبة جامعة استانبول رقم ٨٣٣ فارسى)
(٣) برسومه لى ظاهرة عثمانلى مؤلفا ص ١٣٦٠ يكنجى جلد (استانبول ١٣٣٨)

وهذا الشعر ذكرنا بشعر تلك المنظومات التى تعرف الواحدة منها بالمولد وهى لشعراء مغمورين ومنها التعبير عن شعور المؤمنين نحو خير الأنبياء والمرسلين .

ويقول فضولى فى فن من فنون الشعر للفرس والترك الف به ، فما يكاد ديوان من دواوينهم يخلو منه ، وهم يطرقون هذا الفن فى الصفحات الأولى على أنه تمهيد وديباجة :

يامن بسط الأرض وأجرى الأفلاك
إدراك كماله كمال الإدراك
فى الأرض والسماء لارب سواك
ما نعبد ياواحد إلا إياك

وهذا النمط من الشعر هو المعروف فى الفارسية بالدوبيت بمعنى البيتين وللفرس ولوع به وإيثار له على جميع أنماط الشعر ، وذلك لأنهم يعدونهم النمط الفارسى الخاص بهم ، وما عداه إنما هو مستعار من العرب ، وأخذه الترك عنهم ونظموا فيه للتعبير عن أغراض بعينها وهى التى يراد فيها الإبانة عن دقات المعانى ، وعرض فكرة بعينها فى إطار يحدها ، فالشاعر فى بيتين اثنين يجد نفسه ضرورة تحديد المعنى وتوضيحه بحيث لا يخرج من أشطر أربعة .

ومن قول فضولى :

شربت رحيقا من إناء محبة
ولاعدت أدرى ما الإناء ومن أنا
هويت حبيبا قد سما الغصن قامة
ووجها يفوق البدر فى أفق السما
مفصل إجمال الكمال جماله
منزه حسن عن سوية ماسوى
هوى حيه المحراب شبه حظيرة
لجمع المصلى والإجابة للدعا
سعيت بطول العمر حول حريمه
فما زاد من سعى سوى ثمر الجفا

فمثل هذا الشعر لايثبت على النقد مافيه من ضعف وركة ، والعجمة تتجلى فى ألفاظ تنبو عن مواضعها ، وغيب القافية لايشهد للشاعر إلا بقلة البضاعة ، ويدل على أنه لايصدر فى قول الشعر العربى عما ينبغى لشاعر العرب أن يصدر عنه .

أما إن كان الحكم على شعر فضولى العربى يقتضينا الهوينى لأن النزر اليسير منه بين يدينا فإن القليل دليل على الكثير — كما أن الشاعر عاش فى عصر تردى فيه الشعر العربى خصوصا فى الحضيض والشعر فى الدرك الأسفل مما تعرف شاعرا عربيا فى زمانه وبيئته قال خيرا مما قال . وليشفع له أنه نظم فى الفارسية شعرا يفضل شعر الفرس من المجيدين ، إلى جانب ما نظم فى لغته من بدائع كان له بها إمارة الشعر التركي القديم .

وللكلام أن يدور بعد فضولى على الشاعر التركي سنبلزاده وهبى المتوفى ١٨٠٨ —

كفضولي وإن كان في نظرنا مبرزا عليه لأنه كان أطول نفسا وأكثر تصرفا في فنون الشعر وأحسن عبارة .

ومن مستطرف مايروى أنه لما ثقلت عليه الصلاة عاده بعض الشعراء ومنهم الشاعر سروري الذي استفاضت له الشهرة بنظم التواريخ ، ورغب إليه وهبي أن ينظم شعرا يؤرخ فيه وفاته بحساب الحروف ، فقال سروري ماترجمته (اللهم احشر وهبي مع امرئ القيس) [1]

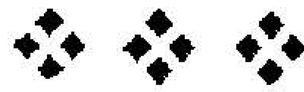
وندرك من مثل هذا القول أن سروري يلمح إلى أن وهبي له الشعر الحسن المعجب في لغة العرب . ووهبي ظاهر التأثر بالشعر العربي وصوره البيانية بقدر تأثره بشعراء العرب ، وذلك مايفرق بينه وبين شعراء الترك الذين لم يزيدوا على إيراد مايؤدى في الشعر التركي من معان ويعرض من صور في لغة عربية تسوغ في الذوق تارة ولاتسوغ تارات ، وهذا مثال من شعر وهبي :

سلمى على لاحالها والرحل محمول
والركب مرتحل . والقلب متبول
ترنو إلى بطرف مدنف غنج
وردنها من سجوم الدمع مبلول
دخلت منزلها ليلا على وجل
من أهلها وقناع الليل مسدول
مالت إلى وقالت وهي ضاحكة :
ياطارق الليل جن أنت أم غول
فقلت : إني صب هائم وجل
قد اجتزأت ومنك العذر مقبول
فنبهتني وقالت وهي باكية
قم واهربن فسيف الصبح مسلول

وليس يخاف أن وهبي متأثر ولابد في مثل هذا المثال المجمل من شعره بأكثر من شاعر عربي جاهلي وإسلامي .

ولانبلغ بكلامنا منتهاه دون أن نقول إن شعراء الترك الذين نظموا بالعربية كان لهم فارسي تحتويه دواوين أو ديوان أو قسم من ديوان ، مما يجعلهم أصحاب ألسن ثلاثة ، كما نحكم في عموم وشمول بأن ظاهرة تعدد الألسنة في أدب الفرس والترك من قواطع الأدلة على أن التراث الأدبي الإسلامي في عدة لغات متكاملات هي لشعوب تساندت وتعاضدت بفضل من دين الله الذي جمعها على وحدة في عقيدتها التي تشكلت منها وحدتها في روحانيتها .

حسين مجيب المصري
الخبير بالمجمع



(1) د . حسين مجيب المصري : في الأدب العربي والتركي ص ٢٢ (القاهرة ١٩٦٢) .

دراسة وتحقيق لديوان أشعار
الأمير أبي العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله
الخليفة العباسي

للدكتور محمد بديع شريف

ولد ابن المعتز فى عهد جده المتوكل ، فى عهد زاهر من أجلّ عهود الخلافة العباسية وترعرع فى ظلال العيش الرغيد والعزة ، وظلت هذه النبتة الهاشمية النضرة تنمو فى رعاية الأبوين والجد حتى وقعت الكارثة التى كانت الأولى من نوعها حين تصلف خدام القصر فأتمروا بالمتوكل واغتالوه فتخضخضت قوة الدولة ، وبدأ الضباب يلف تلك النضارة البهيجة فى قصور الخلافة وأسرعت الحوادث تتلاحق حتى اغتيل أبوه وهو طفل لم تؤهله سنه أن يشعر بالكوارث ، ونفيت جدته إلى مكة وهو فى حضنها . وبقيت حتى أعادها المعتمد الذى بدأت العزة فى عهده تخطو سراعا إلى قصور الخلافة وفى هذه العودة كان ابن المعتز فى سن تؤهله لاستقبال التعليم والتهذيب ، فاحتضنته بغداد وهى تموج بالعلوم والآداب ، وتزدهر فى ربوعها بلاغة القرآن والحديث وأدب الصحابة

ونثر عبد الحميد وابن المقفع ، وترسل الجاحظ والرواة يرددون شعر فحول الجاهلية ، والنابتين فى صدر الإسلام ، وعصر بنى أمية ، واللغة فى المحل الأرفع وسعة الأفق فتحت صدورها تستقبل نتاج حضارات الأمم فى الترجمة والاقتباس ، وبيوت الحكمة وخزانات الأدب تزخر بالكتب والرسائل ، وأندية الجدل والمراء مفتحة أبوابها للمفكرين فى معالجة الآراء الوافدة النابتة ، والمؤدبون يجوسون خلال القصور وأروقة المساجد يؤدبون أبناء الخلفاء والأمراء والوزراء والوجهاء وقواد الجند فانغمرت هذه النبتة الهاشمية فى غمرة هذه الحضارة بالمؤدبين والمعلمين والمترجمين وأساطين اللغة ، فكان من أشهر مؤدبيه أبو جعفر محمد بن عمران بن زياد الضبىّ صاحب القراءات والنحو ، وأبو العباس المبرد الذى انتهت إليه مدرسة البصرة ، ثم عاش بقية عمره فى بغداد ، وأبو العباس أحمد بن

يحيي ثعلب ، وقد انتهت إليه مدرسة الكوفة ومنهم أحمد بن سعيد الدمشقى راوية شعره الذى كان لا يفارقه ، وهيأت له جدته مكتبة عامرة بالعلوم والآداب ، صارت مثواه ومرجعه وأحب المجالس إليه فانكب على الكتب يأخذ فى التراث الأجنبي ما ترجم عنه فى علم وأدب وفلسفة ، وفى علوم العرب وآدابها وفى القرآن الكريم والحديث ، ومثلما تهيأ له هذا الجو العلمى كان ينعم بعيش رغيد فى ظلال المعتمد والمعتضد والمكتفى حيث بلغت الدولة الذروة فى القوة والعزة ومباهج الطبيعة التى تنبض برواء الحياة ، تنبسط فى جنباتها المروج والبساتين ، وتمخر السفن السابحات غدواً ورواحاً فى دجلة والفرات ، وتتنادح القصور الشامخة فى بغداد وسُرَّ مَنْ رأى مفروشة بالطنافس والأرائك المصفوفة والزرابى المبثوثة ، والموائد عليها أوانى الذهب والفضة مترعة بالخيرات بها تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وعيون المحصنات من بنات حواء الساحرة تبعث فى النفس بهجة الحياة وغناء الجوارى يرنّ فى أبهاء الأمراء والوجهاء ، والأسنة مشرعة والخيول مسرجة تعلك اللجم عليها الكماة للدفاع عن الثغور : وبعد هذا العيش الرغيد والطبيعة التى تنبض بالرواء ، أخذت البيئة السياسية والحربية ، تموجان بالاضطراب ، وطفقت المؤامرات المريبة تتوارى فى مكانس الريب تعد للخروج على السلطان واغتيالات الخلفاء :

والوسط الاجتماعى شرع يتمايل بين القوة والضعف ، فتظهر القوة أحياناً فى الذروة التى ترفع الدولة بالنصر المؤيد ، وتنزل بها حيناً آخر بالهزيمة المنكرة .

فى كل هذه البيئات التى مر ذكرها وأثبتُّها فى المقدمة توضيحاً وتفصيلا ازدهر هذا الغصن فى الدوحة العباسية بين جفاف ورواء وتربع فى مكانة رفيعة فى شعر نبيل ونثر هادىء مترسل مترع بالحكمة والمثل ، والافتنان فى فنون التعبير والتصرف الساحر فى البيان بخيال مجنح واسع وجميل ذلكم هو الشاعر الناثر الفقيه العالم الأمير والخليفة أبو العبّاس عبد الله بن محمد المعتز بالله ، الذى صار مَثار الإعجاب والفخر وتطلعت إليه عيون المحبين وشَنِئته عيون الحاقدين ، تخافه ، وتتمنى أن لا يجلس على كرسى الخلافة ، وينظر ابن المعتز إلى أولئكم وهؤلاء فيفضل دفتره وقلمه ، ويترك لشعره أن يسجل الحق والفخر والمجد لخلفاء الدولة العباسية وقادة الجند ، ويصب الويل على الخارجين ، ويسفه الآراء الوافدة ، ويبسط للشباب أرضاً واسعة لمسارح اللهو يجد اللاهون والمنشدون فيها متعة الحياة فى فنون عشرة تختلف قوة وضعفاً . وبعد الكارثة الغامضة التى ذهبت بحياته يترك ديوانه وشعره فى مهب رياح القدر ، وكان الصولى احتجن لنفسه رواية شعره كاملا فى نسخته تعاورتها أيدى النساخ صحة وخطأ ومسخاً وتحريفاً :

وشاءت الظروف أن أحط الرحال فى بون Bonn عاصمة ألمانيا الغربية اليوم فى أوائل الثلاثينات مبعوثاً من وزارة التربية لنيل الدكتوراه فى فرع من فروع التربية وأن أخص قسما من الزمن فى تعلم اللغة الألمانية ، وهيأت هذه الظروف لقاء مع الأستاذ «باول كاله» رئيس القسم الشرقى فى جامعة بون ورئيس جماعة المستشرقين فى ذلك العهد ، وفى هذا اللقاء اقترح على أن ألتحق بهذه الجامعة وأن أخص ديوان ابن المعتز بالتحقيق ، وأن أكتب فى أدبه بعد أن تبين له أننى متخرج فى دار العلوم بمصر. وأكد لى أن تحقيق هذا الديوان يعود على الثقافة العربية بثروة ثمينة وسيكون فى المراجع المهمة للعصر الذى عاش فيه ابن المعتز ولن يؤخرنى هذا عن الوصول إلى الهدف الذى أبغيه فى دراستى .

وكان الأستاذ باول كاله ، معتزاً بالديوان ، فلما وافقته أسرع دون تردد ، فأحضر نسخة مصورة من المخطوطة النادرة المحفوظة فى المكتبة السليمانية فى قسم (لاله لى) فى استنبول . ظهر أنها تحوى النصف الثانى من أشعار ديوان ابن المعتز ، وأنها صنعة أبى بكر محمد بن يحيى الصولى ، مكتوبة بخط جميل الرسم مضبوط بالشكل ، يرجع إلى سنة مائتين وخمس وسبعين من الهجرة فى مائتين وثلاث ورقات ، وفى نهاية الورقة الثانية بعد المائتين كتب ، وكمل شعر أبى العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله . وفيه زيادات من إملائه وهو الفخر والطلب والغزل والمديح والهجاء والشراب والمعاتبات والطرد والأوصاف والذم والملح ، والمراثى والتعازى ، والزهد ، والشيب والأدب والحكمة .

ولا يوجد فى هذه المخطوطة فى فنون الشعر غير الشراب ، والمعاتبات والطرد والأوصاف والمراثى والزهد مع زيادات فى حواشيها فى روايات ابن المرزبان التى رمز إليها بحرف (ن) ، وروايات ابن عون ورمز إليها بحرف (ع) ، وما كان علامته (ص) فهو فى زيادات الصولى نفسه ، ورمز بحرف (ح) إلى رواية حمزة ، وختمت الورقة الأخيرة بالبيتين التاليين :

ألا يا نفس إن ترْضَىْ بقوت
فأنت عزيزة أبــداً غنيهْ

دعى عنك المطامع والأمانى
فكم أمنية غلبت منيهْ !

وفى هذه الورقة ، عرض واسع لتعدد النسخ التى أخذت عن النسخة الأولى فى عهود متفاوتة كلها تستند إلى رواية الصولى والزيادات التى وجدت عليها ، وقد انتشرت هذه النسخ بين أيدى قراء وكتاب يختلفون فى عد التنازل العلمى والأدبى درجات ، فكثر التحريف والمسخ الذى استمر إلى يومنا هذا بالاتفاق غير المتعمد مع الناشرين والباحثين والنقدة الذين لم يكلفوا أنفسهم

أقل مايتطلبه الدرس والتحقيق ، أولئكم تدفعهم لقمة العيش وتحلو هم الشهرة على حساب ابن المعتز وغيره من فحول الشعراء والعلماء الذين تركوا لنا تراثاً ثميناً ..

وعلى اسم الله شرعت فى دراسة نسخة (لاله لى) ، ومقابلتها بنسختين فقيرتين مطبوعتين فى نهاية القرن التاسع عشر فى القاهرة وبيروت ، ومعها نسخة لأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم فى كتاب الأوراق للصولى أيضاً نشرها المستشرق هيوارث دن فى القاهرة مفتتحة بمقدمة للمرحوم الدكتور طه حسين ، وهى نسخة ممسوخة مغمورة بالأخطاء التى وقع فيها المؤلفون والناشرون ، صرفت معانى الشعر عن مقاصدها وشوهت محاسن مضامينه وعصفت بذلك الخيال الشعرى الجميل ، ومسخت ألفاظ اللغة العربية ، ذات الجرس والنغم وطمست معالم ذلكم النبل التعبيرى الذى يمتاز به أبو العباس . وعن أولئكم النساخ أخذت المطابع تنشر مايقع تحت يديها دون تمحيص ، وبلا فهم ، وقد تبين لى كما ذكرت أننى لم أقع على أجزاء الديوان كلها ، وأن هناك جهداً مضنياً ينتظرنى ، وبعد أن أفنيت زمناً ثميناً وكدت أستمر فى التحقيق وقع مالم يكن فى الحسبان إذ عزل الأستاذ (كاله) من منصبه وترك جامعة بون إلى جامعة أكسفورد ، فوضعت ابن المعتز على الرف وبقى مسكوتاً عنه واتجهت فى دراستى إلى موضوع آخر ، ولما وضعت الحرب أوزارها . وعدت إلى العراق شغلتنى عنه الوظائف الإدارية وكراسى التدريس ، وفى أواخر الأربعينات فجأتنى رسائل الأستاذ كاله .. يحثنى ويكتب فيها يقول : أرجو أنك قد حققت رغبة ظلت تراودنى منذ زمن بعيد ، وأنك أكملت ما أوصيتك به فى شأن ديوان ابن المعتز وشرعت فى طبعه ، وإن لم ، فإنى أرجو أن تسرع فى إنجازه فإن جماعة من علماء الاستشراق شرعت فى إخراجه ، وأنت أولى أن تتولاه بنفسك .

وفى أوائل الستينات زرته بجامعة أكسفورد بعد عشرين عاماً من فراقنا ، فرأيته قد أخذت منه السنون والهموم ومتاعب البحث والتحقيق مأخذها وتسلسل شعره الأبيض على عارضيه حتى مس شحمتى أذنيه . ومع ذلك لم يدع الفرصة تفوت ، فاستعان بى على قراءة كلمات فى مخطوطة شوه محاسنها اختلاف النقط ، وسر سروراً عظيما حين أكدت له أننى سوف أحقق رغبته فى إخراجه .

وفى سنة ألف وتسعمائة وسبعين ، تحررت من قيود الوظيفة بجميع أنواعها وعدت إلى خزانة مكتبتى ، فوقعت عينى على مسودات كانت تنتظرنى ومنها نسخة (لاله لى) التى كنت أتممت تحقيقها فى « بون » ورجعت إلى الفهارس وكتب الأدب وما كتب عن ابن المعتز إلى أيامنا هذه ، فوجدت لديوانه مخطوطات منتشرة فى مكتبات الشرق والغرب ، أكثرها موجود فى دار الكتب فى القاهرة ، ووقعت بيدى على مخطوطات

متعددة النسخ ، مختلفة التواريخ ، كلها ترجع إلى رواية الصولى ، رديئة النسخ ، كثيرة المنحول والتحريف ، واستعنت بمعهد المخطوطات فى جامعة الدول العربية فتكونت لدى مجموعة محترمة فى مقدمتها (لا له لى) ، ومخطوطة كوبنهاجن ومخطوطة مكتبة الملك الحسن فى المغرب ومخطوطة لندن والمجموعة التى وردت فى المجلد الرابع من سفينة ابن مبارك شاه ومخطوطة المدينة المنورة اختيار الصاحب ابن عباد ، وجميع ما وجدته من هذه المخطوطات منها مايرجع فى التاريخ إلى الربع الأخير فى القرن الثالث الهجرى ومنها مايعود إلى القرن الرابع والسادس والتاسع والعاشر ، وأحدثها مايعود إلى أواخر القرن الثالث عشر وتعتبر هذه النسخة الأخيرة أم الخطايا ، وقد يكون المطبوع الأول أخذ عنها ، فقد اعتاد الناشرون أن لايذكروا المصدر الذى أخذوا عنه .

كانت هذه المخطوطات فى صحتها وخطئها عوناً لى ، وكان فى مقدمتها نسخة (لاله لى) ونسخة كوبنهاجن ونسخة المدينة المنورة ، ونسخة السفينة . أما بقية النسخ ، فقد كانت رديئة ، أعانتنى فى ناحية واحدة هى القاعدة المشهورة « وبضدها تتميز الأشياء »

فى هذه المخطوطات عثرت على إحدى وعشرين قطعة فى الشراب لم تنشر ولم ترد فى مخطوط آخر ، وعلى سبع قصائد من المطولات خاصة منها ، القصيدة الرائعة بمدح المكتفى بثلاثة وستين بيتاً ، والأخرى بمدح الموفق بخمسة وأربعين بيتاً ، وفى مدح المعتضد أخرى باثنين وعشرين بيتاً ، وفى فن الغزل انفردت نسخة بتسع وستين قطعة وتنفرد نسخة السفينة التى ترجع إلى القرن التاسع الهجرى بمقطع فى القصائد الممتعة منسوبة إلى ابن المعتز من أجملها إمتاعاً القصيدة الرائية التى لم تنشر فى مطبوع ، ولم يأخذها مخطوط جاءت بثلاثة وثلاثين بيتاً .

وتختلف هذه النسخ أيضاً فى الوضوح والغموض ، وينفرد بعضها بصحة الكلمة الشعرية المناسبة للبيت على حين يقع مخطوط آخر فى خطأ فظيع يبعد البيت عن معناه الأصيل ، وقد ظهر فى هــذا التحقيق والمقـابلة بين المخطوطات ، والديوان المطبوع المتداول ، (وهو أحدثها أنه ممسوخ وفيه من الأخطاء ماتجاوز ألفاً وستمائة وخمسة وعشرين تعبيراً محرفاً أو منتحلا ، أو مزيفا ، نتيجة ضعف النساخ الذين مسخوا معانى الديوان ، وأثرا لعقده الناشرين الذين مشوا وراء المستشرقين والمحققين الذين لم يبذلوا فيه مايستحقه من الجهد ، وقد عرضت جملة من النماذج فى مقدمة الديوان ، إظهاراً لجهد مضن بذل فيه مايزيد على سبع سنوات من أجمل أيام الحياة فى ألمانيا والقاهرة ، ففى كل هذه السنين كنت أتجادل مع نساخ ديوانه ورواة أشعاره وأخباره فى مخطوطات قضمت رديئة الأرض فيها بعض كلمات الأبيات

وحروف الكلمات أو عفت من تقادم العهد وحوادث الأيام ، فأصحح ماوقع فيه النساخ من الخطأ وما تورط به النقدة والأدباء من جراء السهو والغفلة، فقد كانت النقطة فى اختلاف وضعها تغير الكلمة والحماة ، وكان تبديل شطر بآخر من بيت يليه ، أو حذفه يعصف بالبيت كله ، ناهيك عن انتحال مرتجل ، أو إقحام كلمات نابية ، فقد يخطر للناسخ المستهتر أن يضع اللفظة تندراً واستهزاء ، فيفوت ذلك على المحقق ، والناقد والأديب ، مثلما نجده عند الذين أخرجوا ديوانه ، الهزيل ، الأنسى والبستانى ، وشفيق جبرى ، فى تبديل الكلمات الأصيلة بأخرى هزيلة كلفظة العثير ، بالشعير ، والأثداء جمع ثدى النابض بالحياة بالأشلاء جمع شاو المقطوع من الجثة ، والنور للزهر بالثور ، أو كما جاء عند المستشرقين بوضع كلمة الذيخ مكان كلمة الزنج والرخال مكان الرجال والغاديات، مكان العاديات وشبر حبيبة ابن المعتز الذى يرمز بها فى مفتتح قصائد المدح والفخر والغزل وضع فى مكانها « شيمر » مع أن هذه اللفظة المحببة مثبتة فى جميع المخطوطات. وعدة مئات من طراز هذا التحريف ، فصرت أتصيد الكلمة ذات المعنى الموائم للقصيدة والوزن فى صحف المخطوطات، وأمهات كتب الأدب ، ومراجع الشواهد ، حتى أعثر على الصواب فى الكلمة، وبالاستقراء والمقابلة نجد الباحث أن أكرم البستانى فى تحقيقه ، ونعمان ميشيل فى شرحه ترسما خطوات الأنسى فى نشره ، ومحى الدين فى شرحه وجبرى فى تصديره ، زد على ذلك الخلط الذى وقع فيه البستانى مترسما خطى هيوارث دن المستشرق. ومن بعض الأخطاء التى وقع فيها البستانى وهى كثيرة هذه اللوحة الجميلة التى شوه بها أدب الشاعر وتصويره.

قال ابن المعتز فى طردياته ، وأوردها البستانى فى الديوان مشوهة : بخمسة أبيات فقط كما يلى :

تخالهم إسوار جيش أبلخا
أوْ معهم جود يزين وسخا
تمت (بهم ، حال لهم مثل الرخا)
أخاف طير أرضه ودوخا
يعجلها فى مائها أن ترسخا
حكماً فيها منسراً مضمخا
ومخلباً بدمهـا ملطخاً
عوائداً من خطفه وصرّخا
كأنه لما قطعنا فرسخا
مصحف ورّاق أدق نسخا

ولم يكلف نفسه بتوضيح هذه القطعة إلا بشرح كلمتين فى الحاشية وهما ، قال : (الأبلخ العظيم والرخا طائر كبير) .

وجاء تحريف القطعة بأكملها فوضعت كلمة تخالهم مكان تخاله » وكلمتى « أوْمعهم » مكان كلمة أوسعهم ، وكلمة « يزين » مكان كلمة « يدين » (مثنى يد) وفهمت

بذلك كلمة « وسخا » من الوسخ بدلا من السخاء » وفى البيت الثانى وضعت كلمة « بهم » مكان كلمة « به » وشرحت كلمة « الرخاء » التى يراد بها وفرة الخير والتهنئة الغنيش بظائر عظيم . وفى البيت الثالث وضع ميشيل نعمان « عوايذاً من خلقه » بدلا من « عوايذاً من خطفه » ، وحذف من المطبوعات كلها الشطر الثانى من البيت الخامس والشطر الأول من البيت السادس وجمع بين الشطرين الأول والثانى على التتالى فى بيت واحد ، وبهذا التحريف والحذف والتلفيق اختلت خطوط الصورة التى رسمها ابن المعتز للبازى فى رحلة من رحلات الصيد .

فهو فى نظره وتصويره : كمثل قائد عظيم من الأساورة واسع الجود سخى اليدين ، يبذل لجيشه من الغنائم ما تقع يده عليه ، ذاك يبطش بالأعداء ويقدم لأبطاله الغنائم بكرم وعطاء ، وهذا يبطش بالطير ، يذهلها أن تقع على مياهها ، ويتركها لواجىء صارخات من الخوف ويعد منها منتصراً مضمخ المنسر منضح المخلب ، ويقدم للجماعة صيداً شهياً بكرم وسخاء ، ويكمل ابن المعتز هذه الملحمة الطردية بوصف للباز بعد ما يلملم الليل أذياله ويكشف الصبح عن جبينه الوضاح ، فإذا البازى مرقش كمثل مصحف أدق الخطاط الماهر نسخه وتنقيطه . وتحرير القطعة الشعرية كما يلى

تخاله إسوار جيش أناخا
أوسعهم جود يدين وسخا
تمت به حال لهم فى الرخا
أخاف طير أرضه ودوخا
يعجلها من مائها أن ترسخا
حكم فيها منسراً مضمخا
ومخلباً بدمها منضخا
عوايذاً من خطفه وصرخا
كأنه لما قطعنا فرسخا
والصبح فى مشرقه قد شمخا
والليل فى مغربه قد رسخا ،
مصحف وراق أدق نسخا ،

ومن هذه النماذج ما أخرجه الناشرون مشاكلا بعضهم برقاب بعض فى الأخطاء

فمن الملح والأوصاف الأبيات الثلاثة التى وردت بهذه الصيغة المضللة للقارئ والمشوهة لشعر الشاعر قولهم :

رعي شهرين بالدير
قبـابـاً كالطـواميز
يقلبن إلى الذعر
عيونـا كالقوارير ،
وآذان سميعـات
كأصناف الكوارير ،

وشرحها البستانى بما يلى :

القوارير الأوانى الزجاجية ، الكوارير خلايا النحل ورواها بهذا التحريف مع تجنب بيتين وردا فى نسخة الصاحب بن عباد

ووضع كلمة قباباً مكان قباً ، وآذان بالرفع بدلا من آذاناً بالنصب وأصناف مكان أنصاف والكوارير مكان الكوافير جمع كافور وهو بيت المطاع إذا انشق نصفين أشبه كل نصف منه أذن الحمار في انتصابها ، وتحرير القطعة بأبياتها الخمسة كما أوردتها نسخة لاله لى ونسخة المدينة المنورة هى :

زعن شهرين بالديرين
قبّاً كالطوامير

يقابلن من الذعر
عيوناً كالقوارير

وآذاناً سميعات
كأنصاف الكوافير

وقدّ الأرض منها أسؤق صمُّ الحوافير

كأن الأرض تلقاها
بأذناب الزنابير

وابن المعتز فى هذه القطعة يرسم صورة رائعة لجماعة من الأُتن والحمير الوحشية يغمرها النشاط فى صَحْوة الربيع ، فهن ضامرات البطون كمثل الكتب المطوية لهن أعين تلتمع التماع قوارير الزجاج صفاء ولهن آذان مرهفات السمع منتصبات انتصاب كوافير الطلع عندما تنشق عنه ، جهزتهن الطبيعة بأرجل لها حوافر صماء قوية يضربن بها الأرض رفعا وخفضا ، كأنما تتلقاهن أذناب الزنابير . وابن المعتز مولع بتصوير المشاهد الطبيعية ، وله فى وصف حمار الوحش مطولة رويت بستة وخمسين بيتاً دونت فى المخطوطات ولم تنشر منها غير ثلاثة أبيات جاءت فى ديوان المعانى .

ولم يكن التحريف مقصورا على اختلاف النقطة والحرف فى الكلمة ، بل تعدى ذلك إلى انتحال اللفظة نفسها فى البيت ، ومن ذلك ما جاء فى هذا البيت ضمن قصيدة عصماء يمدح بها الخليفة المعتضد ، وهو :

بَرَّح الحشا بَرْخاً ظلاماً سرمداً
ما فيه مَسْرًى للخيالِ الطارق

هكذا عُرِض البيت فى نسخة لندن والمغرب ، ودار الكتب ، وطاعت ، عرضا غامضاً لم يفهم المراد منه وقد نقلته أول مرة مشيرا إلى غموضه ، وتركته حيث هو حتى وقعت بيدى نسخة المدينة المنورة فإذا به ثانى بيت فى مستهل القصيدة التى مطلعها :

قَرُبَ المحب من الحبيب الوامق
من بعدما فتك الفراق بعاشق

يرعى الكواكب فى ظلام سرمد
ما فية مسرى للخيال الطارق

هذه الأنواع من التحريف أوقعت نقدة الأدب والمؤلفين فى ورطات تركت آثارا سيئة فى أدب ابن المعتز ، وقد عرضت الكثير منها فى مقدمة الديوان وسجلتها كلها فى أماكنها من الحواشى وبعد هذا

التحقيق المضني والدراسة الطويلة وجدتني أمام ثمرة صالحة من جملة أشعار صافية صحيحة، وأمام شاعر من أولئكم الشعراء الذى طبعت مواهب الفن على جباههم قُبُلَ الرضا .

إنه شاعر خرج من البيضة تحف به المواهب ، فتعلم وتدرب ، وجالس العلماء والأدباء وأهل الفصاحة ، وحظى بالعزة والجاه ، ونعيم العيش وبؤسه بين يدى الخلفاء والأمراء ونُشِّئ على دراسة القرآن والحديث . ولغة العرب وآدابها ، فصارت اللغة أداته ، ومع أن التمهر فيها صعب فقد جاءته طيِّعة، تركض الألفاظ إلى المعانى الموهوبة ركضاً فتظهر صور شعرية لها نغم جميل ، إنه كان يختار الألفاظ لا لأجل أن يعبر عن إحساس ، بل ليخلق الإحساس .

لقد وصف الشاعر الفرنسي (درتزار) الربيع فى عصور خلت ، ومع أن الناس لم يسمعوه ولم يعلموا عن نشيد الربيع شيئاً ، فقد كانوا يسيرون فى أرض الشعر التى أنشأها حين كان جالسا يغمره اليأس يتصيد الكلمات فى لغته الصعبة ليخلق الإحساس للناس ، وهكذا كان ابن المعتز ، ولم يكن فى أولئكم الشعراء المزلين الحمقى الذين يتنادمون على موائد الوجهاء ، ، يقدمون بين أيديهم تاريخاً مفضوحاً ؛ ولا من أولئكم الماجنين المتيمين الذين ينشدون قوافيهم بين يدى المتبرجات ، إنه شاعر مبدع خصب الخيال والشاعر يضع فى خياله ما يقع لبنى آدم فى أفعالهم ، حتى المجرمين لهم مكان فى هذا الخيال .أنشد بن المعتز شعره فى عشرة فنون جرياً على عادة شعراء عهده ، واستجابة لرغبات الناس الذين يريدون أن يتنقلوا فى دولة الشعر ، من أرض إلى أرض .

قال فى الفخر ، وكان فخره ببنى العباس وحدهم ، سجل لهم حق الخلافة بقصائد رائعة يستهلها أحيانا بوصف مشاهد الطبيعة فى محاسنها وهدوئها وعنفها ، فى سهولها ومفازاتها فى حزونها ومتونهـــا ؛ منح الجماد نبضات الحياة ، وجرد الكائن الحى من شعوره فإذا هو جماد لا تنبض فى جوانحه نابضــة فالسحب تَسومها العواصف مكتحلة العيون تفرغ دموعها ، وتعود مرهاء مُسِح الكحل فى جفونها، والبرق يتقلب فى طيات السحب مثلما يتقلب الأفعوان فوق كثبان الرمال :

كأنها ورعدها مسترجع
لجَّ به على بكاه ذو صخب

جاءت بجفن أكحل وانصرفت
مرهاء من إسبال دمع منسكب

إذا تعرّى البرق فيها خِلْتَه
بطن شجاع فى كثيب يضطرب

وفى فن الغزل كان لابن المعتز معين يتدفق ، فقد كان سوق الجوارى مشروعا ومحافل الغناء لها المحل الأرفع فى قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء ، والطبيعة ريا بسواد العراق برافديه دجلة والفرات

والغناء يستعذب من أفواه الحسناوات أكثر مما يسمع من حناجر الرجال ، ومكانة القينة المغنية ترتفع بمقدار مالها من الثقافة والجمال وعذوبة الصوت ، والمغنون والمغنيات يترنمون بشعر فحول الشعراء ولم يشأ ابن المعتز الذي ملك ناصية البيان ، وأذن العود الموسيقى أن يتخلف عن أقرانه من المبدعين ، فسلك فى غزله أسلوب القصائد القصار ، ونهج فيه منهجين : أحدهما ما اتبعه الأقدمون فى ديباجتى الفخر والمديح يقوله الشاعر ليتخذ منه مدخلا إلى غرضه ، وفى هذا النوع تلمح الإحساس بالجمال يكاد يكون عُذْرِيًّا ، وثانى المنهجين ، ما يقوله الشاعر لنفسه ، وقد سار شعر ابن المعتز الغزلى فى مفازات القرون تتناهبه أيدى الناسخين حذفاً ومسخاً وسرقة وانتحالا ، وأصاب جمعه تعدد الروايات وفلتت منه كثرة ، خاصة فى المقطوعات القصيرة ، فأصبح للمرء عذر أن يخامره الشك فى صحة كثير منها ، واحتفظت مخطوطة كوبنهاجن التى أحيل فى روايتها إلى رواية حمزة لكثرة التشابه بينها وما ورد فى حاشيته لا له لى مرسوما بحرف (ح) بثمان وخمسين قطعة ، بما يربو على مائتين وأربعة وثلاثين بيتاً واحتفظت السفينة لغزله بقصيدة مطولة فى ثلاثة وثلاثين بيتاً ومطلعها :

حييت من ربع وسقيت المطر
يا طالما أصبحت محمود الأثر
وفى مغانيك الغوانى رتعاً
ربابب ما بين دل وخفر

قال ابن المعتز شعر الغزل جرياً على شيوع هذه الصنعة ورواجها واتصالها بالحياة شأن كل نفس ترفعها غريزة تحس بالبقاء والجمال ، وهو كغيره من الشعراء يريد أن يجد لشعره مكانة ينتشر عليها الجمال ويتمتع بها بنو آدم ويتسابقون إلى البقاء تسابق هابيل وقابيل فقال شعره للفتيات يتغنين بالفتيان وقاله للفتيان يتغنون بالفتيات وفى غزله الصحيح ظرف ونبل وحسن تعليل ومن المقطوعات الجميلة التى وردت فى مخطوطه كوبنهاجن قوله :

قل للمليحة فى الخمار الأبيض
وليمَن لَوَتْ دَيْنَ الغريم المقتضى
أعرضت ظالمة وأمرضت امرأ
لو صح منك له الهوى لم يمرض
يامن بها حسرات نفسي جمة
حتى الممات أظنها لا تنقضى
لا تقبلى فيمن أقادك رقة
فلكنه قول العذول المبغض

وممدوح ابن المعتز ، هو ذلك الرجل الذى يسند أركان الدولة العباسية ويدفع عن كيانها ، خليفة كان الممدوح ، أو أميراً أو وزيرا ، أو قائد جيش ، أو عالما يضيف إلى صرح الحضارة الإسلامية العربية لبنة تقويه وتسنده ، وفى

مدحه بسلك السبيل فى سبر أغوار النفس فيبرز محاسنها فى الشجاعة والكرم والحلم والغضب والحـزم وتدبير الرأى وإذا رغب فى صورة تتجلى فيها المروءة أو النصر المؤثل فى موقعة من المواقع الحربية ، مهد لها بديباجة رائعة تبدأ أحيانا بغزل ينسكب فيه الدمع ، وتذوب الكبد عند الهجران وتتفتح الأسارير وتبتهج النفس حال الوصال ، أو يفتتحها فى وصف مشاهد الطبيعة فى أجوائها بسحبها وبروقها ، ورعودها ، والبيد بمفاوزها ووعورتها وتعسف السير بها على ظهور النوق العيراب والخيول المطهمة ،ويتلطف فى مدخله هذا حتى يصل إلى ممدوحه .

وتتسم قصائد ابن المعتز فى مدح الخليفة المعتضد بالتكاثر والتفاخر ، وقوة الخيال ، وجزالة الأسـلوب الذى يأسر الأنفس لإبرازها خصائص اكتمال الرجولة ومنها (العينية) عندما أخـذ المعتضد صالح ابن مدرك الخارج على سلطان الدولة ، وقد بدأها بغزل رقيق ثم دخل إلى المدح فى مدخل بهيج جاء فيه :

ألا ترى بهجة الأيام قد رجعت
والبأس فى ملك والعدل قد جمعا

واعتضد الدينُ والدنيا بمعتضد
بالله ، فى الله ما أعطى وما منعا

يا خاضبت السيف مذ شُدّت مآزره
وابن الحروب التى من ثديها رضعا

كم من عدو أبحت السيف مهجته
والسيف أحسم للداء الذى امتنعا

وعرض ابن المعتز الشراب عرضاً جميلا ، من يقرؤه يظن أن هذا العلامة المعتكف على دفتره وقلمه ، يؤلف ويكتب ، ويقول الشعر بأسلوب رقيق ، ولفظ بليغ وجزل ، ووصف دقيق وخيال مجنح لاهم له إلا هذه الحياة الرخوة ، وهذا وهم ، فإن ابن المعتز العالم ، وصف الشراب لأهل الشراب ، ليبسط لهم أرضاً يمشى عليها أولئك المدمنون الذين يترددون فى حياتهم على الحانات والخمارات ويجتمعون فى الشتاء حول الكانون ، وفى الربيع بين الزهور فى الرياض تجرى خلالها الجداول ، ويطوف عليهم السقاة بكئوس دافقات ، يصب فيها الشراب من الزّقاق ، كأنه فى انحداره منها سيوف مقدودة من ذهب تدار بأقداح رءوسها فضة وأجسامها من العسجد ، والخمرة فى شعره راح وراحة للقلوب ، تجلب السرور وتنفى الهموم والكروب لطيفة كتخلّق الأماجد الكرام ، والكئوس فى خياله حين تدار بأيدى السقاة كالثريا ، تبدو وتغرب ، فكأن الشرق ساق وكأن الغرب يشرب وهى إذا امتزجت بالماء نبت الدرّ فى أرض من الذهب ، وإذا لحظتها العيون رأت عجباً كيف يضىء نورُ الماء نارَ العنب ، وبعد هذا الوصف الذى كان يعارض فيه أبانواس، يعطف ابن المعتز فى أرجوزته المشهورة « فى ذم الصبوح » فيرسم صورة

مزرية للسكارى ، فهم عنده من البؤساء الذين إذا أصبح عليهم الصباح ولاحت الشمس فى الأفق وقعت على رءوسهم الدامغة بنارها وحرها ، فيسخن الشراب ، ويختلف المزاج ، ويكثر الضجاج فتغيم أقداحهم ، ويأخذون بالحك والتفرك ، وتفوح رائحة الآباط ، ويكره بعضهم بعضا ، وتتراخى أعصابهم ، فيمشى بعضهم بلا رجلين ، ويأخذ الآخر الكأس بلا يدين ويطوف الصداع بهم فتتدلى على الصدور الرءوس ويشتد الضجر بالنفوس ويرسم لهذا المظهر صورة بشعة فى بيت لطيف وخيال مرتجل ويقول :

وقد شربوا حتى كأن رقابهم
من اللين لم تخلق لهن عظام

ويختم أرجوزته التى أشرنا إليها بقوله:

هذا كذى وما تركت أكثر
فجربوا ما قلته وفكروا

وفى الوصف يمتاز ابن المعتز بالوضوح والجمال ، ويرجع ذلك إلى سعة خياله واطلاعه وثقافته ، وتمهره فى اللغة ، ودقة ملاحظته ، وحدة ذكائه ، إنه يختلف عن أولئكم الشعراء الذين إذا عرضوا شيئاً ، عرضوه عفواً ، أما هو فإنه يصف ليصور ، مثله كمثل الرسام ، هذا بخياله وذكائه يبرز صوره بالأسارير والخطوط والألوان ، وهذا بمواهبه وخياله وتمهره باللغة يبرزها بحروفه ونقطه وأسلوبه ، وقد لفتت هذه الظاهرة أفكار الأدباء فدونوا عنه تلك الأسطورة المقارنة بين وصفه ووصف ابن الرومى . وصف البيد والمهامه، وصف الظبي والظليم وحمار الوحش والبازى ، وكلاب الصيد والخيل والجمال ووصف الأنهار والأودية والمفاوز والمروج والجنائن والقصور ووصف الأطلال والمنازل الخالية ببيان رائع . ولجمال شعره فى هذا الفن أخذ عنه علماء البيان والبديع شواهدهم للدلالة على نبل التعبير وإجادة التمثيل. وحلق أبو العباس فى الوصف فى فن الطرديات بجناحين قويين وخيال رفيع ، فقد كان العرب قديماً يعانونه فى عامة عصورهم ، لأنه ضرب من ضروب الرزق ، ومتعة من متع النفس ولون من ألوان الحرب والسلم .

ولما استبحرت حضارتهم فى العراق والشام ومصر أصبح من الطبيعى أن يدونوا أصول الصيد وكان علماء اللغة سبقوا ودونوا أسماء الطيور والجوارح ، وأصائل الخيل والنوق العراب، ووصفوها وصفاً دقيقاً ، تناول أصولها ، وأعضاءها وحركاتها . وهو فن البيزرة الذى يقابل علم البيطرة، وسموه أيضاً علم أصول الجوارح من حيث صحتها ومرضها ومعرفة العلامة الدالة على قوتها وضعفها ، والبيزرة كلمة فارسية مشتقة من (بيزار) وعربت بازيار ، أى صاحب الباز وتربيته . وفى أوائل المائة الثانية من الهجرة كان البازيار فى الدولة يدعى صاحب الصيد وكان غطريف بن قدامة ،

صاحب صيد هشام بن عبد الملك ، ولم يستعمل العرب كلمة البيّاز مثلما استعملوا: الصقّار والكلاّب. والفهّاد والفيّال والعقّاب لصاحب الصقر والكلب والفهد والفيل والعقاب ، وابن المعتز عالم شاعر وأمير صاحب سيف وقلم لم يفته هذا الضرب من المعرفة والمتعة الرياضية ، ولم يرض لشعره أن يتخلف عن فن من أمتع الفنون تجتمع فى ممارسته المروءة بضروبها من الشجاعة والكرم والحلم والحزم والسيادة والسياسة ، فشغف به ، وقال شعره فيه عن علم ورويه فمنح هذا الفن جمال اللغة وسمو الخيال ، ورسم للصيد وللطبيعة صوراً حية فى غدوه ورواحه وللكلاب والخيل والبزاة والصقور والفهود ، ونفذ إلى أسرار حياتها فكشف غرائزها المتوحشة المهذبة ، فهو فى غدوة من غدواته ، يخرج والصباح يودع الليل المدثر بقبائه الأسود المضرج ، والنجم لا يزال يتلألأ بهذا اللهب ، والجوزاء تخفق حزناً على الليل ، كأنها فى خفقانها لواء تهزه الرياح . يخرج ابن المعتز فى هذه الطبيعة الساحرة على جواده الأشقر السريع الممتلىء الملزوز المحجل القوى الذى تشتبك أضاعه بصلب متين الفقرات كما تشتبك أشجار الهورج بعموده يزينه حجل كما يزين الدملج معصم الحسناء التى تخطر بجلبابها الأحمر ، أما بازه فهو أحمر كأنه ملك متوج ، له مقلة صافية ثابتة ، يتحرك لحظها يمنة ويسرة لتفقد مواقع الصيد ، وله مخلب معقوف كمثل حاجب الحسناء المزجج أبرش الجناحين مثل طياسان الملك الموشى ، همه إدخال السرور على الله يادين ينقل إليهم الصيد فيتركهم بين ذابح وقادح زناد يؤجج ناره ، ومنضج ينضج اللحم ، ومعجل يستقبل الشواء ، ناهيك بوصفه كلاب الصيد ، فالسلوقية تندفع لاختطاف صيدها إذا شق الصباح جيب الليل ، وشمطت ذوائب الظلماء ، وهم النجم ليختفى وراء الأفق ، وابتسم الصبح ابتسام الشفة اللمياء ، وشرعت تصطاد بقر الوحش ، وظباء البيداء ، هذه السلوقية الداهية مطوية الأحشاء محكمة الأعضاء إذا بدأت الشد بانت كأنها مدة من قلم سوداء ، أو هدبة من طرف الرداء تحملها أجنحة الهواء ، وهكذا يمعن شاعرنا بالوصف فى فن البيزرة أو فن الطرد إمعاناً يمنحه المكانة الرفيعة فى هذا الفن :

ولا يقل ابن المعتز إبداعاً فى الفنون الأخرى بلاغة وسلاسة أسلوب ، ولغة عذبة ، ولذة فى المعانى ، وابتكاراً فى التصوير ، ففى رثائه تبكى الألفاظ مع أسف الفؤاد وانسكاب الدمع ، وهو فى عتابه مؤدب موجع العتاب ، وفى هجائه عف اللسان ، إذا جرد الهجاء المروى من المنحول المفترى . وهو حكيم يقول الحكمة والمثل كغيره من شعراء زمانه وهو القائل :

وإنما أنا دين للفناء على الد
نيا تنجــزه الآصال والبكر

ويقول :

الموت أولى بالفتى من أنْ يُرَى
طابعَ دهرٍ كلما شاء انقلبْ

لأىِّ غاياتى أجرى بعدما
رأيتُ أترابى وقد صاروا تُرَبْ

ويقول :

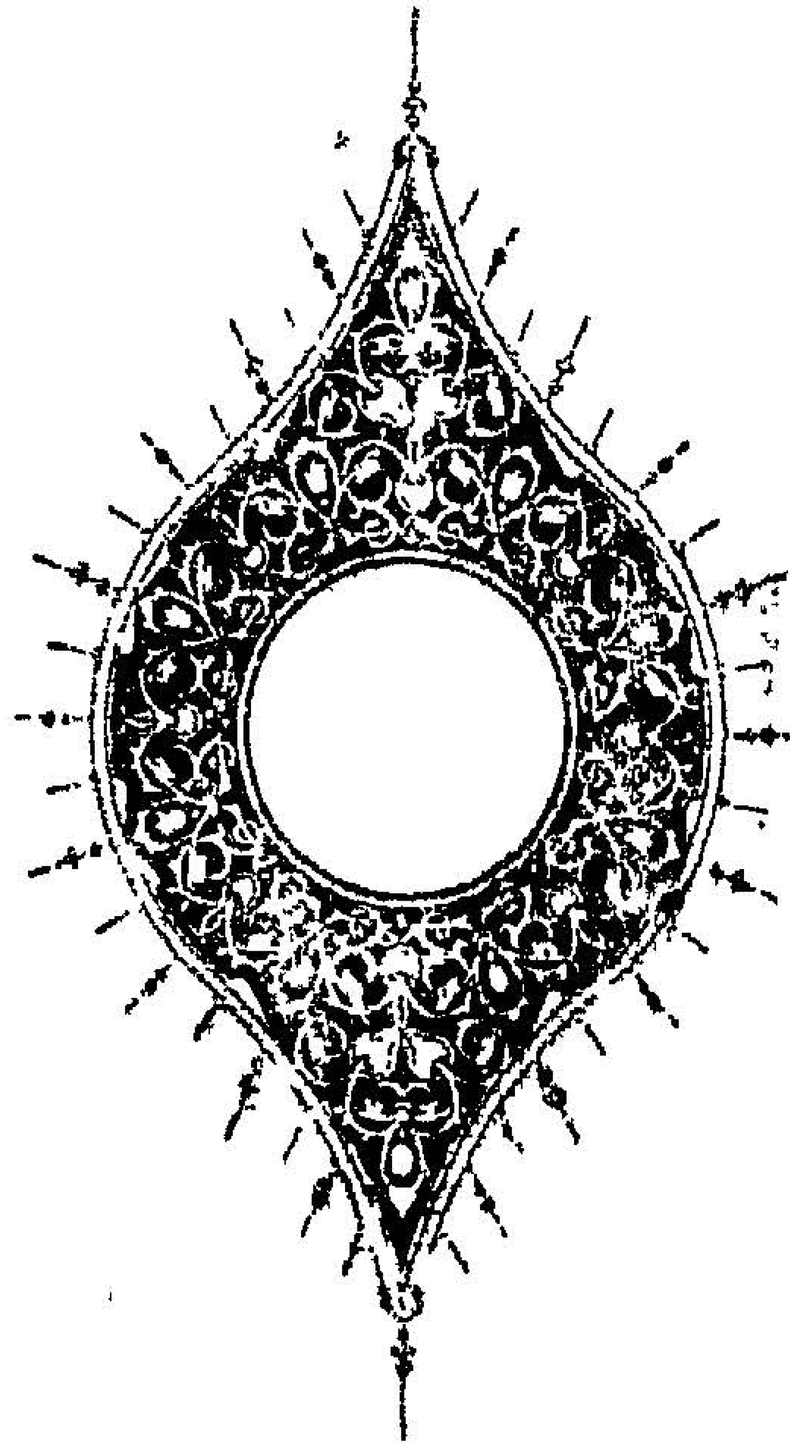
ما هـا بنى إلا الحسـو
دُ وتلك من خير المناقب

وإذا ملكتَ المجدَ لم
تَملك مودات الأقارب

والحسدُ والحسّادُ مقـ
رونان قد ذهبوا فذاهب

وبعد فهذا قُلٌّ من كُثُر ، ولست نادماً على زمن طويل قضيته فى تحقيق هذا الديوان ودراسته ، فقد بذلت فى هذه الدراسة ما أمكننى من الجهد فأنصفت ابن المعتز الذى ظلمته الأيام ، وأرجعت له هذه الحماة النظيفة من شعره صافية يلمع فيها فكر عربى عبقرى منح الحضارة العربية الإسلامية هذه الثروة الهائلة واضحة بلغة قريش لغة القرآن ، وأسلوبه المعجز وتعبيره الموجز الذى يحز المفصل، ويبسط آفاق الفكر ويمتع النفس .

محمد بديع شريف
الخبير بالمجمع



تراثنا اللغوي في حاجة إلى التهذيب

للدكتور رمضان عبد التواب

عني اللغويون والنحاة العرب — منذ أواخر القرن الأول الهجرى ، بدراسة الفصحى ، وهى تلك اللغة الأدبية المشتركة بين مختلف القبائل العربية ، تلك اللغة التى سجل بها الشعراء خواطرهم ، ومظاهر الحياة من حولهم ، كما استخدمها الخطباء فى محافلهم وأسواقهم الأدبية ، ثم توجها القرآن الكريم ، فأنزله الله تعالى بأعلى ما تصبو إليه هذه اللغة من مستوى . ومنذ ذلك الحين ، ارتبطت هذه اللغة بالقرآن الكريم ، واجتهد النحاة واللغويون فى دراستها ، وتحديد معالمها من نواحى الأصوات ، والصيغ والأبنية ، والدلالة ، وتركيب الجملة ، ووظيفة الكلمة فى داخل هذا التركيب .

وقد نشأت الدراسات اللغوية عند العرب بين كثير من الدراسات ، التى قامت لخدمة الدين الإسلامى ، ولغرض فهم القرآن الكريم ، المصدر الأول للتشريع الإسلامى ، ودستور المسلمين ، فقد أدت الحاجة إلى معرفة معانى الألفاظ الغريبة فى القرآن الكريم ، إلى دراسة الشعر العربى ، للاستشهاد به على تلك المعانى ، فالسبب فى الاشتغال بدراسة هذا الشعر فى العصور الإسلامية الأولى ، كان — فيما أعتقد — هو الحاجة إلى شرح الكلمات الصعبة من القرآن الكريم ، وتفسيرها بالشواهد الشعرية .

ومن المعروف أن القرآن الكريم ، أنزل بلغة فصحى ، تعلو عن مستوى العامة من العرب ، ولذلك أخذ الناس فى الصدر الأول من الإسلام ، يسألون كبار الصحابة عن تفسير آياته وغريب ألفاظه . وتحدثنا الروايات الإسلامية بأن الناس كانوا يسألون الصحابى المشهور « عبد الله بن عباس » رضى الله تعالى عنهما ، عن معنى ألفاظ معينة من القرآن الكريم ، فيفسرها للناس ، ويستشهد على تفسيرها بأبيات من الشعر العربى ، وقد جمعت هذه الأسئلة وإجاباتها فى كتاب مستقل ، باسم : « سؤالات نافع بن الأزرق » ونشرها الدكتور إبراهيم السامرائى ، ببغداد سنة ١٩٦٨ م ، كما ذكرها جلال الدين

السيوطي ، فى النوع السادس والثلاثين من كتابة : « الإتقان فى علوم القرآن »[1] .

ويمكننا لذلك أن نعد تفسير ابن عباس للقرآن الكريم ، على هذا النحو ، نواة للمعاجم العربية ، فقد بدأت الدراسة فى هذا الميدان من ميادين اللغة ، بالبحث عن معانى الألفاظ الغريبة فى القرآن الكريم ، ولذلك نجد التآليف الأولى فى المعاجم ، كانت تحمل اسم : « غريب القرآن » ، وأقدم مؤلف يحمل هذا الاسم ، هو لأبى سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكرى ، المتوفى سنة ١٤١ هـ[2] .

وخلص اللغويون العرب من ذلك ، شيئاً فشيئاً ، إلى دراسة ألفاظ الشعر ، واستخراج معانيها ، على غرار مافى كتاب : « المعانى الكبير » لابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ كما ساح الرعيل الأول من اللغويين ، فى الجزيرة العربية ، يجمعون اللغة من أفواه العرب ، فقد روى عن الكسائى المتوفى سنة ١٨٩ هـ ، أنه أنفد خمس عشرة قنينة حبر ، فى الكتابة عن العرب ، سوى ما حفظ[3] .

وتتردد فى مؤلفات هؤلاء اللغويين العرب القدامى أسماء كثير من البدو الفصحاء ، الذين تلقوا اللغة عنهم ، مثل : أبى تمام الأعرابى ، وأبى ثروان العكلى ، وأبى الجراح العقيلى ، وأبى جميل الكلابى ، وأبى حزام العكلى ، وأبى شنبل الأعرابى ، وأبى صاعد الكلابى ، وأبى الغمر العقيلى ، وأبى مرة الكلابى ، وأبى مهدى الباهلى ، وأبى مهدية الكلابى ، وغيرهم ، بل لقد تلقوا اللغة أحياناً عن الأعرابيات ، مثل : أم الحمارس البكرية ، وغنية الكلابية ، وقريبة الأسدية ، وغيرهن ، .

وانتشرت فى تلك الفترة المبكرة ، طريقة تأليف الرسائل اللغوية الصغيرة ، ذات الموضوع الواحد ، وممن بقى لنا شىء من تآليفهم على هذه الطريقة ، فى تلك الفترة : الأصمعى المتوفى سنة ٢١٦ هـ ، فقد نشر له « أوجست هفنر » كتابى : « خلق الإنسان » و « الإبل » ، فى ليزج سنة ١٩٠٥ م ، وكتاب : « الخيل » ، فى فينا سنة ١٨٩٥ م وكتاب « الشاء » فى فينا سنة ١٨٩٦ م ، كما نشر له « رودلف جاير » كتاب : « الوحوش » فى فينا سنة ١٨٨٧ م ، ونشر له « موللر » كتاب : « الفرق » فى فينا سنة ١٨٧٦ م ، و « لويس شيخو » كتاب : « النبات والشجر » فى بيروت سنة ١٩١٤ م .

ومثل الأصمعى ، معاصره : أبو زيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٤ هـ ، الذى بقى لنا من مؤلفاته اللغوية ، ذات الموضوع الواحد : كتاب « المطر » نشره « جوتهايل »

(١) وانظر بعضها فى الكامل للمبرد ٣/٢٢٢/٢٢٨ وإيضاح الوقف والابتداء لابن الأنبارى ٧٦/٩٨

(٢) انظر : معجم الأدباء ١/١٠٨

(٣) انظر : أنباه الرواة ٢/٢٥٨

فى نيويورك سنة ١٨٩٥ م ، ثم نشرة « لويس شيخو » فى بيروت سنة ١٩١٤ م ، وكتاب « الهمز » نشره « لويس شيخو » فى بيروت سنة ١٩١٠ م ، وكتاب « اللبأ واللبن » نشره « لويس شيخو » فى بيروت سنة ١٩١٤ م ، وكتاب « النوادر فى اللغة » نشره سعيد الخورى الشرتونى ، فى بيروت سنة ١٨٩٤ م

ويطول بنا القول ، لو تتبعنا ما وصل إلينا ، من مؤلفات لغوية ، ذات موضوع واحد ، لعلماء عاشوا فى هذه الفترة ، كابن الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، والفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، وابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ هـ ، وأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ وابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ :

وقد عاش إلى جانب هؤلاء كذلك علماء آخرون ، ألفوا معاجم شاملة للغة العربية ، غير متخصصة فى موضوع واحد ، كالخليل ابن أحمد الفراهيدى المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، الذى ألف معجم « العين » ، وقد طبع جزء صغير منه ، بتحقيق الدكتور عبد الله درويش فى بغداد سنة ١٩٦٧ م ، ثم صدر هذا الجزء مرة أخرى فى بغداد سنة ١٩٨٠ م بتحقيق الدكتور مهدى المخزومى والدكتور إبراهيم السامرائى : وبعد الخليل بزمن يسير جاء أبو عمرو الشيبانى المتوفى سنة ٢٠٦هـ ، وألف معجم « الجيم » . وقد نشر معجم الجيم بعناية مجمع اللغة العربية بمصر سنة ١٩٧٥ م :

وبعد هذه الفترة الأولى توقفت حركة جمع اللغة ، واقتصر جهد اللاحقين من اللغويين ، على تنظيم تلك المادة التى جمعها السابقون ، وتبويبها طبقاً لمناهج مختلفة ، فنشأت عندنا ثلاثة أنواع من المعاجم العربية ، أحدها : ينظم المادة على حسب المعانى والموضوعات بجمع تلك الرسائل اللغوية المفردة — التى تحدثنا عنها من قبل — فى مؤلف واحد ، يضم أبوابا تشبه عناوينها عناوين الرسائل القديمة ، ومن هذا النوع من المعاجم :

« الألفاظ الكتابية » لعبد الرحمن بن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٠ هـ ، وقد طبع عدة طبعات آخرها بتحقيق الدكتور البدراوى زهران سنة ١٩٨٠ م ، ومعجم « متخير الألفاظ » لابن فارس اللغوى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ نشره هلال ناجى فى بغداد سنة ١٩٧٠ م ، وكتاب « التلخيص فى معرفة أسماء الأشياء » لأبى هلال العسكرى المتوفى بعد سنة ٣٩٥ هـ ، نشره الدكتور عزة حسن بدمشق سنة ١٩٦٩ م ، و « مبادىء اللغة » للخطيب الإسكافى المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، نشر بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ، و « فقه اللغة » لأبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، طبع أكثر من مرة بالقاهرة وغيرها . وأهم كتب هذا النوع من المعاجم هو كتاب « المخصص فى اللغة » لابن سيده الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ، وقد طبع فى ١٧ سفراً بالقاهرة سنة ١٣١٦ هـ :

والنوع الثانى من المعاجم العربية ، يرتب المادة اللغوية ، على حسب مخارج الأصوات ، وطريقة التقاليب ، مثل تقاليب مادة الضاد والراء والباء مثلا ، على : ضرب — ضبر — ربض — رضب — بضر — برض ، وغير ذلك : وقد سار على هذه الطريقة كتاب « العين » للخليل بن أحمد الفراهيدى ، الذى كان من الرعيل الأول من اللغويين العرب ، وتابعه على ذلك كثيرون منهم : أبو منصور الأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ فى كتابه : « تهذيب اللغة » الذى نشرته الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، بتحقيق عبد السلام هارون وآخرين بالقاهرة سنة ١٩٦٤ — ١٩٦٧ م ، وكذلك ابن سيده الأندلسى ، صاحب كتاب « المخصص » السابق ، الذى ألف كتاباً آخر على طريقة كتاب « العين » وهو المحكم والمحيط الأعظم » وقد نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة سبعة أجزاء منه حتى الآن .

أما النوع الثالث من المعاجم ، فإنه يرتب المادة اللغوية ، على الترتيب الهجائى المعروف لنا ؛ إما بحسب الأصل الأول للكلمة ، كما فعل الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ فى كتابه « أساس البلاغة » ، والفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ ، فى كتابه : « المصباح المنير » ؛ وإما بحسب الأصل الأخير للكلمة ، مع مراعاة الأصل الأول أيضاً . وقد كان المشهور عند الدارسين ، أن مبتدع هذا الترتيب هو الجوهرى المتوفى حوالى سنة ٤٠٠ هـ بناء على ما ذكره هو فى مقدمة معجمه : « تاج اللغة وصحاح العربية » ، من قوله : « على ترتيب لم أسبق إليه ، وتهذيب لم أغلب عليه » ، غير أننا اكتشفنا حديثاً ، معجماً أقدم منه ، هو : « التقفية » لأبى بشر اليمان ابن أبى اليمان البندنيجى المتوفى ٢٨٤ هـ ، وقد حققه تلميذى الدكتور خليل العطية ، ونشره فى بغداد سنة ١٩٧٦ م ، وهو يسير على نظام القافية ، أو الأصل الأخير من الكلمة . وأغلب الظن أن اللغويين اختاروا هذا النوع من الترتيب ، حتى يساعدوا الشاعر على اختيار قافيته فى شعره .

وممن سار على هذا الترتيب كذلك : ابن منظور الإفريقى المصرى المتوفى سنة ٧١١ هـ ، فى معجمه المشهور : « لسان العرب » الذى طبع فى بولاق سنة ١٣٠٠ — ١٣٠٧ هـ فى عشرين جزءاً ، كما طبع فى بيروت سنة ١٩٥٥ م فى خمسة عشر مجلداً . وكذلك مجد الدين الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ ، فى معجمه الذى طبقت شهرته الآفاق ، وهو : « القاموس المحيط » . وقد شرحه « الزبيدى » المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ ، فى كتابه : « تاج العروس » .

هذا أحد جوانب تراثنا اللغوى فى العربية ، وهو جانب متن اللغة ، أو « المعجم » ولا ينكر أحد ما بذله أسلافنا فيه ، من الجهد الكبير ، فى البحث والتنقيب ، والجمع

والترتيب ، غير أنه لم يخل من بعض العيوب التي نلخص أهمها فيما يلي :

١ — مادة هذه المعاجم اللغوية ، قد جمعها الرعيل الأول من اللغويين ، ثم توقفت حركة الجمع هذه بعد فترة ، واقتصر جهد العلماء بعد ذلك ، على تبويب هذه المادة وعرضها بطرق مختلفة ، وبذلك أغفلوا ناحية مهمة ، من نواحي الدراسات اللغوية ، تلك هي ناحية التطور اللغوي ، في نواحي : الأصوات والبنية ، والدلالة ، والأسلوب ، فلم يحاول مثلا أحد المؤلفين في المعاجم في القرن الرابع أو الخامس الهجري مثلا ، أن يبين لنا تطور معنى الكلمة ، التي جمعها من قبله أحد علماء القرن الثاني الهجري ، وبعبارة أخرى : لم يبين لنا المعنى ، الذي كان يفهم من الكلمة في عصره ، كما أنه لم يبين لنا كيف كانت تنطق الكلمة ، في لغة التخاطب في عصره ، وليس لدينا في هذا المجال سوى إشارات سريعة ، فيما يسمى بكتب « لحن العامة » .

٢ — قصور هذه المعاجم في الاستدلال على المعنى بالشواهد أحياناً ، فهي رغم غناها بالشواهد ، من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والأمثال ، والشعر ، فيها الكثير من المواد ، التي تخلو من هذا الشعر خلواً تاماً ، مما قد يشكك في صحة ورودها عن العرب ، مثل المواد : كمثل ، وكمثل ، وكندش ، وكندس ، وغيرها .

وهذه الناحية تستدرك الآن ، بعمل معجم للغة العربية ، يستمد ألفاظه من الشعر والنثر ، وهذا المعجم ، بدأه المستشرق الألماني « أوجست فيشر » A. Fischer في المجمع اللغوي بالقاهرة ، ويخرجه الآن نخبة من المستشرقين الألمان ، وعلى رأسهم أستاذنا بروفسور « شبيتالر » A. spitaler رئيس معهد اللغات السامية بجامعة ميونخ .

٣ — رغم أن شيئاً من اللغات السامية ، كان معروفاً لدى بعض اللغويين العرب ، فإنهم لم يفيدوا من هذه المعرفة ، في مقارنة العربية بأخواتها الساميات ، كالعبرية والآرامية والحبشية ؛ ومن الممكن أن تفيد هذه المقارنات في إلقاء الضوء على الدلالات المركزية والدلالات الهامشية ، لهذه اللفظة أو تلك ، والفصل في قضية التعريب والمولد والدخيل وغيرها من المصطلحات التي تمتلىء بها معاجمنا العربية ، دون تحديد واضح لتلك المصطلحات .

٤ — التضخم الذي نلحظه في المؤلفات المتأخرة ، مثل : « لسان العرب » لابن منظور و « تاج العروس » للزبيدي . والسر في ذلك يرجع — في نظري — إلى نقل المادة اللغوية الواحدة ، من أكثر من مصدر ، فمثلا ينقل صاحب اللسان عن « تهذيب اللغة » للأزهري ، و « المحكم » لابن سيده ، و « الصحاح » للجوهري ، وكل واحد من هذه المعاجم الثلاثة ، استخدم بعض المصادر التي استخدمها الآخر ، كالغريب المصنف لأبي عبيد ، ولذلك تقابلنا مثلا عبارات هذا الكتاب الأخير في « لسان العرب » منقولة ثلاث مرات ، عن المصادر الثلاثة المتقدمة ؛

٥ ـ تخلط هذه المعاجم كثيراً ، بين مستوى العربية الفصحى ، واللهجات القديمة ، فى اللفظ والدلالة ، بلا إشارة إلى ذلك فى كثير من الأحيان ، مثل : السراط والصراط والزراط ، بمعنى : الطريق مثلا ، وكذكرها لكلمة « العجوز » مثلا ، أكثر من سبعين معنى ، من بينهما : الإبرة ، ، والجوع ، والسمن ، والقبلة ، واليد اليمنى . فمن المحال أن تكون هذه المعانى جميعها ، مستعملة فى الفصحى وحدها .

٦ ـ انتاب المادة اللغوية الكثيرة من التصحيف والتحريف ، بسبب كثرة تعاور النساخ لها على مر العصور . وقد وقع اللغويون العرب ، فى وهم هذا التصحيف والتحريف فى معاجمهم ، كالتحريف الذى وقع فيه الجوهرى صاحب « الصحاح » حين استشهد على أن « اللجز » مقلوب : « اللزج » ببيت ابن مقبل :

يعلون بالمردقوش الورد ضاحية
على سعابيب ماء الضالة اللجز

ونسى أن هذا البيت من قصيدة نونية فى ديوان ابن مقبل[1] ، وصحة الروى فيه : « اللجن » !

وهذا هو محمد بن المستنير المعروف بقطرب والمتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، يجعل فى كتابه عن « الأضداد » كلمة : « برد » بمعنى : التبريد والتسخين ، ويسوق على المعنى الثانى شاهداً ، هو قول الشاعر :

عافت الماء فى الشتاء فقلنا
بَرِّدِيه تصادفيه سخيناً[2]

ولا شك أن هذا تحريف لعبارة : « بل رديه » من الورود لشرب الماء ، قال أبو الطيب اللغوى فى التعليق على هذا البيت : « قال قطرب : معنى برديه فى هذا البيت : سخِّنيه . وقال أبو حاتم : هذا خطأ ، إنما هو : بل رديه ، من الورود ، ولكنه أدغم اللام فى الراء ، كما يقرأ : « كلا بل ران على قلوبهم » قال أبو الطيب : وهذا الصحيح ، وبه يستقيم معنى البيت[3] » .

ومثل ذلك أيضاً ، ما وقع فيه « الفيروزابادى صاحب : « القاموس المحيط » حين نقل فى معجمه[4] ، أن : السواف ـ كسحاب ـ القشاء ، وداء يأخذ الإبل فتهلك . وما درى الفيروزابادى أن هذا القشاء « ليس إلا تصحيفاً لكلمة : « الفناء » وهو : الهلاك ، الموجود فى المعنى الثانى ، الذى ذكره .

٧ ـ عدم المنهجية فى ترتيب مفردات المادة الواحدة ، فيتحتم على المرء فى كثير من الأحيان ، أن يقرأ المادة كلها ، للعثور على بغيته ، إذ يلزمك أن تقرأ عشر صفحات فى مادة (عرف) ، إذا كنت تبحث مثلا معنى كلمة : « معرفة الفرس » وما شابه ذلك .

---

(١) ديوان ابن مقبل ٣٠٧
(٣) أضداد أبى الطيب ١/٨٦
(٢) أضداد قطرب ٢٥٨
(٤) القاموس المحيط (سوف) ٣/١٥٥

هذه هي أبرز العيوب في هذا القطاع اللغوي في العربية : وفي مقدورنا بالطبع التغلب على هذه العيوب ، إذا أعدنا النظر مرة أخرى في معاجمنا اللغوية ، فصفيناها من الحشو والتكرار ، وفرقنا بين مستوى الفصحى واللهجات القديمة ، في ألفاظها ومدلولاتها ، ورتبنا كلمات المادة الواحدة ، ترتيباً منهجياً صارماً ، وأعدنا استقراء النصوص القديمة من جديد، لنتخلص هذه المعاجم مما فيها من تحريف أو تصحيف ، أو مواد هي من صنع اللغويين ، ولم تجربها ألسنة العرب القدماء .

هذا ، ويعمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة على إخراج معجم كبير للغة العربية، مستخدماً المعاجم العربية ، التي وصلت إلينا ، إلى جانب كتب الأدب واللغة ، ودواوين الشعراء . وقد اتبع في تأليفه منهجاً صارماً ، تغلب فيه على شيء من العيوب السابقة . وقد خرج الجزء الأول من هذا « المعجم الكبير » خاصاً بحرف الهمزة ، وطبع بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م ، وهو جهد يتطلب الكثير من الوقت ، وتعاون المتخصصين في هذا الميدان .

* * *

هذا هو جانب المعجم في تراثنا اللغوي : .. فإذا جئنا إلى الدراسة الخاصة بنظام الجملة ، ووظائف الكلمات في داخل الجمل ، وجدنا تراثاً ضخماً ، تباهي به الأمة العربية سائر الأمم في هذا المضمار ؛ وقد وصل إلينا أول كتاب في هذا المجال كاملاً ، يبهر النفوس ، ويستحوذ على القلوب ويبعث على الإعجاب بعقلية مبدعه ، وتفكير منشئه ، وهو كتاب سيبويه النحوي البصري المشهور (المتوفى سنة ١٨٠ هـ) . وتوالت المؤلفات العربية في هذا الميدان بعد سيبويه ، ومن أهم هذه المؤلفات : كتاب « المقتضب » لأبي العباس المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥ هـ) ، و « أصول النحو » لابن السراج (المتوفى سنة ٣١٦ هـ) ، و « الجمل » للزجاجي (المتوفى سنة ٣٤٠ هـ) ، و « المفصل » للزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) و « الإنصاف » لأبي البركات بن الأنباري (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) ، و « شرح المفصل » لابن يعيش (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) ، و « الألفية » المشهورة ، لابن مالك (المتوفى سنة ٦٧٢ هـ) ، وكتب العلامة المصري « ابن هشام » (المتوفى سنة ٧٦١ هـ) كشذور الذهب ، وقطر الندى ، وأوضح المسالك ، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، وشرح الأشموني (المتوفى سنة ٨٧٢ هـ) على ألفية ابن مالك ، و « همع الهوامع » لجلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، وغير ذلك كثير كثير .

وإن من يتصفح هذه المؤلفات الكثيرة يعجب من الجهد المبذول فيها حقاً ، غير أنه يضل وسط الآراء الجدلية النظرية ، التي

لا تفيد كثيراً فى الدرس النحوى ، والابتعاد عن الواقع اللغوى إلى الافتراض ، وانظر معى إلى قول الزجاج مثلا : « والمازنى يجيز فى : يأيها الرجل ، النصب فى الرجل ؛ ولم يقل بهذا القول أحد من البصريين غيره ، وهو قياس ، لأن موضع المفرد المنادى نصب فحملت صفته على موضعه ؛ وهذا فى غير يأيها الرجل جائز عند جميع النحويين ، نحو قولك : يازيد الظريف والظريف : والنحويون لا يقولون إلا : ياأيها الرجل، ويأيها الناس ؛ والعرب لغتها فى هذا الرفع ، ولم يرد عنها غيره »[1].

فى هذا النص نجد المازنى يبتدع لغة لم تجر على لسان العرب ، ويترك الواقع اللغوى، إلى افتراضات قياسية ما أنزل الله بها من سلطان ، فإذا كان العرب قد قالوا : يازيد الظريف ، فلا مانع عند المازنى أن تقول : يأيها الرجل ، وإن لم تقل بذلك العرب .

وما صنيع المازنى فى هذا الزمن القديم ، إلا كصنيع من يبتدع قياساً باطلا فى لهجات الخطاب المعاصرة ، ويدعيه على أصحاب هذه اللهجات ، فيجيز أن تجمع كلمة : « تاج » على : « أتواج » ، قياساً على جمع مال على أموال ، أو يعكس فيجيز أن تجمع كلمة : « مال » على : « ميلان » ، قياساً على جمع تاج على تيجان ، وما أشبه ذلك ؛! لا يصح أن يدخل إلا فى دائرة الأوهام والخيالات .

وأنت واقع هنا وهناك ، فى التراث النحوى ، على كثير من التعليلات الواهية التى لايسندها قانون لغوى ، أوقاعدة كلية تسرى على مجموعة من اللغات البشرية ؛ وتأمل معى قول الزجاج فى تعليل إعراب المثنى من اسم الإشارة واسم الموصول : « فإن قال قائل : فما بالك تقول : أتانى اللذان فى الدار ، ورأيت اللذين فى الدار ، فتعرب كل مالا يعرب فى تثنيته نحو : هذان ، وهذين ؛ وأنت لا تعرب : هذا ، ولاهؤلاء؟ فالجواب فى ذلك أن جميع مالا يعرب فى الواحد مشبه بالحرف الذى جاء لمعنى ، فإذا ثنيته ، فقد بطل شبه الحرف الذى جاء لمعنى ، لأن حروف المعانى لاتثنى »[2].

وقد فات الزجاج أن الجمع يمكن أن يقال فيه ما قاله هو فى التثنية ، من بطلان شبه الحرف الذى جاء لمعنى. فلماذا لم يعرب إذن اسم الموصول المجموع مثل : « الذين » ، واسم الإشارة للجمع ، مثل : هؤلاء ؟ !

وليست كل التفسيرات التى قدمها النحاة القدامى للظواهر اللغوية فى العربية خطأ تحذر الناس منه ، أو خطايا نستغفر الله للنحاة العرب من الوقوع فى أدرانها ، وإنما نحذر بعض شبابنا الباحثين، من الوقوع أسرى

(١) معانى القرآن وإعرابه للزجاج ١ / ٦٤

(٢) معانى القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٣٤

لبعض هذه التفسيرات الواهية ، وندعوهم إلى إعمال العقل فى المنقول عن هؤلاء النحاة من مختلف التفسيرات للظواهر اللغوية .

ولسنا فى دعوتنا هذه نخرج كثيراً عن منهج كبار علمائنا القدامى ، ورحم الله عبقرى العربية ، الخليل بن أحمد ، حين سُئل عن العلل التى يعتل بها فى النحو ، فقيل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام فى عقولها علله ، وإن لم ينقل ذلك عنها . واعتللت أنا بما عندى أنه علة لما عللته منه ، فإن أكن أصبت العلة فهو الذى التمست ، وإن تكن هناك علة أخرى له ، فمثلى فى ذلك مثل رجل حكيم ، دخل داراً محكمة البناء ، عظيمة النظم والأقسام . فكلما وقف هذا الرجل فى الدار على شئ منها ، قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ، ولسبب كذا وكذا ، سنحت له وخطرت بباله ، محتملة لذلك . فجائز أن يكون الحكيم البانى للدار ، فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ... فإن سنح لغيرى علة لما عللته من النحو ، هى أليق مما ذكرته بالمعلول ، فليأت بها[1] .

ومن الأمور التى تلفت النظر ، فى تراثنا النحوى الضخم ، خلوه فى بعض الأحيان من الاستقراء الكامل ، لبعض صور الظاهرة الواحدة ، من الظواهر النحوية ، ويكفى أن نذكر هنا بما يقوله النحاة ، منذ أيام سيبويه ، من أن الاستثناء فى الكلام التام غير الموجب المنقطع ، كما فى مثالهم المشهور : «ما قام القوم إلا حماراً» يجب فيه نصب المستثنى على لغة أهل الحجاز وبها نزل قول الله تعالى : « مالهم به من علم إلا اتباع الظن». أما بنو تميم فإنهم يجيزون فيه الإتباع .

كقول زياد بن حمل التميمى :

ليست عليهم إذا يغدون أردية
إلا جياد قسى النبع واللجم[2]

وليس النحاة على حق فى هذا ، فليس بنو تميم وحدهم فى تجويز الإتباع هنا ، فهذا جران العود النميرى يقول :

وبلدة ليس بها أنيس
إلا اليعافير وإلا العيس[3]

كما يقول ضرار بن الأزور فى يوم اليمامة :

عشية لا تغنى الرماح مكانها
ولا النبل إلا المشرفى المصمم[4]

وضرار شاعر من بنى أسد[5] ومثله قول الأخطل التغلبى :

فرابية السكران قفر فما لهم
بها شبح إلا سلام وحرمل

والسلام : الحجارة ، والحرمل : شجر[6] .

ومثله قول سعد بن مالك بن ضبيعة ،

(١) الإيضاح فى علل النحو للزجاجى ٦٥

(٢) انظر : الحماسة بشرح المرزوقى ق ٣٩/٥٧٧ ص ١٤/٢ (٣) ديوانه ص ٥٢

(٤) انظر : تاريخ الطبرى ٢٩٧/٣ (٥) انظر : جمهرة الأنساب لابن حزم ١٩٣

(٦) ديوان الأخطل ص ٢

جد طرفة بن العبد البكرى :

والحرب لا يبقى لجاحمها
التـخيـل والمـراح
إلا الفتى الصبار فى النـ
جدات والفرس الوقاح[1]

فهـذه الأبيات — كمـا ترى — لشعراء من نمير ، وأسد ، وتغلب ، وبكر ، وغيرها كثير ، يثبت أن استقراء النحاة العرب لهذه الظاهرة ، كان استقراء ناقصا .

ومن العجب قول المرزوقى فى شرح هذين البيتين الأخيرين : إلا الفتى ، ارتفع على أنه بدل من التخيل ، وهذه لغة تميم .

بل إنه ليلاحظ فى هذا التراث النحوى ، أن فيه متابعة ، تكاد تكون كاملة ، لكثير مما جاء به سيبويه فى كتابه ، دون تمحيص أو تدقيق ، على ما فى بعض مسائله أحيانا من الخطأ المبنى على تحريف فى الرواية أو تغيير فى الشواهد العربية . وهذا مثال واحد ، من أمثلة كثيرة ، يدل على صدق ما نذهب إليه :

يرى النحاة العرب ، منذ أيام سيبويه ، أن (كان) الناسخة تحذف وحدها أحيانا وذلك بعد أن المصدرية ، فى مثل قولك ، «أما أنت منطلقاً انطلقت» ، وأصله — كما يقول النحاة — انطلقت لأن كنت منطلقا ، ثم قدمت اللام وما بعدها على : «انطلقت» للاختصاص ، ثم حذفت اللام للاختصار ، وحذفت «كان» لذلك فانفصل الضمير ، ثم زيدت (ما) للتعويض ، ثم أدغمت النون فى الميم للتقارب .

هكذا يقول النحاة العرب ، ويستشهدون على ذلك ، بقول العباس بن مرداس السلمى :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر
فإن قومى لم تأكلهم الضبع[2]

وقول الشاعر :

إما أقمت وأما أنت مرتحلا
فالله يكلأ ما تأتى وما تذر[3]

ويبدو أن هذه المسألة ، مبنية على تحريف وقع فى بيت العباس بن مرداس السلمى ، وهو البيت الوحيد الصحيح النسبة ، بين شاهدى هذه المسألة ، لأن البيت الثانى يروى بلا نسبة ، كما أنه يحتوى على عبارات إسلامية ظاهرة ، مما يدل على أنه مسموع بعد وضع القاعدة ، وعلى ضوئها .

وهذا يعنى أن المسألة لا وجود لها فى اللغة العربية أصلا ، وأن النحاة وعلى رأسهم سيبويه أو شيوخه ، قد وقعوا فى التحريف فى بيت العباس بن مرداس وقاسوا عليه أمثلتهم الأخرى ، وأن صواب رواية البيت :

أبا خراشة إما كنت ذا نفر
فإن قومى لم تأكلهم الضبع

هكذا : «إما كنت» بدلا من : «أما أنت» التى يزعم النحاة ، منذ أيام سيبويه ، أن

(١) شرح المرزوقى للحماسة ٢/٥٠١ (٢) كتاب سيبويه ١/١٤٨ (٣) خزانة الأدب ٢/٨٢

البيت يروى بها و «إما» هذه هي : «إن» الشرطية المؤكدة بما الزائدة ، وهي كثيرة في الكلام العربي ، ويأتي بعدها المضارع كقوله تعالى : «إما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء» والماضي كقول الأبيرد الرياحي :

فلا يبعد نك الله إما تركتنا
حميدا وأودى بعدك المجد والفخر[1]

ولعل الدليل على صحة ما نقول ، أن بيت العباس بن مرداس ، يروى كثيرا في غير كتب النحو (التي ينقل بعضها عن بعض) ، بالرواية الصحيحة ، وهي: «إما كنت» ويكفي أن تراجع ذلك في كتاب العين للخليل بن أحمد ٣٣١/١ وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ١١٠/٢ وتهذيب الألفاظ لابن السكيت ٢٦ وحماسة الخالديين ٨٩/١ وجمهرة اللغة لابن دريد ٣٠٢/١ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٣/١ ولسان العرب (خرش) ١٤٣/٨ والاشتقاق لابن دريد٣١٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٤١/١ وشرح ديوان جرير لمحمد بن حبيب ٣٤٩/١ والحيوان للجاحظ ٢٤/٥ ، ٤٤٦/٦ وغير ذلك

وهذا مثال ثان يؤكد ما قلناه ، من ابتداع بعض النحاة العرب لشيء من القواعد ، بناء على رواية مغيرة لهذا الشاهد أو ذاك من شواهد الشعر ، يقول ابن قتيبة: وقد رأيت سيبويه يذكر بيتا يحتج به ، في نسق "الاسم المنصوب" على المخفوض ، " على المعنى ، لا على اللفظ ، وهو قول الشاعر" :

معاوي إننا بشر فأسجح
فلسنا بالجبال ولا الحديدا

قال : كأنه أراد : لسنا الجبال ولا الحديدا ، فرد الحديد على المعنى قبل دخول الباء . وقد غلط على الشاعر ، لأن هذا الشعر كله مخفوض ، قال الشاعر :

فهبها أمة ذهبت ضياعا
يزيد أميرها وأبو يزيد
أكلتم أرضنا وجردتموها
فهل من قائم أو من حصيد

ويحتج أيضا بقول الهذلي في كتابه ، وهو قوله :

بيت على معاري فاخرات
بهن ملوب كدم العباط

وليست ها هنا ضرورة ، فيحتاج الشاعر إلى أن يترك صرف «معار» . ولو قال: يبيت على معار فاخرات ، كان الشعر موزونا ، والإعراب صحيحا . قال أبو محمد : وهكذا قرأته على أصحاب الأصمعي : وكقوله في بيت آخر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة
ومختبط مما تطيح الطوائح

وكان الأصمعي ينكر هذا ، ويقول : ما اضطره إليه ؟ الرواية : ليبك يزيد ضارع لخصومة[2]

ولقد أسهم النساخ والطباعون ، في شيوع التصحيف والتحريف في كثير من شواهد النحو ، ومسائله وقضاياه ،

(١) الكامل للمبرد ٢١٥/١

(٢) الشعر والشعراء ٩٨/١

وأصبح من الواجب علينا التدقيق فى إخراج هذه الكتب محققة ، على وجه تخلو فيه من مثل التحريفات الشنيعة ، التى تتداول بين الدارسين ، فى مشاهير الكتب النحوية ، فقد استشهد ابن عقيل فى شرحه لألفية ابن مالك ، على جواز نصب المفعول لأجله ، إذا كان محلى بالألف واللام ، بقول قريط ابن أنيف :

فليت لى بهم قوما اذا ركبوا
شنوا الإغارة فرسانا وركبانا

والبيت على هذه الرواية ، التى جاءت فى كتاب ابن عقيل ، ليس فيه شاهد على هذه المسألة ، لأن « الإغارة » مفعول به ، وليس مفعولا له . والذى فى شعر قريط بن أنيف «شدوا الإغارة» . ويقول التبريزى فى تفسيره : «ويروى شنوا الإغارة »، أى فرقوها ، ومن روى : شدوا الإغارة ، فليس الإغارة مفعولا به ، ولا انتصابها على ذلك ، لكن انتصابها انتصاب المفعول له ، أى شدوا للإغارة[1] .

ويبدوا أن ما فى كتاب ابن عقيل تحريف للرواية الأخرى ، «شدوا » وأن المراد : شدوا الخيل للإغارة ، وإن كان شراح شواهده ، كالشيخ عبد المنعم الجرجاوى والشيخ قطة العدوى ، يريان حذف المفعول به هنا أيضا ، فيقولان : «إن المعنى شنوا أنفسهم لأجل الإغارة على العدو » مع أن الذى فى المعاجم : « شن الغارة» أى فرقها ، ولم يقل : «شنوا أنفسهم » فيما وقفت عليه من نصوص العربية .

* * *

أما كتب فقه اللغة العربية ، من تراثنا اللغوى فإنها حقا تبعث على الإعجاب والإكبار ، إذ يظهر فى شيء غير قليل من قضاياها ، سبق علمائنا القدامى لأحدث النظريات اللغوية فى العصر الحديث : بألف عام أو يزيد . وعلى رأس هذه الكتب : «الخصائص» و«سر صناعة الإعراب» للإمام ابن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) و«الصاحبي فى فقه اللغة»لابن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) ، و« المزهر فى علوم اللغة وأنواعها » للإمام السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) . ففى هذه الكتب وغيرها ، علم كثير ، ونظريات لغوية ، تقف شامخة أمام ما وصل إليه العلماء ، فى عصر التكنولوجيا الحديثة ، والعقول الإلكترونية .

ولكنك تعجب حين ترى فى بعضها اشتغال هؤلاء العلماء ، بشيء من التعليلات الواهية ، والجدل العقيم ، واسمع معى إلى قول ابن جنى ، متسائلا : لماذا رفع الفاعل ونصب المفعول ؟ ثم يجيب بقوله : «لأن الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد وقد يكون له مفعولات كثيرة . فرفع الفاعل لقلته ، ونصب المفعول لكثرته وذلك ليقل فى كلامهم ما يستثقلون ، ويكثر فى كلامهم ما يستخفون » .

---

(١) الخصائص ١ / ٦٩

كما يقول ابن جنى فى موضع آخر : «لماذا يكثر الأصل الثلاثى فى اللغة العربية، دون الرباعى والخماسى ؟ الجواب هو : لأنه حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به ، وحرف يوقف عليه . وليس اعتدال الثلاثى لقلة حروفه فحسب ، لو كان كذلك لكان الثنائى أكثر منه ، لأنه أقل حروفا ، وليس الأمر كذلك ، وأقل منه ما جاء على حرف واحد . . . فتمكن الثلاثى إنما هو لقلة حروفه — لعمرى — ولشيء آخر ، وهو حجز الحشو الذى هو عينه بين فائه ولامه . وذلك لتباينهما ولتعادى حاليهما ، ألا ترى أن المبتدأ لا يكون إلا متحركا . وأن الموقوف عليه لا يكون إلا ساكنا ؟ فلما تنافرت حالاهما ، وسطوا العين حاجزا بينهما ، لئلا يفجئوا الحس بضد ما كان آخذ فيه(١)» .

ويدلك على ما نقول كذلك هذا الجدل العنيف ، الذى يثيره ابن جنى حول الحركة القصيرة . أهى قبل الحرف ، أو معه ، أو بعده ؟ وبدلا من أن يلجأ إلى التجربة . أخذ يستخدم منطق أرسطو ، فى التدليل على أن الحركة القصيرة تقع بعد الحرف ، مثلها فى ذلك مثل حروف المد وهى الألف والواو والياء ، فيقول : «واعلم أن الحركة التى يتحملها الحرف ، لا تخلو أن تكون فى المرتبة قبله ، أو معه أو بعده ، فمحال أن تكون الحركة فى المرتبة قبل الحرف ، إذ لو كانت كذلك لما جاز الإدغام فى الكلام أصلا ، ألا ترى أنك تقول : قطع ، فتدغم الطاء الأولى فى الثانية ، ولو كانت حركة الطاء الثانية فى الرتبة قبلها ، لكانت حاجزة بين الطاء الأولى والطاء الثانية ، ولو كان الأمر كذلك لما جاز إدغام الأولى فى الثانية ، فجواز الإدغام فى الكلام دلالة على أن الحركة ليست قبل الحرف المتحرك بها . . . وبقى أن تكون معه أو بعده ، وفى الفرق بينهما بعض الإشكال ، فالذى يدل على أن حركة الحرف فى المرتبة بعده ، أنك تجدها فاصلة بين المثلين ، نحو قولك : قصص ، ومضض ، فإن ظهر هذان المثلان ، ولم يدغم الأول منهما فى الآخر منهما ، فظهورهما دلالة على فصل واقع بينهما ، وليس ها هنا فصل البته ، غير الحركة المتأخرة عن الحرف الأول(٢)» .

أما أبو على الفارسى ، فإنه لم يتصور إمكان استقلال الحركة بالنطق ، ولم يستطع أن يفرق بين الصوت الصامت والحركة ، هذه التفرقة ، فكان يرى أن الحركة تحدث مع الحرف يقول ابن جنى : «واستدل أبو على على أن الحركة تحدث مع الحرف ، بأن النون الساكنة إذا تحركت ، زالت عن الخياشيم إلى الفم ، وكذلك الألف إذا تحركت انقلبت همزة

---

(١) الخصائص ١ / ٥٥

(٢) سر صناعة الإعراب ١ / ٣٢

فدل ذلك عنده ، على أن الحركة تحدث مع الحرف ، وهو لعمرى استدلال قوى[1].

وقد فات أبا على الفارسى ، أن الذى يزول عن الخياشيم إلى الفم ، هو الحركة وليست النون ، وأن الذى يتحرك هو الهمزة ، وليست ألف المد ، لأن ألف المد حركة طويلة ، والحركة لا تحرك !

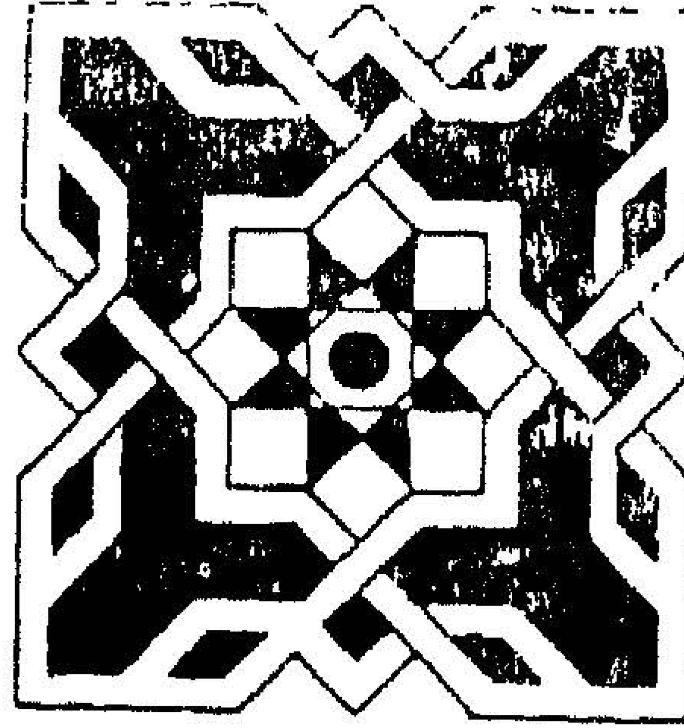
ولم تخل هذه الكتب كذلك من داء التصحيف والتحريف ، الذى ابتليت به الكتابة العربية ، منذ القدم ، فقد وقع فى كتاب « المزهر » للسيوطى النص التالى : « قال ابن درستويه فى شرح الفصيح : قول العامة نحوى لغوى على وزن : جهل يجهل ، خطأ أو لغة رديئة » . وفى هامشه تعليقا على عبارة : « نحوى لغوى » قال محققو المزهر : « لم نقف على ضبط هذه العبارة » !

وهذا الذى لم يقف على ضبطه محققو الكتاب ، موجود على الصواب فى تصحيح الفصيح لابن درستويه ، وهو قوله : « فتقول : غوى يغوى على نحو جهل يجهل » .

هذه هى بعض الملاحظات ، التى لم يقصد كاتبها إلى الحصر والاستقصاء ، وإنما هو تنبيه للأذهان ، إلى أنه قد آن الأوان لتنقية تراثنا اللغوى من كل هذه الشوائب ، التى تركت آثارها الحدرية ، فى وجه اللغة الحسناء ، لغتنا الجميلة .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت ، وإليه أنيب .

رمضان عبد التواب
الخبير بالمجمع



(1) سر صناعة الإعراب ١/ ٣٧ ومع تحمس ابن جنى لرأى أستاذه أبى على الفارسى هنا ، ووصفه دليله بأنه « استدلال قوى » فإنه لم يرتض هذا الرأى فى كتابه الخصائص ٢-٣٣٤ ورد استدلاله هناك .

الحركة الأخيرة
فى الكلمات العربية المقترضة فى لغة الهوسا
للدكتور مصطفى حجازى السيد

الغرض من هـذا البحث[*] هو دراسة ظاهرة لغوية هامة فى الكلمات العربية المقترضة فى لغة الهوسا . وهى الحركة الأخيرة فى الكلمة المقترضة . وتقوم المادة العلمية لهذه الدراسة على ماجمعت من مفردات لغوية أثناء قراءتى لكتب الأدب الهوسوى المذكورة فى نهاية هذا البحث . وبدراسة هذه المادة المقترضة امكن تقسيمها إلى قسمين القسم الأول ويشمل أسماء الأعلام العربية والمعربة المستعملة فى اللغة العربية . والقسم الثانى ويشمل الكلمات الأخرى . وقد أمكن بعد استقراء المادة العامية بكل قسم توزيعها على النحو التالى :

أولا : اسم العلم : وينتهى بالحركات التالية :

١ ـ حركة الضمة وهى الحركة السائدة .

٢ ـ حركة الفتحة : فى الحالات التالية :

(أ) الأعلام المنتهية بتاء التأنيث .

(ب) الأعلام المنتهية بالألف المقصورة .

(جـ) الأعلام المنتهية بالألف الممدودة .

(د) الأعلام التى ترد كثيراً فى حالة النصب فى القرآن الكريم .

٣ ـ حركة الكسرة : وتأتى فى نهاية الأعلام التالية :

(أ) الأعلام المركبة من المضاف والمضاف إليه

(ب) الأعلام المنتهية بحركة الكسرة الطويلة .

(جـ) فى حالة حذف المقطع الأخير من الاسم ، وانتهاء المقطع السابق على المحذوف بالكسرة .

(د) أعلام قليلة لم يمكن تعليلها .

ثانياً : الكلمات الأخرى : وتنتهى بالحركات التالية :

١ ـ حركة الفتحة وتأتى مشروطة وغير مشروطه .

---

[*] فى بداية هذا البحث أتقدم بالشكر إلى ا.د محمود فهمى حجازى لملاحظاته القيمة التى افادتنى كثيراً فى إخراجه على هذه الصورة .

(أ) حركة الفتحة المشروطة وتأتى فى الحالات التالية :

١ – فى نهاية الكلمات التى أصلها فعل ماضى مبنى على الفتحة .

٢ – فى حالة حذف المقطع الأخير من الكلمة وانتهاء المقطع السابق على المحذوف بالكسرة .

٣ – الكلمات المنتهية بالألف المقصورة .

٤ – الكلمات المنتهية بالألف الممدودة .

٥ – الكلمات المنتهية بتاء التأنيث .

٦ – كلمات مقترضة كما هى .

(ب) حركة الفتحة غير المشروطة وتأتى فى نهاية عدد محدود من الكلمات منها :

١ – كلمات أصلها مصدر .

٢ – كلمات أصلها مصدر ميمى .

٣ – كلمات أصلها اسم فاعل .

٤ – كلمات أصلها اسم زمان .

٥ – كلمات أصلها اسم جامد .

٢ – حركة الكسرة وهى الحركة السائدة باستثناء الحالات السابقة وتأتى فى نهاية الكلمات التالية :

(أ) كلمات أصلها اسم فاعل .

(ب) كلمات أصلها اسم مفعول .

(ج) كلمات أصلها مصدر .

(د) كلمات أصلها اسم جامد .

(هـ) كلمات أصلها صفة .

٣ – حركة الضمة تأتى فى نهاية عدد محدود جداً من الكلمات التالية :

(أ) كلمات أصلها مصدر .

(ب) كلمات أصلها اسم جامد .

٤ – السكون : ويأتى فى نهاية الكلمات التالية :

(أ) فى نهاية الكلمات المقترضة منونة .

(ب) فى نهاية العقود من عشرين إلى تسعين .

(ج) بعض الكلمات المنتهية بصوت النون .

(د) بعض الكلمات المنتهية بصوت الراء وغيرها من الأصوات .

هذا عرض سريع للبحث وفى الصفحات التالية التفاصيل المدعمة بالأمثلة والأنماط المختلفة لكل حالة .

أولا : أسماء الأعلام :

إذا نظرنا إلى اسم العلم فى اللغة العربية من حيث الرفع والنصب والجر ، يبدو أن حالة الرفع هى أكثر الحالات شيوعاً ، إذ أنها ترتبط بالتركيب اللغوى . حيث تتركب اللغة من مجموعة من الجمل الفعلية والإسمية ؛ وفى كلتا الحالتين ، يأتى الأسم مرفوعاً : حيث يكون مبتدأ فى الجملة الإسمية ، أو فاعلا أو نائباً للفاعل فى الجملة الفعلية ، وبدراسة أسماء الأعلام التى قمت بجمعها استطعت تحديد الحالات التى يأتى فيها الاسم مضموماً أومفتوحاً أو مجروراً . على النحو التالى :

حركة الضمة :

للأسباب التى سبق ذكرها كانت الحركة الشائعة فى نهاية أسماء الأعلام الموسوية .

المقترضة من اللغة العربية هى حالة الرفع ، حيث يضعون حركة الضمة القصيرة فى نهاية كل إسم كما نلاحظ فى الأمثلة التالية :

الأمثلة :

آدم < ?aadamu
أمين < ?amiinu
عمر < ?umaru
سراج < Siraaju
شعيب < Shu?aybu
معاذ < mu?aazu
نوح < nuuhu
زينب < zaynabu
زبير < zubayru

حركة الفتحة :

ينتهى إسم العلم المقترض بالفتحة فى إحدى الحالات الآتية :

١ – إذا كان الاسم منتهياً بتاء التأنيث ، حذفت التاء ، وبقيت حركة الفتحة السابقة عليها . على النحو التالى :

الأمثلة :

أمينة < ?amiina
حبيبة < habiiba
خديجة < hadiiza
خليفة < haliifa
حليمة < haliima
هريرة < hurayra
رقية < raqiiya
صفية < safiiya
سكينة < sakiina
مكة < maka

وقد شذ عن هذه القاعدة الأعلام التالية حيث لم تحذف من نهايتها تاء التأنيث وانتهت بحركة الضمة القصيرة .

حفصة < hafsatu
سلامة < salaamatu
سارة < saaratu

٢ – إذا كان اسم العلم ينتهى بألف التأنيث الممدودة ، حذفت الهمزة وبقيت حركة الفتحة الطويلة :

مثال :

حواء < hawaa

٣ – إذا كان اسم العلم ينتهى بالألف المقصورة .

الأمثلة :

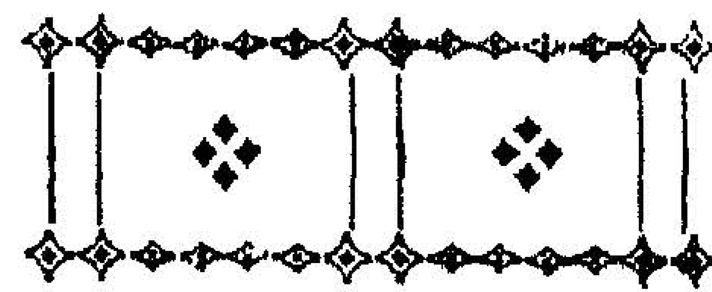
عيسى < ?iisa
موسى < muusa
مصطفى < musḍafa

ملحوظة : أ < ? ، ح < ه ، ج < j ، ش < sh ، ط < ḍ

٤ ـ أسماء الأعلام التى وردت كثيراً فى القرآن الكريم منصوبة أو مجرورة بالفتحة وهى موضحة فى الجدول التالى[1] :

اسم العلم فى اللغة العربية		اسم العلم المقترض فى لغة الهوسا	عدد مرات وروده فى القرآن الكريم		
			حالات النصب	حالات الضم	جملة الحالات
أيوب	<	?ayyuuba	٤	—	٤
داود	<	dawda	١٣	٣	١٦
فرعون	<	fir?awna	٥٤	١٦	٧٠
هارون	<	haaruuna	١٧	٣	٢٠
عمران	<	?imraana	٣	—	٣
جبريل	<	jibriila	٢	١	٣
جهنم	<	jahannama	٥٨	١٧	٧٥
قارون	<	qaaruuna	٣	١	٤
إسماعيل	<	samaa?iila	١١	١	١٢
يونس	<	yuunusa	٤	—	٤

ومن هذا يتضح أن الأسماء المنتهية بالفتحة أكثر ورودها بالقرآن منتهية بالفتحة :



(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقى ، القاهرة ١٩٤٥

حركة الكسرة :

ينتهى اسم العلم العربى المقترض فى لغة الهوسا بالكسرة فى الحالات الآتية :

١ – إذا كان الإسم مركباً من المضاف والمضاف إليه فيكون المضاف مرفوعاً بالضمة والمضاف إليه مجروراً بالكسرة على النحو التالى :

الأمثلة :

عبد العزيز	<	?abdul?aziizi
عبد الباسط	<	?abdulbaasiḍi
عز الدين	<	?izzuddiini
عبد الغفار	<	?abdulgaffaari
عبد الجبار	<	?abluljabbaari
عبد الرحيم	<	?abdurrahiimi
عبد الرازق	<	?abdurraaziki

٢ – إذا كان الاسم العربى المقترض ينتهى بحركة الكسرة الطويلة .

الأمثلة :

على	<	?alii
عشماوى	<	?ashmaawii
ثانى	<	saanii
سيوطى	<	suyuuḍii
مهدى	<	maadii

٣ – إذا حذف المقطع الأخير من الاسم وكانت الحركة السابقة على المقطع المحذوف كسرة بقيت كما هى على النحو التالى :

الأمثلة :

بلقيس	<	bilkii
رابعة	<	raabii

٤ – وإلى جانب الحالات السابقة وردت الأعلام الآتية منتهية بحركة الكسرة .

حبيب	<	habiibii
حسين	<	husayni
إدريس	<	?iidi
مالك	<	maalikii
نكير	<	walkiirii

السـكون :

والمقصود بالسكون هنا هو عدم وجود إحدى الحركات المذكورة آنفاً ، أى أن الاسم ينتهى بصوت صامت لايليه أية حركة ، وقد جاءت الأعلام الآتية منتهية بصوت صامت .

الأمثلة :

الله	<	?allah
حسن	<	hasan
رجب	<	rajab
رمضان	<	ramalaan
صفر	<	safar
شعبان	<	shabaan
شوال	<	shawwaal
شيطان	<	shayḍaan
محرم	<	muharram

ثانيا : الكلمات الاخرى :

والمقصود بالكلمات الأخرى تلك الكلمات التي ليست بأسماء أعلام ، وهي قلما تقترض كما هي في اللغة العربية ، ولكن الغالب هو حدوث كثير من التغايرات في بنية الكلمة المقترضة حتى تتلاءم مع النظام البنيوي للغة الهوسا ، ومن التغايرات التي تحدث في هذه الكلمات ، ظاهرة الحذف الصوتي ، وابدال أصوات الحلق والأطباق ، والأصوات التي تخرج مما بين الأسنان الأمامية . فيبدلون صوت الهمزة بالعين فيقولون — saa?a — بدلا من « ساعة » ويبدلون الهاء بالحاء فيقولون — haali — بدلا من « حال » وصوت الجيم القاهرية بالغين فيقولون — gargara — بـــدلا من « غرغرة » وصوت الهاء بالخاء فيقولون — husuuma — بدلا من « خصومة » .

وفي مجال الأطباق يبدلون صوت السين بالصاد فيقولون — sanaa?a — بـــدلا من « صناعة » واللام بالضـــاد فيقولون — ?alkaali — بدلا من « القاضى » ، وصوت الزاى بالظاء فيقولون — ?azzaalumi بدلا من « الظالم » .

ويبدلون صـــوت التاء بالثاء فيقولون — tabbata — بدلا من « ثبّت » الزاى بالذال فيقولون — zimma — بدلا من « ذمة »[1] .

ومن ظواهر التغاير الأخرى إضافة إحدى الحركات بين الصوتين الصامتين ، منعاً لالتقائهما ، حيث يسود نظام المقطع المفتوح ، ولذلك كانت أكثر الصيغ العربية اقتراضاً صيغة فَعَّلَ وفَعَّلَ حيث تستعمل الصيغة الأخيرة في لغة الهوسا للدلالة على تكرار الحدث من شخص واحد ، أو عدة أشخاص في وقت واحد ، فيقولون — yaa taara — بمعنى جمع ، ويقولون — yaa tattaara — بمعنى جمّع ؛

ولما كانت اللغة العربية لغة إعراب عكس الحال في لغة الهوسا ، كانت قضية الحركة الأخيرة من الكلمة العربية المقترضة من القضايا الهامة التي تحتاج إلى دراسة ، وقد قمت بدراسة ٧٨٤ كلمة عربية مقترضة ، وتتبعت الحركة الأخيرة في كل كلمة أصلية ، فكانت الكلمات التي تنتهي بحركة الفتحة ٣١٥ كلمة والتي تنتهي بحركة الكسرة ٣٦٠ كلمة والتي تنتهي بحركة الضمة ٣٦ كلمة ، بينما بلغ عدد الكلمات التي تنتهي بصوت صامت لانهاية حركة ٧٣ كلمة .

ومن هذا يتضح أن الحركة السائدة في نهاية الكلمات التي ليست بأسماء أعلام هي حركة الفتحة المشروطة — كما سنرى فيما بعد — وحركة الكسرة غير المشروطة بينما

---

(١) المزيد من التفاصيل أنظر الإبدال الصوتي في الكلمات العربية المقترضة في لغة الهوسا . للباحث ، والمنشور في مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤٢

تسود حركة الضمة فى نهاية أسماء الأعلام كما رأينا آنفاً . فى بداية هذا البحث .

وفيما يلى دراسة للحركات النهائية فى الكلمة العربية المقترضة والأنماط المختلفة التى جاءت فيها .

١ ـ حركة الفتحة :

تأتى حركة الفتحة فى نهاية الكلمة العربية المقترضة فى لغة الهوسا مشروطة وغير مشروطة على النحو التالى .

أولا : حركة الفتحة المشروطة :

تأتى حركة الفتحة المشروطة فى نهاية الكلمات العربية التى أصلها فعل ماضى مبنى على الفتحة كما هو موضح فيما يلى :

(أ) الأفعال الماضية على وزن فَعَلَ :

الأمثلة :

balaga < بلغ
hasada < حسد
la?ana < لعن
raka?a < ركع
sajada < سجد
sharaha < شرح
sharaḍa < شرط
wajaba < وجب

(ب) الكلمات التى أصلها فعل ماضى على وزن فَعِلَ :

الأمثلة :

?azina < أذن
shaayda < شهد
wahima < وهم

(جـ) الكلمات التى أصلها فعل ماضى على وزن فَعُلَ :

مثال :

rahusa < رَخُصَ

(د) الكلمات التى أصلها فعل ماضى على وزن فَعَّلَ :

الأمثلة :

?azzama < عظّم
fallala < فضّل
fassara < فسّر
fawwala < فوّض
jarraba < جرّب
kaddara < قدّر
sarrafa < صرّف
wallafa < ألفّ

(هـ) الكلمات التى أصلها فعل ماضى على وزن تفعّل :

الأمثلة :

ta?allaqa < تألّق
ta?azzara < تعذّر
taḍawwa?a < تطوّع
tagayyara < تغيّر

(و) الكلمات التى أصلها فعل ماضى على وزن فَاعَلَ :

مثال :

sawaana < توانى

(ز) الكلمات التى أصلها فعل ماضى على وزن فَاعَلَ :

مثال :

شاور < shaawara

(ح) الكلمات التى أصلها فعل ماضى على وزن فعّ :

الأمثلة :

بتّ < batta

دقّ < daqqa

شكّ < shakka

(ط) الكلمات التى أصلها فعل ماضى على وزن إفْتَعَ :

مثال :

إنتهى < ?intaha

(ك) الكلمات التى أصلها فعل ماضى على وزن فَعْلَلَ :

مثال :

ترجم < tarjama

٢ ـ الكلمات التى يحذف منها المقطع الأخير : وتبقى حركة الفتحة السابقة عليها .

الأمثلة :

البصل < ?albasa

القمح < ?alkama

أرخص < ?araha

الصبح < ?asuba

أوقع < ?awka

نكران < nukura

تكرار < takara

٣ ـ الكلمات المنتهية بالألف المقصوره

الأمثلة :

دنيا < duuniiya

فتوى < fatawa

هدايا < hadaaya

معنى < ma?ana

٤ ـ الكلمات العربية التى أصلها أسماء منتهية بألف التأنيث المحدودة حيث تحذف الهمزة وتبقى حركة الفتحة الطويلة السابقة عليها :

الأمثلة :

الدعاء < ?addu?aa

العشاء < ?al?isha

عاشوراء < ?aashuuraa

العشاء < lishaa

رجاء < rajaa

رياء < riyaa

صحراء < sahaara

شعراء < shu?ara

٥ ـ الكلمات العربية التى أصلها أسماء منتهية بتاء التأنيث . حيث تحذف التاء وتبقى حركة الفتحة السابقة عليها وهى إما أسماء جامدة أو مصادر أو اسم فاعل . :

(أ) الأسماء الجامدة والتى تنتهى بتاء التأنيث .

الأمثلة :

الأمة	<	?al?umma
الغاية	<	?algaaya
دابة	<	daabba
جريدة	<	jariida
نافلة	<	naafila
طاقية	<	taagiiya
وثيقه	<	wasiiqa
ذرية	<	zuriiya

(ب) الكلمات التى أصلها مصادر وتنتهى بتاء التأنيث وتأتى على الأنماط التالية :

١ ـــ النمط cvcv

مثال :

حجه	<	huja

٢ ـــ النمط cvvcv

الأمثلة :

طاعة	<	ḍaa?a
زينة	<	ziina

٣ ـــ النمط cvccv

الأمثلة :

عزة	<	?izza
دولة	<	dawla
حركة	<	harka
هيبة	<	hayba
قصة	<	kissa
كسوة	<	kiswa
نية	<	niyya

٤ ـــ النمط cvcvcv

الأمثلة :

دعوة	<	da?awa
خدمة	<	hidima
قسمة	<	kisima
قطعة	<	kiti?a
نعمة	<	ni?ima
رشوة	<	rashawa

٥ ـــ النمط cvcvvcv

الأمثلة :

عبادة	<	?ibaada
إشاره	<	?ishaara
حكاية	<	hikaaya
خسارة	<	hasaara
نجاسة	<	najaasa
صناعة	<	sanaa?a
وليمة	<	waliima

٦ ـــ النمط cvccvcv

مثال :

غرغرة	<	gargara

٧ ـــ النمط cvccvccv

الأمثلة :

النية	<	?anniyya
تربية	<	tarbiyya

٨ ـــ النمط cvccvcvcv

الأمثلة :

النفقة < ?annafaga

النشوة < ?annashawa

٩ ـــ النمط cvccvcvvcv

مثال :

استخارة < ?istihaara

(ج) كلمات أصلها مصدر ميمى وتنتهى بتاء التأنيث وتأتى على .

١ ـــ النمط التالى cvcvvc

الأمثلة :

معاملة < ma?aamala

مبايعة < mabaaya?a

محاورة < mahaawara

مكالمة < makaalama

مكيدة < makiida

مصافحة < musaafaha

موافقة < mawaafaka

(د) كلمات أصلها اسم فاعل وتنتهى بتاء التأنيث .

مثال :

معجزة < mujiza

(هـ) كلمات أصلها اسم مكان وتنتهى بتاء التأنيث .

مثال :

مطبعة < maḍaba?a

٦ ـــ كلمات عربية مبنية على الفتحة واقترضت فى لغة الهوسا كما هى ، وهى :

أبداً < ?abada

أما < ?ammaa

إما < ?imma

إلا < ?illa

إلى < ?ila

عند < ?inda

غير < gayra

لا < la

حتى < hatta

هيهات < hayhaata

هكذا < haka

ثانيا : حركة الفتحة غير المشروطة :

وهى تأتى فى نهاية عدد محدود من الكلمات بلغ عددها فيا جمعت من مادة علمية ثلاثين كلمة على النحو التالى :

(أ) فى نهاية كلمات أصلها مصدر وتأتى على الأنماط التالية :

١ ـــ النمط cvvcv

مثال :

ربح أو ربا < riiba

٢ ـــ النمط cvcvcv

الأمثلة :

عفو < ?afuwa

سبب < sababa

شكر < shkura

٣ ــ النمط cvcvvcv

الأمثلة :

عذاب < ?azaaba

جدال < jidaala

خلاف < hilaafa

حنان < hanaana

قتال < kitaala

(ب) كلمات أصلها مصدر ميمى :

الأمثلة :

مقام < mugaama

(ج) كلمات أصلها اسم فاعل :

الأمثلة :

داخل < daahila

خارج < haarija

واقع < waaqi?a

زائد < zaa?ida

(د) كلمات أصلها اسم زمان :

مثال :

مغرب < magariba

(هـ) كلمات أصلها إسم جامد وتأتى على الأنماط التالية :

١ ــ النمط cvccv

مثال :

جُرم ، حجم < girma

٢ ــ النمط cvcvcv

مثال :

ذراع < dara?a

٣ ــ النمط cvcvvcv

مثال :

فراغ < faraaga

كسل < kasaala

٤ ــ النمط cvvcvvcv

مثال :

تاريخ < taariiha

٥ ــ النمط cvcvcvcv

مثال :

فهرس < fihirisa

٦ ــ النمط cvccvcv

مثال :

marmara

٧ ــ النمط cvcvvcvcv

مثال :

جنائز < جنازه < janaa?iza

٢ ــ حركة الكسرة :

تأتى حركة الكسرة غير مشروطة فى نهاية الكلمات العربية المقترضة فى لغة الهوسا ، سواء كان أصلها اسم فاعل أو اسم مفعول ، أو مصدر أو اسم جامد أو صفة فى جميع أنماط الكلمة على النحو الموضح فيا بعد :

(أ) كلمات أصلها اسم فاعل وتأتى على الأنماط التالية :

١ ــ النمط cvcv

مثال :

حاج < haji

٢ ــ النمط cvcvv

مثال :

ولى < walii

٣ ــ النمط cvvcvv

مثال :

والى < waalii

٤ ــ النمط cvccv

مثال :

شاذ < shazzi

٥ ــ النمط cvccvv

مثال :

مفتى < muftii

٦ ــ النمط cvvcvcvv وهو الغالب :

الأمثلة :

دائم < daa?imii

فاجر < faajirii

فاسق < faasiqii

غالب < gaalibii

حاكم < haakimii

جاهل < jaahilii

كامل < kaamilii

كاذب < kaazibii

٧ ــ النمط cvcvcvcvv

مثال :

مثير الفتنة < mafitinii

مشرك < mushirikii

٨ ــ النمط cvccvcvv

مثال :

مشكل < mushkilii

٩ ــ النمط cvccvvcvv

الأمثلة :

القاضى < ?alkaalii

الوالى < ?alwaalii

١٠ ــ النمط cvccvvcvcvv

الأمثلة :

الخائن ?alhaa?inii

الحاصل ?alhaasiilii

المهاجر > التلميذ > ?almaajirii

التاجر > الثرى > ?attaajirii

الظالم ?azzaalumii

١١ ــ النمط cvccvcvccvcvv

مثال :

المبذر < ?almubazzarii

(ب) كلمات أصلها إسم مفعول وتأتى على الأنماط التالية

١ ــ النمط cvcvvcv

مثال :

مراد < muraadi

٢ ــ النمط cvccvvcv

مثال :

مستور < mastuuri

٣ ـ النمط cvcvcvvcv وهو الغالب :

الأمثلة :

مخلوق < mahaluuki
مقبول < makabuuli
مقصود < makasuudi
مكتوب < makatuubi
مصروف < masaruufi
مشغول < mashaguuli
مشهور < mashahuuri

٤ ـ النمط cvcvccvcvv

الأمثلة :

مدور < madawwarii
مكسر < makassarii
محرم < muharramii
مربع < murabba?ii

(ج) كلمات عربية مقترضة أصلها مصدر وتأتى على الأنماط التالية ، وهى الأكثر استعمالا فى اللغة :

١ ـ النمط cvccv

الأمثلة :

عيب < ?aybi
حد < haddi
نص < nassi
صوت < sawti
سر < sirri

٢ ـ النمط cvcvcvv

الأمثلة :

أمر < ?amarii
إذن < ?izinii
درس < darasii
فرض < faralii
لفظ < lafazii
سحر < sihrii

٣ ـ النمط cvcvvcv

الأمثلة :

بيان < bayaani
فساد < fasaadi
جدال < jidaali
جهاد < jihaadi
صلاة < salaati
سكون < sukuuni

٤ ـ النمط cvvcvvcv

الأمثلة :

تأكيد < taakiidi
تأثير < taasiiri
تأخير < taahiiri
تأريخ < taariihi
تأويل < taawiili

٥ ـ النمط cvcvcvvcv

الأمثلة :

تدبير < tadabiiri
تدليس < tadaliisi
تجوال < tajawaali
تقدير < takadiiri
تكاليف < takaliifi
تكرار < takaraari

أهل	<	?ahalii
عجمى	<	?ajamii
قبر	<	kabarii
سبع	<	subu?ii
ثلث	<	sulusii
ثمن	<	tumunii

٣ ـ النمط cvcvvcv

الأمثلة :

أساس	<	?asaasi
دليل	<	daliili
خراج	<	haraaji
زبيب	<	zabiibi

٤ ـ النمط cvccvcvv

الأمثلة :

أول	<	?awwalii
دفتر	<	daftarii
درهم	<	darhamii
خنصر	<	hinsarii
هيكل	<	haykalii
هودج	<	hawdajii

٥ ـ النمط cvccvvcv

الأمثلة :

إقليم	<	?ikliimi
بنديير	<	bandiiri
براد	<	barraadi
قفطان	<	kaftaani
صندوق	<	sunduuqi

٦ ـ النمط cvccvvcv

الأمثلة :

إنكار	<	?inkaari
انزال	<	?inzaali
تفسير	<	tafsiiri
تلقين	<	talqiini
ترتيب	<	tartiibi
توحيد	<	tawhiidi

٧ ـ النمط cvcvccvcvv

الأمثلة :

تعامل	<	ta?ammalii
تعنت	<	ta?annutii
تطوع	<	tadawwu?ii
تلوم	<	talawwamii
تصرف	<	tasarrufii
توكل	<	tawakkalii

(د) كلمات أصلها اسم جامد وتأتى على الأنماط التالية وهى أكثر الأنماط شيوعاً فى اللغة :

١ ـ النمط cvccv

الأمثلة :

عرض	<	?irlii
حرف	<	harfi
جنس	<	jinsi
مسك	<	miski

٢ ـ النمط cvcvcvv

الأمثلة :

عنب	<	?inabii

(هـ) كلمات أصلها صفة وتأتى على الأنماط التالية وهى أكثر الأنماط شيوعاً :

١ ـ النمط cvcvvcv

الأمثلة :

أمين < ?amiini

عنيد < ?aniidi

بخيل < bahiili

بليد < baliidi

جميل < jamiili

كريم < kariimi

ضرورى < laruuri

٢ ـ النمط cvcvccv

الأمثلة :

عدو < ?aduwwi

مهم < muhimmi

ويلاحظ مما سبق أن حركة الكسرة تطول وتقصر فى التتابعات التالية :

١ ـ التتابع cvcc ـ فى نهاية الكلمة تسود فى نهايته حركة الكسرة القصيرة على النحو التالى :

عدو < ?aduwwi

العرش < ?al?arshi

المسك < ?almiski

حد < haddi

خط < haḍdi

مهم < muhimmi

ملك < mulki

سر < sirri

٢ ـ التتابع cvvc ـ فى نهاية الكلمة تسود فى نهايته حركة الكسرة القصيرة على النحو التالى :

النور < ?annuuri

حال < haali

جواب < jawaabi

متاع < mataa?i

صداق < sadaaki

٣ ـ التتابع cvc ـ فى نهاية الكلمة تسود فى نهايته حركة الكسرة الطويلة على النحو التالى :

أصل < ?asalii

العجب < ?al?ajabii

بدل < badalii

بحر < baharii

مدد < madadii

ثمن < samanii

شكله < حركة < shakalii

ثمن < tumunii

زمن < zaamanii

٤ ـ يأتى التتابع ccii ـ أو cvvcii فى نهاية الكلمة المقترضة إذا كانت تنتهى بياء النسب على النحو التالى :

هندى < hindii

سنى < sunnii

بخارى < bunkaarii

هوائى < hawaa?ii

روحانى < rawhaanii

وقد شذ عما سبق الكلمات التالية :

العار	<	la?aarii
مشاهد	<	masaydii

٣ ـ حركة الضمة :

تأتى حركة الضمة فى نهاية عدد محدود من الكلمات على النحو التالى :

(أ) كلمات أصلها مصدر وتأتى على الأنماط التالية :

١ ـ النمط cvcvcv

الأمثلة :

حقد	<	hiqidu
جمع	<	jama?u
نقص	<	naqasu
يأس	<	ya?asu

٢ ـ النمط cvccv

الأمثلة :

بيت	<	baytu
فرق	<	farqu
صلح	<	sulhu
سم	<	sammu
شرك	<	shirku
ظلم	<	zulmu

٣ ـ النمط cvcvvcv

الأمثلة

أمان	<	?amaanu
فداء	<	fidaa?u
قراءة	<	karaatu

٤ ـ cvccvvcv

مثال

التعب	<	?attaabu

٥ ـ النمط cvccvcvvcv

مثال :

السلام	<	?assalaamu

(ب) كلمات أصلها اسم جامد وتأتى على الأنماط التالية ؛

١ ـ النمط cvcvcv

مثال :

نحو	<	nahawu

٢ ـ النمط cvcvvcv

مثال :

سماء	<	samaa?u

٣ ـ النمط cvvcvvcv

مثال :

آلات	<	?aalaatu

٤ ـ النمط cvccvvcvv

مثال :

الجيب	<	?ljiifuu

٥ ـ النمط cvccvcvcv

مثال :

الجزر	<	?algazaru

٦ ـ النمط cvcvccvcv

الأمثلة :

زبرجد	<	zabargadu
زمرد	<	zumurrudu

٤ ـ السكون :

تنتهي بعض الكلمات العربية المقترضه في لغة الهوسا ، بصوت صامت . وأكثر هذه الكلمات مقترض من اللهجة العامية ، وأكثرها ينتهي بصوت النون أو الراء حيث يشيع استعمال هذين الصوتين كأداة لربط بعض الكلمات ببعضها في حالات معينة : وقد أمكن تصنيف الأصوات الصامته في نهاية الكلمات المقترضة على النحو التالي :

١ ـ صوت النون :

(أ) يأتي في حالة اقتراض الكلمة منتهية بنون التنوين كما هو واضح في الأنماط الآتية :

١ ـ النمط cvccvn

الأمثلة :

باتاً < battan
حقاً < hakkan
حياً < hayyan
خيراً < hayran
شيئاً < shay?an

٢ ـ النمط cvcvcvn

الأمثلة :

أبداً < ?abadan
عجباً < ajaban
دفعاً < dafa?an
مثلاً < masalan

٣ ـ النمط cvcvvcvn

الأمثلة :

هنيئاً < hanii?an
مثال < misaalin
مراراً < muraaran

٤ ـ النمط cvvcvcvn

مثال :

واضحاً < waalihan

٥ ـ النمط cvvcvvcvn

مثال :

آباد < ?aabaadin

٦ ـ النمط cvccvcvn

مثال :

شرمداً < sarmadan

٧ ـ cvvccvcvn

الأمثلة :

كافة < kaaffatan

٨ ـ النمط cvvcvcvcvn

مثال :

ساعتئذ < saata?izin

(ب) تأتي في نهاية العقود من عشرين إلى تسعين على النحو التالي :

٢٠ < ?ishriin
٣٠ < talatiin
٤٠ < ?arba?iin
٥٠ < hamsiin

٦٠ < sittiin

٧٠ < saba?iin

٨٠ < tamaniin

٩٠ < tas?iin

(ج) كلمات تنتهي بصوت النون وتأتي على الأنماط التالية :

١ ـ النمط cvcvn

مثال :

مثلا < kaman

٢ ـ النمط cvvcvn

الأمثلة :

بين > خلف > baayan

لكن laakin

٣ ـ النمط cvccvvn

الأمثلة :

رمان < rummaan

سلطان < sulḍaan

شيطان < shayḍaan

زيتون < zaytuun

٤ ـ النمط cvccvcvvn

مثال :

ترجمان < turjumaan

٥ ـ النمط cvcvcvvcvn

مثال :

زعفران < za?afaraan

٢ ـ صوت الراء :

وتأتي الكلمات على الأنماط التالية

١ ـ النمط cvr

مثال :

مر < mur

زور < zur

٢ ـ النمط cvcvr

الأمثلة :

بخور < bafur

مثل < kamar

سكر < sukar

٣ ـ النمط cvvcvvr

مثال :

سحور < saahuur

٤ ـ النمط cvccvr

الأمثلة :

أكبر < ?akbar

عسكر < ?askar

٥ ـ النمط cvcvcvr

مثال :

الظهر < ?azahar

٦ ـ النمط cvcvcvcvr

مثال :

مختصر < muhutalar

٣ ـ كلمات تنتهي بصوت الباء :

الأمثلة :

الكذب < ?alkazib

عنب < ?anab

الأدب < ladab

صدف < sadab

٤ ـ كلمات تنتهى بصوت التاء :

الأمثلة :

فقط < fakat

تحت < tamat

٥ ـ كلمات تنتهى بصوت السين .

الأمثلة :

البرص < ?albaras

القراقيش < ?algaragiis

الخميس < ?alhamiis

الخبز < ?alkubus

بس < bas

مقدس < makadas

٦ ـ كلمات تنتهى بصوت اللام .

الأمثلة :

بطال < battaal

فلفل < filfil

فجل < fijil

فى الأزل < fil?azal

رطل < ratal

ريال < riiyaal

خشب الصندل < sandal

زوال < zawwal

٧ ـ كلمات تنتهى بصوت الميم :

الأمثلة :

حرم < haram

الأمام < liimaam

الخلاصــة :

خلاصة البحث أن الكلمات العربية المقترضة فى لغة الهوسا ، تنقسم من حيث الحركة النهائية إلى قسمين :

القسم الأول : وهو أسماء الأعلام وتسود حركة الضمة القصيرة فى نهايتها ، فيما عدا الأسماء التى تنتهى بتاء التأنيث أو ألف التأنيث الممدودة حيث تبقى حركة الفتحة بعد حذف التاء ، وحركة الفتحة الطويلة بعد حذف الهمزة ، أو أسماء الأعلام التى وردت فى القرآن الكريم كثيراً فى حالة النصب بالفتحة ، بينما تأتى الأعلام التى تقع فى موقع المضاف إليه منتهية بحركة الكسرة وكذلك الأعلام التى تنتهى بحركة الكسرة الطويلة .

أما القسم الثانى وهو الكلمات التى ليست بأسماء أعلام فتسود فيها حركة الكسرة الطويلة أو القصيرة حسب حركة المقطع قبل الأخير من الكلمة . ففى حالة وجود التتابع cvcc — أو cvvc — تأتى حركة الكسرة القصيرة فى نهاية الكلمة ، أما فى حالة وجود التتابع cvc — فتسد حركة الكسرة الطويلة فى نهاية الكلمة : أما التتابعان ccii — و cvvcii فيأتيان إذا كانت الكلمة تنتهى بياء النسب :

أما حركة الفتحة فتأتى فى نهاية الكلمة العربية المقترضة غير مشروطه فى كلمات معدودة ، وتأتى مشروطه فى حالات كثيرة وهى الحالات الآتية :

١ — فى نهاية الكلمات المبنية على الفتحة مثل الفعل الماضى وبعض الأدوات والظروف وحروف الجر ؛

٢ — فى حالة انتهاء الكلمة بتاء التأنيث المحدودة ، حيث تحذف التاء فى الحالة الأولى والهمزة فى الحالة الثانية وتبقى حركة الفتحة السابقه على المحذوف ؛

٣ — فى حالة حذف المقطع الأخير من الكلمة ، وكانت الحركة السابقة على المقطع المحذوف هى حركة الفتحة ؛

٤ — الكلمات المنتهية بالألف المقصورة ؛

وإذا كانت حركة الضمة تسود فى نهاية أسماء الإعلام إلا أنها تأتى فى نهاية عدد محدود جداً من الكلمات الأخرى ، شأنها فى ذلك شأن الكلمات المنتهية بصوت صامت ؛

ويمكن القول أن الكلمات التى تنتهى بحركة الفتحة والسكون تعتبر دليلا على انتقالها عن طريق العامية وليس عن طريق اللغة العربية الفصحى .

مصطفى حجازى السيد
الأستاذ بمعهد البحوث والدراسات
الافريقية بجامعة القاهرة



ظاهرة الإعلال والإبدال في العربية بين القدماء والمحدثين

(٢)

للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف

ثالثاً : حروف الإعلال والإبدال :

إبدال الحروف بعضها من بعض — بمعناه الواسع — يقع على أنواع مختلفة يمكن أن نصنفها على الوجه الآتي :

١ — الإبدال التصريفي .

٢ — الإبدال اللهجي .

٣ — الإبدال الشاذ .

٤ — إبدال الضرورة الشعرية.

وكل منها في حاجة إلى شيء من التفصيل على أن الذي يعنينا من هذه الأنواع هو النوع الأول أي البدل التصريفي وها هي هذه الأنواع :

(أ) الإبدال التصريفي :

وهو الذي تبدل الحروف فيه بعضها من بعض لعلة تصريفية ، أي أن البدل فيها يخضع لقوانين صوتية خاصة ، وهذا النوع تنطبق قوانينه على اللغة المشتركة [١] كلها ولذلك يمثل فيها ظاهرة تستحق الدراسة ، وقد حدده الرضي فيما نقله عنه الأشموني بأنه هو « مالو لم يبدل أوقع في الخطأ أو مخالفة الأكثر ، فالموقع في الخطأ كقولك في : مال : مول ، والموقع في مخالفة الأكثر كقولك في سقاءة : سقاية [٢] ».

والحروف التي يقع فيها هذا النوع ثمانية أحرف هي : الهمزة والواو والألف والياء ، والدال والطاء والتاء والميم . وقد جمعها ابن مالك في كتابه تسهيل الفوائد في قوله «طويت دائما [٣] » ووصف هذه الحروف بأنها ضرورية للتصريف ، أي أنها هي التي تقع

---

(١) « اللغة المشتركة » مصطلح بين دارسي اللغة المحدثين يقصد به اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، وقيل بها الشعر الجاهلي وهي اللغة التي يفهمها كل عربي من قبيلة قد تتخاطب بلهجة تتفق أو تختلف مع اللهجة الأم أي اللغة المشتركة .

(٢) انظر : شرح الأشموني ٤-٢٨٣ .

(٣) انظر : تسهيل الفوائد ص ٣٠٠ وقد أشار ابن مالك مرة أخرى إلى هذه الحروف بعبارة زاد فيها الهاء وذلك في ألفيته الشهيرة إذ يقول : « أحرف الإبدال هدأت موطيا » وذلك لأن الهاء تبدل من التاء في الوقف ، فإذا وقفت على كلمة مثل : فاطمة ومسلمة ومجتهدة إلى آخره قلبت تاء التأنيث في الوقف هاء ، ومجال دراسة هذه الحالة هو باب الوقف .

تحت طائلة القواعد الصرفية بمعنى أن يقال مثلا: إذا وقعت تاء الافتعال بعد حرف من حروف الإطباق قلبت طاء مثل اصطبر فهذه قاعدة عامة لا تتخلف في كل صيغ الافتعال، وكأن يقال مثلا: إذا وقعت الواو أو الياء عينا لاسم فاعل فعل ثلاثي أعلت في ماضيه قلبت همزة مثل: قائل وبائع، فهذه أيضا قاعدة لا تتخلف في كل اسم فاعل توافر في ماضيه هذا الشرط، وهكذا:

ويستطيع المتكلم باللغة أن ينطق بكل ما حدث فيه هذا الضرب من الإبدال أو الإعلال دون أن يقوم في نفسه سببه أو يعرف علته، لأنه ينطق باللغة على عادته وكما سمعها، والذين استخلصوا هذه القواعد هم الصرفيون، والغرض من هذه القواعد — كما يقول أبو علي الفارسي — إنما هو ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها ويستوي من ليس بفصيح ومن هو فصيح[1].

وبيان ذلك أن المتكلم بالعربية إذا صاغ اسم الفاعل من قام قال: قائم، ولكن غير المتكلم بها ممن يحاولون تعلمها لا يجري ذلك على لسانه دون أن يتعلم أن عين اسم الفاعل إذا كانت واواً — كما في هذا الفعل — تقلب همزة، فالقواعد التصريفية الخاصة بهذا النوع من أنواع الإبدال إنما هي لوصف خصائص هذه الظاهرة فتعين المتكلم بالعربية على تفسيرها، وتعين المتعلمين لها على كيفية النطق وإجادتها.

(ب) النوع الثاني هو ما يمكن أن يسمى «الابدال اللهجي»:

ونقصد به ذلك النوع الذي لا يخضع لقاعدة تصريفية في اللغة المشتركة، بل يخضع لمادة نطقية خاصة بأبناء لهجة معينة ويطرد في هذه اللهجة المعينة دون أن يتمكن من التسرب إلى مستوى اللغة المشتركة بل يظل مقصوراً على استعمال هذه اللهجة فحسب:

ومن هذا النوع إبدال الياء المشددة جيما في الوقف كقول الراجز:

خالي عُوَيْفٌ وأبو عِلِجّ

المطعمان اللحمَ بالعَشِجّ

وبالغداة كتل البرنِجّ

يُقْلَعُ بالوَدِّ وبالصِّيصِجّ[2]

وهذه الظاهرة — وأعني بها إبدال الياء المشددة جيما — من خصائص لهجة «قضاعة» وتسمى «العجعجة» أو «عجعجة قضاعة» وربما أبدلوا الجيم من الياء في غير الوقف كقولهم في «الأيِّل»: الأجِّل، وقد يبدلون

(١) ابن جني: المنصف شرح التصريف ١/٢٧٩.

(٢) أبو علج: أبو علي، العشج، العشي، البرنج: البرني نوع من التمر، الصيصج: الصيصي، وهو قرن البقر، والكتل: جمع كتلة وهي القطعة المجتمعة.

الياء غير المشددة جيا أيضا كقول الراجز :

لاهُمَّ إن كنتَ قبلتَ حجتجْ
فلا يزال شاحجٌ يأتيكَ بجْ
أقمرُ نهّاتٌ ينزّى وفرتجْ[1]

فالياء فى كل من : «حجتى ووفرتى وبى» غير مشددة لأنها ياء المتكلم ومع ذلك أبدلت جيما ؛

ومن هذا النوع من الإبدال اللهجى «العنعنة» فى لهجة قيس وتميم ، وهى إبدال الهمزة المبدوء بها عينا ، فيقولون فى إنك عنَّك وفى أسلم : عسلم ، وفى أذّن : عذّن ؛

ومن هذا النوع « الفحفحة» فى لغة هذيل وهى جعل الحاء عينا فى هذه اللهجة ، وقد قرئ قوله تعالى : « حتّى حين »«على لهجتهم «عتى عين » ولعل هذا ضرب من المبالغة فى نطق الحاء ، لأن العين أدخل فى الحلق من الحاء ؛

ومن ذلك أيضا « الكشكشة » فى لهجة تميم وهى إبدال كاف الخطاب للمؤنثة شينا كقولهم فى خطاب المؤنثة المفردة : ما الذى جاء بش ؟ يريدون : بك ، وقراءة بعضهم (قد جعل ربُّشِ تحتشِ سَرِيًّا[2]) .

ومن ذلك أيضا « الكسكسة » فى لهجة بكر وهم يبدلون كاف الخطاب للمؤنثة سينا كقولهم فى خطاب المؤنثة : أبوس بدلا من : أبوك ، وفى أمك يقولون : أمس ؛

وهذا الضرب من الإبدال اللهجى كثير متعدد وليس هنا مجال دراسته أو عرضه[3] لأن هذا النوع — كما يقول الرضى — «جدير بأن يذكر فى كتب اللغة لا فى كتب التصريف[4]» فليس هذا النوع — إذن — من مباحث الإبدال التصريفى الذى نحن بصدد دراسته ؛

(ج) والنوع الثالث هو الابدال الشاذ :

وهذا النوع مثل سابقه من حيث إنه لا يخضع لقاعدة تصريفية خاصة بمعنى أنه لا يمكن معه القول بأنه كلما كان كذا كان كذا ، غير أنه لا يرتبط باستعمال لهجى خاص أى أن ، كتب اللغة لم تنقله لنا بوصفه استعمالا للهجة قبيلة مخصوصة ، ولذلك فهو لا يطرد فى بابه بل يتوقف فيه على حدود ما ورد ، ولا يمكن القياس عليه أو التوسع فيه ؛

---

(١) الشاحج : البغل ، الأقمر : الأبيض ، النهات : الصياح والنهاق ، ينزى : يحرك ، والوفرة : شعر الرأس إذا بلغ شحمة الأذن .

(٢) الآية ٢٤ من سورة مريم (فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) أنظر فقه اللغة للثعالبى ١١٤ ، ١١٥ (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٣ م) وشرح الأشمونى ٤/٢٨٢ .

(٣) انظر : سر الصناعة ١/٢٣٤ المزهر للسيوطى ١/٢٢١ ، والصاحبى لابن فارس ص ١٩/٢٧ ولهجات العرب للمرحوم أحمد تيمور للوقوف على عدد من هذه اللهجات .

(٤) انظر هذه العبارة — وقد نقلها الأشمونى من شرح الكافية للرضى — فى الأشمونى ٤—٢٨٢ .

ومن ذلك إبدال اللام من النون فى كلمة أصيلان فى مثل قول النابغة :

وقفت فيها أصيلانا أسائلها
عيّت جوابا وما بالربع من أحد

يقول سيبويه « وقد أبدلوا اللام من النون وذلك قليل جدا ، قالوا : أصيلال وإنما هو أصيلان »[1] ؛

ومن ذلك إبدال اللام من الضاد فى قول منظور بن حبة الأسدى :

لما رأى أن لا دَعَهْ ولا شبع
مال إلى أرطاة حقف فالطجع

وأصل « فالطجع » : فاضطجع ، أبدلت الضاد لاما إبدالا شاذا .

من ذلك إبدال الهمزة هاء كقولهم هياك فى إياك ، و« لهنك قائم » فى « لإنك قائم[2] » ، وهرقت الماء فى : أرقت الماء وهردت الشيء فى أردت الشيء ، وهرحت الدابة فى أرحت الدابة ، يقول سيبويه : « وقد أبدلت (الهاء) من الهمزة فى هرقت وهمرت وهرحت الفرس تريد أرحت » ويقول أيضا : « ويقال إياك وهياك »[3] .

(د) النوع الرابع فهو ابدال الضرورة الشعرية :

وهو الذى يقع فى الشعر من أجل إقامة الوزن أو القافية ، ويلاحظ أن الأمثلة التى ساقها الصرفيون فى هذا المجال يقع فيها الإبدال فى الحرف الأخير من الكلمة بأن يبدل ياء ، وذلك كما فى قول النمر بن تولب اليشكرى :

لها أشارير من لحمٍ تتمره
من الثعالى ووخزٌ من أرانيها

فقد أبدل من الباء فى كلمة الثعالب ياء ومن الباء فى كلمة أرانبها ياء كذلك .

وقد أبدلت العين من كلمة « الضفادع » ياء فى قول الشاعر :

ومنهل ليس له حوازقُ
ولضفادى جمة نقانق

وقد أبدلت الحروف الأخيرة من الكلمات : الثالث والخامس والسادس ياء فى الشواهد الآتية :

قد مرّ عامان وهذا الثّالى
وأنت بالهجرانِ لا تُبالى

وقول الآخر :

مضت ثلاث سنين منذ حلّ بها
وعام حلّتْ وهذا التابعُ الخامى

---

(١) سيبويه : ٢-٣١٤ .

(٢) فى مثل هذا التركيب تتأخر اللام إلى خبر إن وتسمى اللام المزحلقة ، ولكنهم لم يبالوا بهذا لاختلاف الصورة فى « لهنك قائم » .

(٣) سيبويه ٢-٣١٣ .

وقول الآخر :

إذا ما عُدّ أربعة فُسالٌ
فزوجك خامس وأبوك سادى[1]

واعتبار هذا النوع من إبدال الضرورة الشعرية هو رأى سيبويه وبعض النحاة الذين اتبعوه ، ويفسر سيبويه ذلك بأن الشاعر احتاج فى قوله :

ولضفادى جمة نقانق

إلى حرف يكون ساكنا من أجل إقامة الوزن ولما كانت العين فى كلمة (ولضفادع) لا يصح أن تكون ساكنة ، لأنها ليست فى الوقف ، بل يجب أن تكون هنا مجرورة فقد أبدلها الشاعر ياء ، لأنها حرف يمكن أن يكون ساكنا[2] ، ويقول المبرد : «واعلم أن الشعراء إذا اضطروا إلى إسكان حرف مما هو متحرك فلم يصلوا إلى ذلك أبدلوا منه الياء إن كانت قبله كسرة ، لأن الياء إذا كانت كذلك (أى قبلها الكسرة) لم تحرك فيسلم الإعراب ويصح الوزن[3]»

ويرى بعض النحاة أن هذا النوع ليس من الإبدال للضرورة الشعرية ، بل هو من الترخيم فى غير النداء للضرورة .

ويرى فريق ثالث أن هذا النوع ليس من إبدال الضرورة الشعرية وليس من الترخيم فى غير النداء للضرورة ، ولكنه من « البدل غير المقيس» أى من البدل الشاذ فهم بذلك يدرجون هذا النوع تحت النوع السابق .

ويرى فريق رابع أن هذه الكلمات صيغ مستعملة بجوار الصيغ الأخرى فكل من الثالث والثالى ، والخامس والخامى ، والسادس والسادى كلمة مستعملة جنب الأخرى ، دون أن يكون ثمة بدل ومبدل منه ، ولعل الإبدال كان فى فترة سابقة ، بحيث نسيت ولا يمكن معها أن تعد إحداهما أصلا والأخرى فرعا ، وإلى هذا الرأى ذهب ابن السكيت[4] ، ولذلك عده ابن سيده فى المخصص[5] لغة .

ولعلك قد أدركت بعد عرض هذه الأنواع الأربعة من الإبدال أن النوع الأول منها وهو الإبدال التصريفى هو الذى يندرج تحت طائلة علم الصرف ، ولذلك يجب الرجوع إليه مرة أخرى لنتعرف حروفه التى يقع فيها هذا النوع من الإبدال ونحاول أن ندرس خصائصها .

أولا : حروف الاعلال :

بالتعريف الذى سنأخذ به فى الإعلال تكون حروف الإعلال هى : الألف والواو والياء والهمزة .

وللصرفيين العرب نظرة خاصة إلى الهمزة إذ يلحقونها بأحرف العلة الثلاثة ، فهم

(١) انظر هذه الشواهد فى المفصل للزمخشرى ٣٦٤ وما بعدها وهمع الهوامع للسيوطى ١٥٧/٢ .
(٢) انظر سيبويه ٣٤٤/١ . (٣) المقتضب للمبرد : ٢٤٧/١ .
(٤) انظر إصلاح المنطق ٣٠١ . (٥) أنظر : الدرر اللوامع ٢١٢/٢ . (٦) سيبويه ١٦٥/٢ .

يقولون إنها أخت لحروف العلة اللاتى هن أمهات البدل والزوائد وكان الخليل بن أحمد يسميها الحروف الهوائية ويقول سيبويه : « فأبدلوا هذه الحروف التى منها الحركات لأنها أخوات، وهى أمهات البدل والزوائد، وليس حرف يخلو منها أو من بعضها، وبعضها حركاتها ، وليس حرف أقرب إلى الهمزة من الألف ، وهى إحدى الثلاث ، والواو والياء شبيهة بها أيضا مع شركتهما أقرب الحروف منها[1] ونص سيبويه يجعل هذه الأصوات الأربعة (الألف والواو والياء والهمزة) أخوات ولعل هذا مما يسوغ البدل بينها .

والواو والياء والألف تسمى حروف المد واللين ، وهى متقاربة المخرج ، إذ ينطلق فى نطقها الهواء خارجا من الرئتين لايعترضه شيء ولايشكل نطق كل منها إلا حركة الفم ، ويمكن مع التراخى بعض الشيء فى نطق إحداها أن تتحول إلى الأخرى يقول ابن جنى فى وصف مخارج هذه الأحرف الثلاثة : « والحروف التى اتسعت مخارجها ثلاثة : الألف ثم الياء ثم الواو ، وأوسعها وألينها الألف ، إلا أن الصوت الذى يجرى فى الألف مخالف للصوت الذى يجرى فى الياء والواو ، والصوت الذى يجرى فى الياء مخالف للصوت الذى يجرى فى الألف والواو .

والعلة فى ذلك أنك تجد الفم والحلق فى ثلاث الأحوال مختلف الأشكال .

أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر . وأما الياء فتجد معها الأضراس سفلا وعلوا قد اكتنفت جنبتى اللسان وضغطته، وتفاج (أى تباعد) الحنك عن ظهر اللسان، فجرى الصوت متصعدا هناك ، فلأجل تلك الفجوة ما[2] استطال .

وأما الواو فتَنْضمّ لها معظم الشفتين وتدعُ بينهما بعضَ الانفراجِ ليخرج فيه النفس ويتصل الصوت .

فلما اختلفت أشكال الحلق والفم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف الصدى المنبعث من الصدر[3] .

فالأصوات الثلاثة مخرجها واحد وصفاتها متقاربة ، والهمزة أخت لها كما يقرر سيبويه ولهذا السبب ساغ البدل بينها ، وسوف نحاول أن نتناول كل واحد منها على حدة .

---

(١) أنظر العين ١/٦٤ .
(٢) (ما) هنا زائدة ، ويكثر هذا فى أسلوب ابن جنى .
(٣) ابن جنى : سر الصناعة ١/٩٢٨ .

١ – الألف :

صوت الألف لايكون إلا حرف مد ، ولايقبل الحركة بحال ، لأنه هو نفسه – كما يرى علماء اللغة المحدثون والقدماء أيضا – فتحة طويلة ؛

والصرفيون العرب يرون أن الألف حركة طويلة ، وذلك لأنهم يقولون إن الحركات (الفتحة والكسرة والضمة) أبعاض حروف المد واللين ، غير أنهم لايعاملونها على أنها كذلك ، وذلك لأن الطبيعة الاشتقاقية للغة العربية ، وبناء الكثير من كلماتها على أصول ثلاثية قد تكون الألف واحدا منها، وصيرورة هذه الألف فى تقليبات الكلمة إلى واو أو ياء تجعل من الصعب القول بأن حروف المد واللين لا تكون إلا حركات فى حالة كونها ممدودة ، فإذا قلنا مثلا : إن (باع) مكونة من مقطعين :

ب + فتحة طويلة + ع + فتحة قصيرة

فإن هذا – مع صحته صوتيا – يصطدم مع التقليبات الأخرى مثل : البَيْع والبَيَّاع والبيُع ، والبائِع ، وبيِعَ ، وتبَايع ، وبَايِع ، ومُبَايَعة وغيرها من الصيغ المأخوذة من مادة (البيع) أو من الجذر الثلاثى (ب ؛ ى ؛ع) ؛

نحن – إذن – مضطرون أمام هذه الخاصية الاشتقاقية لما يسمى بالأسرة اللغوية للجذر وتفريعاته فى اللغة العربية أن نقول إن الألف الموجودة فى (باع) ليست إلا أصلا من أصول الكلمة وهى منقلبة عن ياء؛

ولاتكون الألف نفسها أصلا من أصول الكلمة فإذا وجدت أصلا فى كلمة ما ، فإنها حينئذ تكون منقلبة عن واو أو عن ياء ، فالألف فى نحو: قال ، صام ، قام ، طال ، طاف ، راح ، صال ، جال ، أصلها الواو:

والألف فى نحو: باع ، سال ، مال ، بات ، صار ، جاء أصلها الياء :

والألف في نحو : دعا ، دنا ، رجا ، سما ، نما أصلها الواو ؛

والألف فى نحو : سعى ، رعى ، بنى ، هذى أصلها الياء ؛

وقد انقلبت الواو والياء فى كل هذه الكلمات ألفا ، لأن الواو حرف من حروف المادة المعجمية لكل الكلمات التى يرى الصرفيون أن الألف منقلبة عنها فيها ، وكذلك الياء ؛

وخلاصة هذا كله أن الألف فى نظر علماء الصرف قد تكون أحد أصول الكلمة غير أنها تكون منقلبة عن ياء أو عن واو ، وقد تكون زائدة فى مثل : قاوم وساوم وبايع وقائم الخ ، ولا يمنعهم هذا من النظر إليها على أنها فتحة طويلة أخذت منها الحركة القصيرة وهى الفتحة لأن الحركات أبعاض حروف المد واللين ،

فالفتحة بعض الألف ، والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة[1] .

٢ ، ٣ – الواو والياء :

للواو والياء حالتان :

أولاهما : أنهما قد يكونان حركتين طويلتين كما في : أدعو وأرجو ونسمو ونشكو ويرمى ويجرى ويهدى والداعى والقاضى فكل من الواو والياء في هذه الأمثلة عبارة عن حركة طويلة فالواو ضمة طويلة ، والياء كسرة طويلة ، ولا فرق بين الكسرة القصيرة والكسرة الطويلة إلا كمية الطول ، وكذلك لا فرق بين الضمة القصيرة والضمة الطويلة إلا كمية الطول فحسب .

ثانيهما :

هي أن كلا من الواو والياء قد تعامل معاملة الأصوات الصامتة وذلك إذا تحركتا في مثل وَلَد ، ويَكتب فكل من الواو والياء في المثال المذكور قائم بوظيفة يقوم بها الصوت الصامت فليست كل منهما في مثل المثال المذكور (حرف مد) أو حركة طويلة ومما يؤيد أن الواو والياء في هاتين الكلمتين (وَلَد – يَكتب) وأمثالهما تؤديان وظيفة الأصوات الصامتة أنهما – كالأصوات الصامتة تماما – متبوعتان بحركات ؛ أي أن الواو محركة بالفتحة وكذلك الياء فلا يمكن عدهما هما أنفسهما حركات في هذا المثال :

فإذا تحركت الواو والياء في مثل وَلَد ، وَعد ، وَثَب الخ ويَكتب ، يَترك الخ ، وكذلك إذا وقعتا ساكنتين في مثل حوْض ثوْب وبيْت وغيْظ فإنهما يكونان من الأصوات الصامتة ، يقول الدكتور كمال بشر : « ومعنى هذا أن الواو والياء في اللغة العربية من الأصوات الصامتة في سياقين صوتيين معينين هما :

١ – إذا أتبعت الواو والياء بحركة من أى نوع (أى إذا حركت كل منهما) :

٢ – إذا وقعتا ساكنتين وقبلهما فتحة :

ولكن يجب ألا ننسى أنهما في هاتين الحالتين لهما شبه نطقى بالحركات كما أن لهما شبها وظيفيا بالأصوات الصامتة – من جهة أخرى – ولهذا يطلق عليهما العلماء في هاتين الحالتين « أنصاف الحركات » ويرى الدكتور بشر أنه من الممكن أن يسميا أنصاف صوامت أيضا ولكن المصطلح الأول أولى لشهرته في الدراسات اللغوية وهو أيضا ما تعارف عليه الدارسون[2] .

---

(١) انظر سر صناعة الإعراب لابن جنى ١٩/١ .

(٢) انظر د . بشر : علم اللغة العام : الأصوات ٨٥ ، ٨٦ .

وسواء أكانت الواو والياء من الصوامت أم من الحركات فقد هيأتهما طبيعتهما الصوتية إلى إمكان التبادل بحيث تتحولان فى سياقات صوتية مختلفة إلى بعضهما أو إلى الألف أو الهمزة وفقا للتناسق الصوتى على ماسنرى فيما بعد.

٤ – الهمزة :

سبق لنا طرف من آراء النحاة القدماء فى الهمزة ، فبعضهم يرى الهمزة أختا لحروف العلة ، ونود أن نذكرهنا أن الخليل ابن أحمد يرى أن الهمزة حرف علة (١) أو هى شبيهة بحروف العلة ، ولذلك عندما تخفف تصير إلى أحد حروف العلة .

وصوت الهمزة ينتج من انطباق الوترين الصوتيين « الغشائيين » والغضروفين الهرميين فى الحنجرة انطباقا كاملا وشديدا بحيث لا يسمح للهواء بالمرور مطلقا فيحتبس داخل الحنجرة ثم يسمح له بالخروج على صورة انفجار .

يقول سيبويه عن الواو والياء والألف «وهذه الحروف غير مهموسات وهى حروف لين ومد ومخارجها متسعة لهواء الصوت وليس شىء من الحروف أوسع مخارج منها ولا أمد للصوت ، فإذا وقفت عندها لم تضمها بشفة ولا لسان ولا حلق كضم غيرها فيهوى الصوت إذا وجد متسعا حتى ينقطع آخره فى موضع الهمزة ، وإذا تفطنت وجدت مس ذلك ، وذلك قولك ظلموا ورَمَوْا وعمى وحُبْلى .

وزعم الخليل أنهم لذلك قالوا ظلموا ورموا فكتبوا بعد الواو ألفا . وزعم الخليل أن بعضهم يقول رأيت رجلأ فيهمز وهذه حُبْلأ وتقديرهما رجلعْ وحبلعْ : فهمز لقرب الألف من الهمزة حيث علم أنه سيصير إلى موضع الهمزة فأراد أن يجعلها همزة واحدة ، وكان أخف عليهم . وسمعناهم يقولون : هو يضربهأْ فيهمز كل ألف فى الوقف كما يستخفون فى الإدغام فإذا وصلت لم يكن هذا ، لأن أخذك فى ابتداء صوت آخر يمنع الصوت أن يبلغ تلك الغاية فى السمع(٢) » .

وقال الليث : قال الخليل :

« فى العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحياز ومخارج وأربعة هوائية وهى الواو والياء والألف اللينة والهمزة .

فأما الهمزة فسميت حرفا هاويا لأنها تخرج من الجوف فلا تقع فى مدرجة من مدارج اللسان ولا من مدارج الحلق ولا من مدارج اللهاة إنما هى هاوية فى الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف ، وكان يقول كثيرا : الألف اللينة والواو والياء هوائية أى أنها فى الهواء(٣) » .

---

(١) أنظر العين ١/٦٤ ، ٦٥ (٢) سيبويه ٢/٢٨٥

(٣) العين ١/٦٤

وهذه النصوص تكشف فهم القدماء للقرابة الصوتية بين هذه الأحرف ولعل هذا ما سهل التبادل بينها وتغييرها ببعضها دون أن يترتب على ذلك تغيير في معنى الكلمة الواحدة.

وقد اختلف الدارسون المحدثون فى وصف هذا الصوت بالجهر أو بالهمس ، وبعضهم قال عنه إنه صوت لا هو بالمهموس ولا بالمجهور[1] .

ومهما يكن من اتفاق هؤلاء أو اختلافهم فإن الذى يعنينا هنا أن هذا الصوت يقع تحت طائلة الإبدال أو الإعلال فيتحول إلى ياء أو ألف أو واو كما تتحول هذه الأحرف إليه فى سياقات صوتية مختلفة لم تنل من هؤلاء المحدثين الاهتمام المناسب .

ثانيا : حروف الإبدال :

حروف الإبدال — بالمفهوم الذى سنتناوله به — هى : الدال والطاء والتاء والميم ، وقد ينضم إليها فى بعض الحالات الذال والزاى والظاء فى حالة الإدغام فحسب .

ولكننا سنتناول بالتفصيل الحروف المشهورة منها وهى الدال والطاء والتاء وأما الميم فإن لها موقعا خاصا[2] .

(١) التاء :

التاء صوت (أو حرف) ينقلب إلى حروف أخرى كالطاء والدال ويكون ذلك فى صيغة الافتعال وما يتفرع منه إذا كانت فاء الافتعال حرفا معينا ، كما أن التاء تبدل منها الواو والياء فى هذه الصيغة أيضا أى صيغة الافتعال ، وما يتفرع منها . فإبدال التاء طاء أو دالا وإبدالها من الواو والياء خاص بصيغ الافتعال وتقلب التاء طاء أو دالا للتناسب الصوتى وتبدل من الواو أو الياء تسهيلا للنطق وتخفيفا فيه .

وقد وصفت التاء بأنها صوت أسنانى لثوى انفجارى مهموس ، أما أنها صوت انفجارى فلأن الهواء يقف وقوفا تاما أثناء النطق بها عند نقطة التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة ويضغط الهواء مدة من الزمن ثم ينفصل اللسان فجأة تاركا نقطة الالتقاء فيحدث صوت انفجارى ، وأما أنه صوت مهموس فلأن الأوتار الصوتية لا تتذبذب حال النطق به ، ويلاحظ أن التاء هى النظير المرقق للطاء المستعملة فى الفصحى المعاصرة .

---

(١) انظر : د . تمام حسان مناهج البحث فى اللغة ١٠٣ ود . عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ود . إبراهيم أنيس الأصوات اللغوية ٧٢ ود . كمال بشر : الأصوات ١١٢ ود . عبد الصبور شاهين : القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ٢٤ ، ٢٥ ود . محمود السعران : علم اللغة ص ١٩٥

(٢) تبدل الميم من النون الساكنة إذا وقعت بعدها الباء مثل : من بعد ، وأنبئهم ولهذا رسمت فى المصحف العثمانى ميم صغيرة فوق النون إشارة للقارىء ، ويلاحظ أن الميم جمعت خصائص من الباء الشفوية والنون الأنفية ولذلك صلحت معبرا بينهما ، ويسمى هذا فى فن التجويد القرآنى « الإقلاب » .

(٢) الطــاء :

وصف القدماء هذا الصوت بأنه صوت مجهور ، فقد عدها سيبويه من الحروف المجهورة — وهى التى تتذبذب الأوتار الصوتية عند النطق بها — ويرى سيبويه أن الفرق بين الطاء والدال هو الإطباق فحسب إذ يقول « ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والظاء ذالا ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شئ من موضعها غيرها[١] » ، فلما كانت الدال صوتا مجهورا ، وكانت الطاء مشبهة لها فى غير الإطباق كانت الطاء صوتا مجهورا كذلك .

وقد وصف علماء اللغة المحدثون صوت الطاء بأنه صوت أسنانى لثوى انفجارى مهموس مفخم أو مطبق .

وقد وقف بعض الدارسين أمام وصف القدماء محاولا أن يلتمس له وجها ، وعلل ذلك بأحد ثلاثة أمور :

الأول : أن هؤلاء القدماء ربما أخطأوا فى الملاحظة ولا سيما أنهم لم يستخدموا إلا الملاحظة الذاتية التى لا تستند إلى أجهزة علمية أو غيرها ، فكانت الملاحظة الذاتية هى وسيلتهم الوحيدة .

الثانى : أن الطاء ربما كانت تنطق فى عصرهم بالطريقة التى وصفوها بها ثم حدث تطور فى نطق هذا الصوت حتى صار إلى ما نعرفه اليوم : أى أنه كان فى عصرهم مجهوراً ثم تطور النطق به حتى صار مهموسا .

الثالث : لعلهم كانوا يصفون صوتا يشبه صوت الطاء الذى نسمعه فى بعض لهجات الصعيد وفى نطق بعض السودانيين الآن وهو صوت طاء مشربة بالتهميز glattalization أى أننا نشعر عند نطقها بوجود عنصر الهمز فيها . ويتم نطق هذه الطاء بالطريقة التى تنطق بها طاؤنا الحالية بإضافة عنصر جديدهو إقفال الأوتار الصوتية حال النطق بها ومن ثم لا يمر الهواء خلال الحلق والفم ، وبالتالى يختلف ضغط الهواء فى هاتين المنطقتين وفى خارج جهاز النطق عنه خلف الأوتار الصوتية وفجأة تنفصل الأعضاء المشتركة فى نطقها بعضها عن بعض فيخرج الهواء المضغوط خلف الأوتار بقوة ملتقيا مع الهواء المندفع من الخارج فى الفم فنسمع طاء مهموزة glottalized نتيجة إقفال الأوتار الصوتية حال النطق بها[٢] .

والذى أراه أنه ينبغى ألا نغفل هنا ظاهرة الإبدال بين التاء والطاء وتحول التاء — وهى مهموسة — إلى طاء فى صيغة افتعل إذا كانت فاء الافتعال صوتا مطبقاً أو مفخما كالطاء

---

(١) سيبويه ٤٠٦/٢ وانظر سر الصناعة ٢٢٣/١ حيث يقول « اعلم أن الطاء صوت مجهور » وكذلك المقتضب للمبرد ١٩٥/١ حيث عد الأصوات المهموسة ولم يعد بينها الطاء .

(٢) أنظر د . كمال بشر : الأصوات ١٠٣ ، ١٠٤ .

والظاء والصاد والضاد فينبغي إذن أن تكون الطاء مهموسة أيضا ، إذ الحاجة إلى التفخيم فحسب ففي مثل اصطبر قلبت التاء طاء ، ولا تحتج هنا بأن هذه من الممكن أن تكون صيغة مستقلة ولا علاقة لها بالتاء ، لأننا نرى أن القوالب الصرفية ثابتة ومطردة وهذه التغييرات إنما تحدث لمناسبة الأصوات بعضها مع البعض الآخر عند انصبابها في القوالب الصرفية .

(٣) الدال :

الدال صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور ، وهو النظير المجهور للتاء ، وليس بينهما من فرق إلا أن الوترين الصوتيين يتذبذبان مع الدال أثناء النطق ولذلك قلبت تاء الافتعال دالا عند وقوعها بعد صوت بين أسناني مجهور مثل الذال أو لثوي مجهور كالزاي .

ولعلك لاحظت أن هذه الأصوات الثلاثة (التاء والطاء والدال) أصوات أسنانية لثوية انفجارية فهي متقاربة في المخرج والصفة والتاء والطاء مهموستان ولا فرق بينهما إلا الإطباق ، والدال مجهورة ، ولذلك قلبت التاء طاء بعد الأصوات المفخمة أي فخمت التاء فصارت طاء ، وقلبت التاء دالا بعد الأصوات المجهورة أي صارت التاء صوتا مجهورا ولا فرق بين التاء والدال إلا في الجهر فقط .

يقول ابن جني « فإن فاء افتعل إذا كانت زايا قلبت التاء دالا وذلك نحو : ازدجر ، وازدهى ، وازدار ، وازدان ، وازدلف ، وازدهف ونحو ذلك ، وأصل هذا كله : ازتجر وازتهى وازتار وازتان وازتلف وازتهف لأنه افتعل من الزجر والزهر والزور والزين والزلف والزهف ، ولكن الزاي لما كانت مجهورة وكانت التاء مهموسة وكانت الدال أخت التاء في المخرج وأخت الزاي في الجهر قربوا بعض الصوت من بعض فأبدلوا التاء أشبه الحروف من موضعها بالزاي وهي الدال فقالوا ازدجر وازدار[1] » ونص ابن جني واضح في بيان أن المناسبة الصوتية هي سبب الإبدال ، وهذا وقوع من الصرفيين القدماء على العلة الصحيحة .

رابعا : فلسفة الصرفيين في تناول هذه الظاهرة :

ينبغي أن يكون واضحا أن الصرفيين العرب لم يخلقوا هذه الظاهرة خلقاً ، ولا تكلفوا القول بها ارتجالا ، وذلك لأن مهمة الباحثين ينبغي أن تكون وصفا للظاهرة وتحديدا لها ثم وضعا للقواعد التي تحكمها على ما هي عليه دون تدخل منهم في مسارها لكنه يمكن القول بأن منهج الصرفيين العرب هو الذي استدعى الوقوف على هذه الظاهرة بالطريقة التي سلكوها معها ، وكان من الممكن

---

(١) ابن جني : سر صناعة الإعراب ١/٢٠٠ .

لو أنهم اتبعوا منهجا آخر ألا يكون ثمة ما يسمى إعلالا أو إبدالا (١).

ومن الحق أن نقرر بادىء ذى بدء أن مسلك الصرفيين العرب كان مسلكا منسجما مع طبيعة اللغة العربية وفهم أسرارها .

وبيان ذلك أن اللغة العربية لغة اشتقاقية كأخواتها الساميات (٢) بمعنى أن الكلمات فيها تلتقى كل مجموعة منها فى أسرة واحدة تنتمى إلى جذر ثلاثى فى أقل صورة ، فكل ثلاثة أحرف تكون مادة لعدد من الكلمات تتفق فى معنى أساسى وتزيد بعض هذه الكلمات معنى إضافيا على هذا المعنى الأصلى تبعا للصيغة التى تكون عليها هذه المادة فمثلا المادة (ف . ه . م) من الممكن أن تُصَبّ فى عدد من « الصيغ » أو القوالب ، مثل فَعِل(فهم) ويَفْعَل(يفهم) و(افْعَل)افهم وفَاعِل (فاهم) ومفعُول(مفهوم) وفَعَّال (فهام) وفعْل(فهم) وأفْعَلَ(أفهم)ويُفْعِل (يفهم)واستَفْعَل(استفهم)وتَفاعَل(تفاهم) إلى آخر ما يمكن أن تصب فيه هذه المادة من القوالب أو الصيغ الصرفية التى تتفق مع بعضها فى المعنى الأساسى الأول وهو الفهم ولكن كل صيغة منها لها معنى أو دلالة صرفية إضافية نابعة من اختلاف الصيغة أو القالب .

ومن الواضح أن بعض هذه الصيغ أفعال وبعضها الآخر أسماء وعلى عالم الصرف أن يحدد هذه الصيغ ويحصرها ويحدد صفات كل صيغة من هذه الصيغ ويبين صيغ الأفعال وصيغ الأسماء .. إلخ .

ونحن نرى أن علماء الصرف العرب قد قاموا بجهد كبير فى هذا المجال فحددوا صيغ الأفعال وصيغ الأسماء وبينوا الفروق الدقيقة بين كل صيغة وأخرى تحت ما سموه بمعانى حروف الزيادة ، وحروف الزيادة فى الواقع هى اللواصق التى تكسب البنية دلالة إضافية مع المعنى الأصلىَ .

وقد اطردت هذه النظرة واستقامت لهم لأن طبيعة اللغة مواتية لهذا الفهم . وعلى ذلك صنفت المعاجم العربية بحيث تذكر المادة اللغوية المكونة من ثلاثة أصوات أو حروف على الأقل ويندرج تحت هذه المادة جميع الصيغ الممكنة أو قل جميع القوالب التى يمكن أن تصب فيها هذه المادة الصوتية الثلاثية

---

(١) وكان ذلك يحدث لو أنهم لم ينظروا إلى اللغة على أنها لغة اشتقاقية تنتمى كل مجموعة من الكلمات فيها إلى جذر ثلاثى واحد مثلا .

(٢) يقرر كثير من الدارسين لفصيلة اللغات السامية أنها لغات اشتقاقية ويؤكد أن الأصوات التى يتألف منها أصل ما توجد مرتبة حسب ترتيبها فى هذا الأصل فى جميع الكلمات المشتملة على معناه فالأصوات الثلاثة (ق. ت. ل) مثلا التى يتألف منها الأصل الدال على معنى القتل توجد مرتبة بالشكل السابق فى جميع الكلمات المشتملة على هذا المعنى مثل (قتل) يقتل ، قاتل ، قتال ، مقتول ، قتيل ، إلخ (أنظر اللغات السامية لنولدكه ص ١٠ وتاريخ اللغات السامية لولفنسون ١٤ وفقه اللغة لعلى عبد الواحد وافى ١٣ ، ١٤ ط ٢) .

لتشكل بأشكال مختلفة تتفق فى معنى أساسى ويفترق بعضها عن بعض بفروق دقيقة مضافة إلى المعنى الأساسى عن طريق اختلاف الصيغ أو المقاييس أو الأبنية أو الموازين وإن شئت عن طريق المورفيمات أو اللواحق الصرفية بمعناها الأعم وقد سموا الجذر الأصلى بالمصدر «فالمصدر كالمادة والفعل كالمركب من الصورة والمادة وكذا اسم الفاعل والمفعول والموضع والآلة وجميع ما هو مشتق من المصدر»[1] « كما يقول الرضى » .

وقد كان من الضرورى استجابة لهذا المنهج الذى سلكه الصرفيون العرب أن يوجد ما سمى بالإعلال والإبدال ، وذلك أن الأصول الثلاثية التى يمكن وضعها فى صيغ مختلفة قد يكون بينها حرف علة مثل مادة (ق.و.ل) أو (ب.ى.ع) أو (د. ع . و) أو (س.ع .ى) إلخ .

فمادة (القاف والواو واللام) عند وضعها فى صيغة (فَعَلَ) ينبغى أن تكون (قَوَلَ) بواو مفتوحة – وهنا تخضع هذه الصورة (قَوَلَ) لقوانين صوتية تجعل استخدامها هو (قَالَ) لا (قَوَلَ) فهنا نجد صيغة هى :

فَعَلَ = قَوَلَ ← قَالَ

ولذلك نجد الصرفيين يقولون إن قال أصلها قَوَلَ ومرادهم بالأصل هنا الصورة المطابقة تماما لبناء الصيغة أو ما يسمى الميزان وهو « البنية التحتية » وكان عليهم أن يصفوا التغيير الذى حدث وهو هنا قلب الواو ألفا وسبب هذا التغيير وهو هنا فى نظرهم تحرك الواو بعد فتح ، وقد فعل الصرفيون كل هذا .

فالمهم عند الصرفيين هو اطراد الأبنية أو النماذج أو القوالب أو « الموازين » ولذلك عندما يزنون كلمة (قال) وزنا صرفيا نجدهم يقولون : إن وزنها هو (فَعَلَ) أى أن الصورة التى تنطق بها (قال) صورة اقتضتها طبيعة الأصوات والاستعمال وما يتطلبه من انسجام فى الأصوات وسهولة فى النطق ، ولكن الصورة الأصلية الصورة المطابقة للميزان ، قياسا على نظائرها من الصحيح مثل (كتب) و(أخذ) مثلا .

وهنا مسألة يمكن أن تثار حول هذه النقطة الأخيرة وهى هل ما يدعيه الصرفيون من أصول لبعض الكلمات التى حدث فيها الإعلال أو الإبدال يعد أصولا تاريخية بمعنى أن كلمة مثل (قال) كانت تستعمل فى فترة من فترات الاستعمال اللغوى بالصورة التى تصورها الصرفيون وهى (قَوَلَ) أو أن ذلك محض افتراض من أجل اطراد الموازين والأقيسة الصرفية ؟ .

والحق أن العلماء القدامى أنفسهم لم يغفلوا عن دراسة هذا الجانب ، ولكنها دراسة تناسب ما تيسر لهم من وسائل ؛ فقد رأى ابن جنى أن مثل هذه الأصوات

(١) شرح الشافية : ٨٨٢ .

المفترضة ليست أصولا تاريخية وأكد ذلك بوضوح شديد فى أكثر من موضع من كتبه يقول فى كتابه «الخصائص» معنى قولنا: «أنه كان أصله كذا أنه لو جاء مجىء الصحيح ولم يعلل لوجب أن يكون مجيئه على ما ذكرنا فأما أن يكون استعمل وقتا من الزمان كذلك ثم انصرف عنه فيما بعد إلى هذا اللفظ، فخطأ لا يعتقده أحد من أهل النظر»(١).

ويقول أيضا فى كتابه المنصف: «وينبغى أن يعلم أنه ليس معنى قولنا: أنه كان الأصل فى قام وباع: قَوَمَ وبَيَعَ» وفى «أخاف وأقام أخْوَفَ وأقْوَمَ» وفى «استعان واستقام: استعْوَنَ واستقْوَمَ» أننا نريد به أنهم قد كانوا نطقوا مدة من الزمان بقَوَمَ وبَيَعَ ونحوهما ثم إنهم أضربوا عن ذلك فيما بعد.

وإنما نريد بذلك أن هذا لو نطق به على ما يوجبه القياس بالحمل على أمثاله لقيل «قَوَلَ وبَيَعَ واستقْوَمَ واستعْوَنَ».

ألا ترى أن استقام بوزن استَخْرَجَ فقياسه أن يكون استقوم إلا أن الواو قلبت ألفاً لتحركها الآن وانفتاح ما قبلها فى الأصل، أعنى قوم، ويدل على ذلك أيضاً ما يخرج من المعتلات على أصله.

ألا ترى إلى قولهم: استَرْوَحَ واستَنْوَقَ الجمل واستَتْيَسَت الشاة فدل ذلك على أن أصل استقام: استَقْوَمَ وقال الشاعر:

صَدَدْتِ فأطْوَلْتِ الصُّدُودَ وقلّما
وصالٌ على طولِ الصدودِ يَدُومُ

فقوله: أطوَلْتِ يدل على أن أصل أخاف: أخْوَفَ وقد قالوا أطال. وقالوا أحْوَجت زيدا إلى كذا وكذا وأغيَلَت المرأة. وغير ذلك.

فهذه الأشياء الشاذة إنما خرجت كالتنبيه على أصول ما غُيِّرَ، وأنه لولا ما لحقه من العلل العارضة لكان سبيله أن يجىء على غير تلك الهيئة المستعملة(٢).

فابن جنى يعلل وجود بعض الكلمات التى لم يحدث فيها إعلال وكان ينبغى أن يقع فيها الإعلال بناء على ما أسسوه مثل (أطول) فى قول الشاعر:

صددت فأطْوَلت الصدود وقلما
وصالٌ على طول الصدودِ يدومُ

ومثل (استحوذ) فى قوله تعالى «استحوذ عليهم الشيطان» وغيرها مما ذكر بأن هذه الكلمات وأمثالها جاءت منبهة على الأصل فوجود «أطول» وهى على وزن (أفعل) تنبيه على أن كلمات مثل: أقام وأقال وغيرهما أصلهما أقْوَمَ وأقْوَلَ على وزن (أفعل).

---

(١) ابن جنى: الخصائص ٢٥٧/١ وانظر أيضا صفحات ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١ فى هذا الجزء نفسه.
(٢) المنصف ١٩٠/١، ١٩١.

وقد وقف بعض الدارسين المحدثين من هذه المسألة - أى مسألة الأصل - الذى يفترضه الصرفيون مواقف مختلفة فمنهم من قال بأن « القول بأن صيغة ما أصل لكلمة أو صيغة أخرى مما يتنافى مع المنهج اللغوى الحديث » (١) ولذلك ينبغى الاكتفاء بتسجيل الحقائق الموجودة فى الصيغة بالفعل دون تأويل أو افتراض ، وهذا سلوك الوصفيين من علماء اللغة .

ومنهم من ينتهج منهجا تاريخيا ، ويرى أننا ينبغى أن نتبع تاريخ الصيغ المختلفة لنكشف عما أصابها من تغير وما حدث لها من تطور عبر فترات التاريخ وتجب الاستعانة فى ذلك بمقارنة العربية بأخواتها الساميات وعلى هذا يمكن الاستدلال . بالكلمات التى بقيت لم يحدث فيها إعلال بأنها بقايا تاريخية للاستعمال لم يصبها ما أصاب الكلمات الأخرى مما سماه الصرفيون إعلال ، فهم يستدلون على أن (قال) أصلها (قَوَلَ) تاريخيا - لا صرفيا فحسب - بوجودها فى الحبشية مثلا - وهى سامية - بالصورة الأخيرة .

ومهما يكن من أمر فإن هذه قضية يمكن أن يدرس الإعلال والإبدال فى ضوئها وقد تأتى بنتائج تعين على فهم أسرار اللغة غير أنها محتاجة إلى وثائق يمكن الاعتماد عليها فى هذا الصدد .

لكننا يمكننا القول الآن بأن الأساس الذى اعتمد عليه الصرفيون العرب فى دراسة هذه الظاهرة هو مالاحظوه من خصائص اللغة العربية وأهم هذه الخصائص « الاشتقاق فى اللغة » واعتماد كل مجموعة من الكلمات على أصل ثلاثى يتشكل فى عدد من الصيغ تكشف عنه نظم المعاجم العربية - وما أكثرها - بصورة غاية فى النصوع والبين .

وهذا هو الأساس الأول الذى استند إليه الصرفيون فى النظر إلى ظاهرة الإعلال والإبدال .

أما الأساس الثانى فهو مراعاة الانسجام والتناسق الصوتيين أو ماسموه بالمناسبة الصوتية فى الكلمة ولذلك عللوا حدوث الإعلال بأنه للتخفيف ، وهذا الأساس فى واقع الأمر ليس إلا تعليلا للأساس الأول ، ومبلغ علمى أنهم قد أصابوا توفيقا كبيرا فى كثير من هذه التعليلات .

ينبغى أن نسجل هنا بأمانة أن هؤلاء العلماء قد وقف كثير منهم على فهم كثير من أسرار العربية ، وعللوا لهذه الظاهرة تعليلا صحيحا فى كثير من الأحيان ، فظاهرة الإعلال عندهم ترجع لأسباب مختلفة هدفها جميعا التخفيف ، فالعربية تستثقل مقاطع خاصة كالواو ساكنة بين الياء المفتوحة والكسرة ولذلك حذفت الواو فى مضارع وَثَبَ وَعَدَ وَثِقَ على سبيل المثال فلم يقل يَوْثِب ولا يَوْعِد ولا يوثق : بل قيل : يَثِب ويَعِد ويثق .

---

(١) د . تمام حسان . مناهج البحث فى اللغة ١٨١ .

ويعبر عن ذلك ابن الحاجب بقوله «وتحذف الواو من نحو يَعِد ويَلِد لوقوعها بين ياء وكسرة أصلية » وهذه طريقة وصفية تعتمد على ملاحظة الظاهرة الصوتية دون تدخل من الباحث ، ولكنه يكتفى بوصفها بالطريقة التى قدمها بها .

ولما كان الإعلال مجاله حروف العلة فقد اهتموا بذكر خصائص حروف العلة وحاولوا تتبعها ، ولهم فى ذلك أحكام يصيب بعضها ويجانب الصواب بعضها الآخر فقد أدركوا التقارب بين الياء والواو ، لكنهم يتهمون بعض أحرف العلة بالثقل دون بعض ، وهذا مالانوافقهم عليه .

وقد التفتوا إلى ظاهرة التناسب بين الأصوات وصيرورتها من نمط واحد ، على حد تعبير بعضهم ، ولهم فى ذلك نصوص كثيرة دقيقة ، وظاهرة الإعلال والإبدال فى حقيقة أمرها إنما هى للتناسب بين الأصوات فى الكلمة ، والصوت يتأثر بما قبله وما بعده أى بالظروف المحيطة به ، يقول ابن جنى : « ويدلك على أن الشىء إذا جاورَ الشىء دخل فى كثير من أحكامه لأجل المجاورة قولهم : قِنْيَة ، وصِبْيَة . وفلان من عِلْيَة الناس ، وهو ابن عمى دِنْيا ، وصِبْيان . وأصل قِنْيَة من قنوت ، وصِبْيَة وصِبْيان من صبوت ، وعِلْيَة من علوت ، ودِنْيا من دنوت . وقياسه : قِنْوَة ، وصِبْوَة ، وصِبْوان . وعِلْوَة ودِنْوا ولكن لما جاورت الواو الكسرة قبلها صارت الكسرة كأنها قبل الواو ، ولم يعتمد الساكن حاجزا لضعفه»(١) وتغيير أصول الكلمة بما يناسب الصيغة أو البنية يغير ظروف الصوت فيحدث أن تتحول الواو مرة إلى ياء وأخرى إلى ألف أو همزة وعكس ذلك كله واقع ، وهكذا .

وهذا إدراك سليم من الصرفيين ، وفهم صائب لانريد أن نزكيه بما يقوله ريتشاردز :

«إن وقع الصوت لدى النفس لا يتوقف على الصوت نفسه بقدر مايتوقف على ظروفه المحيطة به ؛ أى على مقدار مابينه وبين ماقبله ومابعده من الأصوات من انسجام فإن هذه الأصوات تتآلف وتكون شبكة محبوكة النسيج ، وأن الكلمة التى تستطيع أن تقع موقع الرضا والقبول لدى هذه الأصوات جميعا وتنسجم معها كلها فى وقت واحد لهى الكلمة التى تظهر بمظهر الفوز الموسيقى»(٢) وقد حاولوا وصف تغير الأصوات حتى تنسجم موسيقاها وبينوا السبب فى ذلك بما يدل على أنهم فهموا الظاهرة على هذا النحو الدقيق ، فمما لاشك فيه أن المتكلم يجد عند نطق همزتين متجاورتين من الثقل مايعييه ، ولذلك تخلصت العربية من التقاء همزتين متجاورتين بقلب الثانية إلى حرف علة يناسب الموقع صوتيا ولذلك يقول المازنى : « إذا التقت الهمزتان فى واحدة فلابد من إبدال الثانية على كل حال» (٣) .

---

(١) المنصف شرح التصريف لابن جنى ٢/٢ ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن تأثير الجوار يمتد إلى ظاهرة الإعراب نفسها وهى أغلى ما يحرص عليه النحاة فعرف الجر على الجوار والإتباع وغير ذلك .

(٢) (٣) المنصف ٢/٢٥

وإذا خفى عليهم سبب بعض التغييرات فإنهم كانوا يعللونها بأنها لطرد الباب على وتيرة واحدة حتى يحصل التشاكل ، ففى مضارع (يعد) مثلاقالوا إن الواو حذفت لأنها مستثقلة بين الياء المفتوحة والكسرة فلما وجدوا أنها محذوفة فى : أَعِد ونَعِد وتَعِد — وهى فيها لم تقع بين ياء مفتوحة وكسرة — قالوا : إن الحذف فى هذه نوع من الاطراد حتى لا يحصل تخالف فى الصيغة الواحدة ، والقرار من حصول التخالف إلى حصول التشاكل سبب عندهم كذلك لوجود إبدال الواو فى صيغة افتعل تاء ، فلولم تقلب فاء الافتعال إذا كانت واوا تاء لصارت مرة واوا إذا قلت فى اتّصل مبنيا للمجهول «اوتصل» وصارت ياء إذا كان مبنيا للمعلوم (ايتصل) وفى المضارع واسم الفاعل والمفعول : يوتصل وموتصل وموصل ، وفى الأمر : ايتصل » فلما حصل هذا الداعي إلى مطلق قلبها إلى حرف جَلْد (قوى) لا يتغير فى الأحوال — وللواو بانقلابها تاء عهد قديم — كان انقلابها تاء ههنا أولى ولاسيا وبعدها تاء الافتعال وبانقلابها إليها يحصل التخفيف بالإدغام فيها » (١).

وأما فى الإبدال فقد رأينا تفسير ابن جنى السابق فى إبدال تاء الافتعال دالا بأنه لمناسبة الأصوات بعضها لبعض فى المخرج أو الصفة ، فهى تبدل دالا إذا كان قبلها الزاى ليتناسب الصوت المجهور مع المجهور ، وتبدل طاء إذا كان قبلها صوت مطبق أى مفخم ليتناسب التفخيم مع مثيله وهكذا .

ونستطيع بعد هذا أن نلخص فلسفة الصرفيين العرب فى تفسير ظاهرة الإعلال والإبدال فيما يأتى :

١ — إن تناول الصرفيين لهذه الظاهرة يكشف عن فهمهم الصحيح لخصائص العربية إذ أنها لغة اشتقاقية ، والقول بما قالوا به فى بعض مسائل الإعلال يطرد مع هذه الخاصية التى تشترك فيها العربية مع أخواتها الساميات ، فالقول بأن (قال) أصلها (قَوَل) مثلا إنما هو رد هذه الصورة المنطوقة إلى الجذر الذى تنتمى إليه وهو (ق.و.ل) وقد أكد ابن جنى هذا المعنى فى النصوص التى نقلناها عنه من أجل اطراد الأقيسة والنماذج وإن كان هذا لا ينفى أن يكون ثمة أصل تاريخى لمثل هذه الصيغ كما يتضح فى الأمثلة التى لم يحدث فيها إعلال مثل : استحوذ وأغيلت المرأة واستنوق الجمل واستتيست الشاة إلخ غير أن هذا الفرض الأخير محتاج إلى دراسة تاريخية مقارنة حتى يُطمأن إلى صحته .

(١) شرح الشافية ٢/٨٢ ، ٨٣ .

٢ – إن تلمس الصرفيين لأسباب التغير فى هيئة الكلمات التى حدث فيها الإعلال والإبدال يكشف عن فهم فيه صواب كثير لخصائص الأصوات العربية والتشكيل المقطعى لكلماتها، والأسباب التى قدموها فى هذا السبيل من حيث الخفة والاستثقال والتناسب الصوتى وغير ذلك أسباب صحيحة فى مجملها برغم أنهم لم يكونوا يملكون إلا الملاحظة الذاتية .

ولكن هناك بعض الملاحظات التى يجب الالتفات إليها فى هذا الصدد ويمكن أن نجملها فيما يأتى :

١ – لقد أكثر الصرفيون العرب من افتراض الأمثلة غير المستعملة فى اللغة وفقا للنماذج أو الموازين أو المقاييس التى استخلصوها . وأكثروا مما سموه بمسائل التمرين كأن يقولوا : « صغ من كذا على وزن كذا » من أجل التدريب على مسائل التصريف .

وهذه المسائل – وإن كانت تعين على التمكن من أحكام التصريف لأنها تطبق قواعده على افتراضات ذهنية – أرى أنها تعوق ما يجب على الباحث من قصر اهتمامه بالمستعمل المنطوق من اللغة فضلا عن أنها تزهد كثيراً من الباحثين فى دراسة هذا الجانب بله الشادين فيه ، وتعوق دون الإقبال على هذا الفرع من الدراسة ، ويكفى الرجوع إلى باب «مسائل التمرين » فى أى كتاب من كتب الصرف التى تذكر هذا النوع حتى يمكن التحقق من صدق هذه المقولة[1] ، ولا أود أن أذكر هنا أمثلة لهذا الضرب حتى لا أرعب القارىء ، ويجب أن تخلص كتب التصريف من هذه التدريبات غير المجدية وتنقى منها .

٢ – لقد اعتمد هؤلاء الدارسون القدامى على ملاحظتهم الذاتية وحدها إذ لم يكن متاحا لهم فى عصرهم مثل ما أتيح لدارسى اليوم من الأجهزة العلمية المختلفة والملاحظة الذاتية فى حد ذاتها إحدى الوسائل فى الوصف اللغوى غير أن الباحث يقع لظروف مختلفة فى خطأ فى الملاحظة أو قد تعجز وسائل الملاحظة عن إدراك الظاهرة على النحو الصحيح ، ومعظم هذه الأخطاء تقع فى وصف الأصوات وقد رأينا نموذجا لذلك ماسبق فى صوت (الطاء) إذ وصف بأنه صوت مجهور ، ومن ذلك قول الرضى « اعلم أن التاء قريبة من الواو فى المخرج لكون التاء من أصول الثنايا والواو من الشفتين ويجمعها الهمس »[2] ومدلول هذا النص أن الواو مهموسة كالتاء ، والحق أن الواو صوت مجهور[3] .

---

(١) أنظر مثلا شرح الشافية ٢/٢٩٤ وما بعدها .

(٢) المنصف ٣/٩٧ ومابعدها وشرح الشافية ٢/٨٠ ومابعدها .

(٣) انظر فى الجهر والهمس الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ص ٢١ على سبيل المثال .

٣ — من الملاحظات فى دراسة الإعلال والإبدال كذلك أنهم خلطوا بين اللهجات العربية فى هذه الظاهرة ، وعدوا ما كان خاصا بلهجة من اللهجات مبدأ عاما أو قانونا على اللغة المشتركة والأمثلة على ذلك كثيرة .

وهذا الجانب جزء من نظرة النحاة والصرفيين للغة بوجه عام وكان من الواجب عليهم أن يقعدوا للغة المشتركة أو اللغة الأدبية ، أو كان عليهم أن يحددوا مستوى معينا من المستويات ويضعوا قواعده على حدة حتى لا يحدث خلط فى التقعيد كأن يقول الرضى مثلا : « وبعضهم يقلب الواو الواقعة بين الياء المفتوحة والفتحة ألفا لأن فيه ثقلا لكن ليس بحيث يحذف الواو له فيقول فى : يَوْجَلُ يَاجل وبعضهم يقلبها ياء لأن الياء أخف من الواو ، وبعضهم يستشنع قلب الواو ياء لا لعلة ظاهرة فيكسر ياء المضارع ليكون انقلاب الواو ياء لوقوعها بعد كسرة »[1] فكلمة « بعضهم » فى نص الرضى تشير إلى قبيلة من العرب أى مجموعة لغوية معينة بلا شك ، ولا يمكن أن يكون المقصود بكلمة « بعضهم » بعض العلماء لأن العالم ليس من حقه أن يتدخل فى الاستعمال اللغوى كما هو واضح ، وتلاحظ أن الرضى ذكر هذا الكلام بإجمال ولم يحدد أصحاب كل قول وهل هذا داخل فى صلب اللغة المشتركة أو لا وأيها نختار ... إلخ .

٤ — مع الدقة الملحوظة فى تناول الصرفيين العرب لهذه الظاهرة نلاحظ أيضا أنهم اضطربوا أمام بعض الظواهر فلم تتفق لهم سبيل واحدة فى التفسير وقد صرح الرضى بهذا حين قال فى مسألة من المسائل : « واضطرب فى هذا المقام كلامهم » والحق أن هذا الاضطراب الذى يشير إليه الرضى كان فى مسألة من مسائل التمرين ، فالمثال مفترض وفيه خلاف واضطراب فكأننا نخلق المشكلة لنختلف فى حلها ، وهذا ما قلنا من قبل إنه يجب التخلص منه .

٥ — هناك أيضا تكلف فى محاولة التماس العلة فى كل تغيير يحدث وبعض هذه العلل واه ضعيف ، وبعضها ملفق كأن يقولوا مثلا فى «استقام» : أصلها استقوم — وهذا القدر نتفهم وجهة نظرهم فيه — ويبينون السبب فى التغيير فيقولون : نقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها ، ثم يحاولون بعد ذلك التماس العلة لقلب الواو ألفا ، فيقولون : تحركت الواو بحسب الأصل — لأنها من قوم — وانفتح ما قبلها بحسب الآن فقلبت ألفا .

وهذا فى الواقع تلفيق بين حالين لا يستريح له العقل لأن الموضوع افتراض من أوله ، ونحن قد نسلم بأن الأصل هو

---

(١) شرح الشافية ٩١/٢ ، ٩٢ .

استقوم لأن القالب أو الميزان أو المقياس هو (استفعل) للصحيح والمعتل فإذا سلمنا بأن حركة الواو انتقلت حقا إلى الحرف الساكن الصحيح قبلها فينبغى أن نقول :إن حرف العلة المناسب للفتحة هو الألف ولذلك قلبت الواو ألفا لهذا السبب ولا داعى إلى التلفيق بين الأسباب مع مراعاة أنها مفترضة من أصلها من أجل اطراد الصيغة ، وتجب الإشارة إلى أن بعض العلماء — كابن هشام — قد تجنب كثيرا من التعقيدات الموروثة وعالج كثيرا من المسائل علاجا فيه سهولة ويسر .

خامسا : رأى بعض المحدثين فى الاعلال والابدال :

رأينا أن القول بالإعلال والإبدال جاء نتيجة لفكرة الصرفيين العرب القائلة بأن ثمة أصلا افتراضيا مطابقا للميزان أو مطابقا للقالب الصرفى فصيغة «استقول» تعد أصلا لـ « استقال » وصيغة « أقول » تعد أصلا لـ « أقال » وصيغة « قوم » تعد أصلا لـ « قام » وصيغة « دَعَوَ » تعد أصلا لـ « دعا » وصيغة « ازتجر » تعد أصلا لـ « ازدجر » وهكذا ، ومن هنا ساغ القول عندهم بأن الواو قلبت ألفا ، والياء قلبت ألفا والتاء أبدلت طاء الخ ، وأن هذا نابع من أن الصحيح والمعتل يخضعان معا لمقياس واحد .

أما علماء اللغة المحدثون فإن بعضهم فى الحقيقة لم يتعرضوا تعرضا مباشرا لظاهرة الإعلال والإبدال ولكن يمكن فهم وجهة نظرهم من خلال أقوال متناثرة تعد أسسا لهذه القضية ، فالدكتور إبراهيم أنيس والدكتور تمام حسان مثلا يريان : أن القول بأن صيغة ما أصل لكلمة أخرى مما يتنافى مع المنهج اللغوى الحديث [1] ويؤكد الدكتور كمال بشر هذا المبدأ إذ يقول : إن الفكرة التى تتضمن أن هناك أصلا واحدا فقط تفرعت عنه بقية الصيغ مع شئ من التعديل والتغيير فى صورها فكرة لا تعترف بها الدراسات الوصفية الحديثة فى البحوث اللغوية ، ويرى أن لكل صيغة خصائصها ووظائفها المعينة فكل صيغة من أعطى ، يعطى ، عطى ، معطى ، معط كلمة مستقلة وكذلك الحكم فى نحو يقود وقائد وقيادة ، ويقول إن هناك أساسا عاما يجب اتباعه دائما فى الدراسات الوصفية « وهذا الأساس هو الاعتماد دائما على الخصائص والمميزات الموجودة فعلا بالصيغة نفسها بقطع النظر عن إمكانية ردها إلى أصل تشترك فيه مع غيرها أو عدم إمكانية ذلك » [2] .

---

(١) انظر من أسرار اللغة : ٥٥ ومناهج البحث فى اللغة : ١٨١ .

(٢) انظر التعليق ٢٦ من صفحة ٤٩ وما بعدها فى كتاب « دور الكلمة فى اللغة » الذى ترجمه الدكتور كمال بشر وعلق على كثير من قضاياه .

والواقع أن ماذهب إليه الدكتور تمام والدكتور بشر صحيح فى ذاته وقد كان هناك من القدماء من أشار إلى هذه اللفتة، يقول السيوطى: « وزعم قوم من أهل النظر أن الكلم كله أصل وليس منه شىء اشتق من غيره[1] » ولكن السيوطى لم يعين هؤلاء الذين وصفهم بأنهم أهل النظر ، وفى مقابل هذا الرأى يذكر أن كلا من الخليل وسيبويه وأبى عمرو وأبى الخطاب وعيسى بن عمر والأصمعى وابن زيد وأبى عبيدة والجرمى وقطرب والمازنى والمبرد والزجاج والكسائى والفراء والشيبانى وابن الأعرابى وثعلب يذهب إلى أن الكلم بعضه مشتق وبعضه غير مشتق ، ويغلو بعض العلماء فيرى أن الكلم كله مشتق وقد نسب هذا المذهب للزجاج[2]

غير أن انطباق ما يقول به كل من الدكتور تمام والدكتور بشر على لغة اشتقاقية يقوم الاشتقاق فيها بدور كبير كاللغة العربية على وجه الخصوص قد يقابل بكثير من الصعوبات ، وإذا كان ستيفن أولمان وهو يتحدث عن بعض مجموعات الكلمات فى اللغة الإنجليزية

مثل : Lead ، Leader ، Leadership

ومثل : give ، gives ، gave ، given

يقول : « ومهما يكن من أمر فإن هناك صلات ترابطية قوية بين أفراد كل مجموعة من مجموعات هذين النموذجين : صلات تبرر بصورة قوية جواز معاملة كل مسلسلة منها على أنها وحدة عضوية متكاملة » مع أن هـذه الظاهرة غير مطردة فى اللغة الإنجليزية ، إذا كان ستيفن أولمان يقول هذا عن لغة كالإنجليزية ، فهل يحق لنا أن نقول بمثل ما قال به الدكتور تمام والدكتور بشر عن اللغة العربية وهى لغة اشتقاقية .

إننى أرى أن كلا من الدكتور تمام والدكتور بشر قد تأثر باللغة الإنجليزية فى هذا الحكم ، وما قالا به صحيح فى ذاته وهو أكثر انطباقا على لغة غير اشتقاقية وأرى أيضاً أن لكل لغة ظروفها الخاصة التى ينبغى أن تدرس فى ضوئها .

ولقد ذهب الدكتور بشر مذهبا أبعد من هذا إذ أخذ على الصرفيين العرب قولهم بأن كلمة كذا أصلها كذا ، كأن يقولوا إن «قل» أصلها «قول» وحذفت الواو لالتقاء الساكنين ، يقول الدكتور كمال بشر لقد درج علماء الصرف التقليديون على أن يقولوا مثلا :

قُلْ أصلها قُولْ (*)

التقى ساكنان الواو واللام فحذفت الواو لالتقاء الساكنين فصارت : قل .

---

(١) الهمع ٢٣١/٦ (٣) انظر الهمع ٢٣/٦ ، ٢٣١ (تحقيق الدكتور مكرم) .
(٢) دور الكلمة فى اللغة ٤٩ ، ٥٠ (ترجمة د. كمال بشر) .
(*) يقول الصرفيون إن قل أصلها (اقول) نقلت حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها فحذفت همزة الوصل لأنه لم يعد هناك داع لها فصارت الكلمة (قول) فحذفت الواو تخلصا من التقاء الساكنين ، سكون الواو وسكون اللام فى الأمر الساكن الآخر .

وحقيقة الأمر أن قل جاءت على هذه الصورة منذ بداية الأمر ، ولم يكن من المستطاع أن تأتى بالصورة الثانية « قول» فى النطق الفعلى ، لسبب صوتى ظاهر يرتبط بخواص التركيب المقطعى فى العربية الفصحى . لقد ثبت بالدراسة أن التركيب المقطعى :

صوت صامت + حركة طويلة + صوت صامت (cvvc) تركيب ممتنع فى هذه اللغة إلا فى حالتين اثنتين هما :

١ — فى حالة الوقف .

٢ — أن تكون الحركة الطويلة متلوة بمثلين مدغمين من أصل الكلمة مثل شابة ودابة أما ما ذهب إليه هؤلاء الصرفيون فهو عمل افتراضى لا نأخذ به فى الدرس اللغوى الحديث (١) .

مرة أخرى نقول إن ما قاله الدكتور بشر صحيح فى ذاته ، ولكن الصرفيين العرب أو التقليديين كما يسميهم الدكتور بشر قد قرروا هم أنفسهم أن هذه الأصول افتراضية لم تكن مستعملة فى وقت من الأوقات ثم عدل عنها إلى الصيغة المستعملة أو حدث تطور فيها حتى صارت الكلمة إلى ما صارت إليه ، ولكنهم يعنون بالأصل الصورة التى كان ينبغى أن تكون عليها الكلمة لو لم يحدث فيها ما سموه هم إعلالا بالحذف وسماه الدكتور بشر تركيبا مقطعيا ممتنعا ، وهذا الأصل الافتراضى عند هؤلاء الصرفيين أيضاً تركيب مقطعى ممتنع وقد بينوا سبب امتناعه لكنهم لا يغفلون عن طبيعة اللغة الاشتقاقية ويحاولون بكل سبيل أن يربطوا كل كلمة بأصلها الاشتقاقى أو بالجذر الذى تنتمى إليه ، ولم يغفلوا أيضاً عن مهمة الصرف الحقيقية وهى دراسة الصيغ والفروق بين كل صيغة وأخرى والتغييرات التى تصيب بعض حروف الكلمات عندما تصب فى صيغة معينة أو قالب معين ، وحديثهم عما ينبغى أن يكون إنما هو من أجل توضيح ما هو كائن وشرحه وتفسيره .

ولقد أخذ الدكتور بشر على الصرفيين العرب أيضاً معالجتهم لمسائل الإبدال التى تبدل فيها تاء الافتعال (طاء) أو (دالا) ورأى أن منهجهم فى هذا يتسم بسمتين واضحتين :

أولاهما : إيمانهم بفكرة الأصل بمعنى أن هناك أصلا ثابتا ترجع إليه كل الصيغ المتشابهة بطريق مباشر إن أمكن وإلا فبطريق غير مباشر على الافتراض والتأويل .

ثانيتهما : محاولة حشدهم الأمثلة المتفقة فى شىء آخر تحت نظام واحد ، أو إخضاعهم لها لميزان واحد فابتكر واصطبر

---

(١) د . بشر : الأصوات ١٨٥ ، ١٨٦ . وانظر له أيضا : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص ١١٠ .

عندهم كلاهما على وزن افتعل وكلاهما يرجع إلى أصل ثلاثى هو الباء والكاف والراء فى الأول والصاد والباء والراء فى الثانى .

ويرى أن سبيل المعالجة لهذه المسائل هو الوصف على حالتها الراهنة دون إلحاقها إلى أصل واحد باتباع مبدأ تعدد الأنظمة فى البحث اللغوى Polysgatemic Principls لأن مبدأ توحد الأنظمة جر الصرفيين العرب إلى التأويل والتخريج والافتراض والوصف وتعدد الأنظمة لا يتم إلا على أسس صوتية تقتضيها خـواص الصيغ المذكورة[1] »

وإننى أرى أن طريقة الصرفيين لم تخرج عما وصفه الدكتور بشر بأنه « التفسير العلمى » فما قدموه فى علاج هذه المسائل إنما هو وصف لسلوك الأصوات فى سياقات معينة ، كما أن مبدأ توحد الأنظمة ليس عيبا ، وليس خيرا منه مبدأ تعدد الأنظمة ، وخاصة أن مبدأ توحد الأنظمة يؤدى إلى تيسير سبل الفهم والحصر وإدراك أوجه التشابه والاختلاف ، ولاشك أننى عندما أقول (افتعل) أسهل وأوضح من أن أقول (افطعل) و (افدعل) ، وإذا سألت أحد المبتدئين عن صيغة اصطبر ما ميزانها لقال على الفور : افتعل وكذلك ازدهر وافتكر فهذه الثلاثة من وزن واحد ولكن التناسق الصوتى هو الذى أبقى التاء فى موضع واستبدل بها طاء ودالا فى الموضعين الآخرين .

وإذا كان الدكتور بشر يرى أن هذه الأمور ينبغى أن يتكفل بها علم الأصوات فإننا نرى أن هؤلاء — وليس هذا دفاعا عنهم بل هو تقرير لواقع — لم يقصروا فى هذا الجانب وقد ردوا كل تغيير من تغييرات الإعلال والإبدال إلى سبب صوتى يرجع إلى استحالة فى النطق أو تركيب مقطعى ممتنع وسموا بعض هذا تناسبا صوتيا فى المخرج أو فى الصفة غير أن لهم مصطلحات تختلف بعض الاختلاف عن المصطلحات الحديثة وكما أنهم اعتمدوا على الوسيلة الوحيدة التى يمتلكونها فى ذلك الوقت وهى الملاحظة الذاتية ومع ذلك حققوا نتائج عظيمة .

وهناك بعض الدارسين الذين تعرضوا لدراسة الإعلال والإبدال ، وقد عالجوا هذه الظاهرة على أسس صوتية محضة ، ومن هؤلاء جان كانتينو فى كتابه « دروس فى علم أصوات العربية »[2] وقد عالج بعض مسائل الإعلال فى مواضع متناثرة تحت قوانين صوتية قائمة على الوصف ،

---

(١) انظر دراسات فى علم اللغة ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) ترجمه إلى العربية صالح القرماوى وطبع سنة ١٩٦٦ م (الجامعة التونسية) .

ولكنها لم تسلم له فى كثير من الأحيان كقوله « وإذا وقعت الواو والياء بين فتحة طويلة وكسرة أو ضمة قصيرة قلبتا همزة ، نحو : قاول – قائل وبايع – بائع وعجاوز – عجائز وجزاير – جزائر ، وإرضاى [1] – إرضاء ووفاى – وفاء [2] .

ونحن نرى أن وضع القاعدة بهذه الصورة ناقص لأن ثمة واوات أوياءات تقع بين فتحة طويلة وكسرة أو ضمة ولا تقلب همزة وذلك مثل جمع مقود مقاود وجمع معيشة ومعايش دون همزة .

ولكن النحاة القدماء والصرفيين العرب قد وضعوا القاعدة مستقصاة إذ نصوا على شرط قلب الواو والياء همزة فى اسم الفاعل أن تكون الواو أو الياء معلة فى الماضى فاذا لم تعل فى الماضى لم تقلب أى منهما همزة وكذلك شرطوا لقلبها همزة فى الجمع الذى على وزن مفاعل أن تكون الواو أو الياء فى المفرد فإذا كانت كل منهما متحركة أو أصلية لم تبدل منهما الهمزة ، ولذلك حكموا بشذوذ همز « مصائب » وشذوذ همز « معائش » .

وليس معنى أننا ننكر أن يدرس الإعلال والإبدال دراسة صوتية ، بل على العكس من ذلك إننا نرى أن دراسة الظاهرة صوتيا قد تساعد على فهمها وتجليتها غير أننا نرى أنها لكى تدرس دراسة صوتية ينبغى أن تعمق هذه الدراسة حتى لا يحدث تناقض فى القواعد التى يمكن وضعها لإحكام هذه الظاهرة .

ونلاحظ أيضا أن جان كانتينو يلجأ مع هذه الدراسة الصوتية إلى مثل ما لجأ إليه الصرفيون العرب القدماء كأن يقول بأن كذا حمل على كذا أى قيس عليه مثل قوله «إذا وقعت الواو والياء بين فتحة طويلة وفتحة قصيرة سلمتا نحو : قاول وساير وأما قولهم فى النصب «إرضاء» و «وفاء» فلا يناقض هذه القاعدة كما يظهر لك وإنما ذلك راجع إلى حملهم حالة النصب على حالة الرفع والجر [3] والواقع أنه يتناقض ولن يسلم من هذا التناقض بسبب قوله إنهم حملوا حالة النصب على حالة الرفع والجر . لأن المعول فيه على الوصف الصوتى هو النطق ولا يستقيم مع طريقة الوصف الصوتى القول : بأن كذا حمل على كذا ، وإلا فقد عدنا إلى أسلوب القدماء وطريقتهم فى التناول ، ومعنى هذا أنه ينبغى ألا نلجأ إلى أسلوب آخر إلا إذا كان متكاملا مطردا لا ينقض آخره أوله .

---

(١) الصواب أن تكون (إرضو) لأنها من الرضوان والمادة (ر . ض . و) .

(٢) انظر صفحة ١٣٩ . (٣) المرجع المشار إليه ص ١٣٩ .

وإننا لنلاحظ كذلك أن الأمور التى سلمت عن طريق الوصف الصوتى كقول جسان كانتينو « وإذا وقعت الواو بعد كسرة ياء وينتج عن هذه العملية حدوث مجموعة هى « سِيْ » تصير كسرة طويلة أى (سى) إذا كان بعدها حرف ، وتبقى على حالها إذا كانت متبوعة بحركة نحو : مِوْلاد مِيْلاد — ميلاد

دِوْار	دِيَار [1]
عَالِوْ	عالى

أقول إننا نلاحظ أن مثل هذه الأمور التى سلمت عن طريق الوصف الصوتى قد سلمت كذلك للنحاة والصرفيين العرب القدامى من قبل وبهذا الوصف نفسه.

وهناك باحثون آخرون عرضوا لمسائل الإعلال والإبدال منهم هنرى فليش الذى وضع أسسا عامة لهذه الظاهرة هى فى الواقع وصف لمواقع قلب حروف العلة بعضها إلى بعض وهذا الوصف مجمل يمكن أن يتوجه إليه النقد ، ولا نود أن نطيل بذكر ما عرض له[2] كما أن هناك من أرجع ظاهرة الإعلال إلى أصل سامى قديم حيث يقول : «وأحد أنواع تبديل الواو والياء بالهمزة مطرد قديم جدا وهو فى حالة وقوعها بعد فتحة ممدودة مثاله قائم وسائر إلى غيرهما . والدليل على أن ذلك التبديل يرتقى إلى اللغة السامية الأم هو أنا نجده فى الأكادية والآرامية»[3] .

وإذا كان برجستر اسر يؤكد أن الإعلال بين الواو والياء وبين الهمزة ظاهرة سامية الأصل لوجودها فى عدة لغات سامية فإن باحثا محدثا ينكر هذه الظاهرة من أساسها ويحكم بتخطىء القدماء ومن وافقهم من المحدثين فيقول «إننا — من وجهة نظرنا — نحكم بخطأ القدماء ومن وافقهم من المحدثين فى كل ما زعموه من دعاوى الإبدال فى هذا الباب لسبب بسيط هو عدم وجود العلاقة الصوتية المشترطة لحدوث الإبدال»[4] ثم يجهد نفسه فى محاولة للبحث عن تفسير آخر لهذه الظاهرة . وقد اقتنع بتفسيرات خاصة منها أن إبدال الواو والياء همزة فى الطرف بعد ألف زائدة مثل كساء وبناء ليس إبدالا وإنما هو إقفال للمقطع المفتوح وتصحيح الكلمة فى الوقف فآثر الناطق إقفال هذا المقطع المفتوح بإحلال الهمزة محل صوت اللين لا على سبيل الإبدال ؛ بل من أجل تصحيح نهاية

(۱) انظر ص ۱۳۹ .

(۲) يمكن الرجوع إلى أسس هنرى فليش هذه فى العربية الفصحى (ترجمة د . عبد الصبور شاهين) من ٣٥ إلى ٥٠ وكذلك (القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث للدكتور عبد الصبور شاهين حيث شرح كثيرا من هذه الأسس فى مبحث مشكلة الهمزة ، وناقشها صفحة ٥٥ وما بعدها ، واعتمد عليها .

(۳) برجستراسر : التطور النحوى : ٣١

(٤) القراءات القرآنية د . عبد الصبور شاهين ٧٧ ، قد ردد هذه الآراء نفسها فى كتابه « المنهج الصوتى للبنية العربية » ص ١٦٧ وما بعدها حتى صفحة ٢٠٢ .

الكلمة . ولا علاقة صوتية مطلقا بين الهمزة وبين الياء والواو توجب إبدالا (ما)[1] وإذا كان ما يقوله صحيحا فلماذا لم يقفل المقطع فى مثل (الآى) و (الغاى) و (الراى)[2] وكل ما آخره مقطع مفتوح منته بحرف علة ، ثم إذا كان هذا من أجل الوقف ـ كما يقول ـ فلماذا لم تعد تلك الكلمات إلى حالتها عند وصلها؟ وبعد هذا كله فإنه يرى أن هذه الهمزة كانت ياء أو واوا لكنه لا يريد أن يسميها إبدالا ، ونحن نقول له : سمها ماشئت مادامت تسميتها (إبدالا) غير مرضية عندك ؛ فنحن نسميها كما سماها الأقدمون ـ والمحدثون أيضا ـ حفاظا على المصطلح ووصفا للظاهرة .

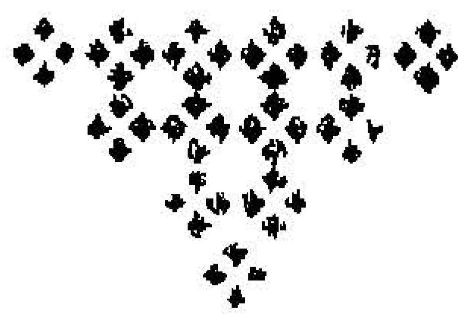
وأما بقية مسائل الإبدال بين أحرف العلة والهمزة فإنه يخضعها لتفسير واحد « لأن مشكلتها واحدة هى مشكلة تتابع الحركات على تفاوت فى كميتها من مسألة لأخرى »[3] وليس هذا على سبيل الإبدال ولكنه ـ هذه المرة ـ على سبيل التعويض فكل من : قاول تحولت إلى قائل فعوض بالهمزة عن الواو . وعجاوز تحولت إلى عجائز وصحايف إلى صحائف إلخ . كل ذلك على سبيل التعويض حتى لا تتابع الحركات .

ولست أدرى ما الذى جعل العرب « يعوضون » فى هذه المسائل ولا يفعلون ذلك فى نحو : مقاود ، مُجَاوِر ، ومُعَايِن ومُبَايِن وأمثالها وهى فى المنطق مثل عجائز وصحائف؟ إن العربية عندما أعلت تلك وصححت هذه كانت ترمى إلى نوع من الاطراد تنبه له الصرفيون القدماء .

إن هذه الآراء التى تنظر إلى القديم بعين الاحتقار وترى أن الأخذ به ضرب من « الرجعية » لا تلبث أن تقع عند أول خطوة تحاول بها الفكاك من أسر صوابه . لقد درس القدماء اللغة من جوانبها المختلفة . واطردت نظرتهم واستقامت لهم الطريق فلم يقعوا فى مثل مايقع فيه أولئك « المحدثون » من خلط واضطراب .

والله ولى التوفيق

محمد حماسة عبد اللطيف
مدرس النحو بكليــة دار العلوم



(١) السابق ص ٨١ . (٢) جمع آية وغاية وراية . انظر القاموس ٣٧٢٤ ، ٨/٣٣ .
(٣) القراءات القرآنية : ٨٨ .

إعلال الواو والياء في اللغة العربية

للدكتور صلاح الدين صالح حسنين

مخرج الواو والياء وصفتاهما :

(أ) الواو :

تبدأ أعضاء النطق فى اتخاذ الوضع المناسب لنطق الضمة ، ثم تترك هذا الوضع بسرعة إلى وضع نطق حركة الفتحة ، وعند نطق الواو تنضم الشفتان ، ويرفع أقصى اللسان نحو أقصى الحنك ، ويسد الطريق إلى الأنف بأن يرفع الحنك اللين ويتذبذب الوتران الصوتيان ، فالواو إذاً صوت مجهور شفوى حنكى قصى[1] .

أما ابن الجزرى فقد وصف للواو مخرجين ، الأول الجوف وهو للألف والواو الساكنة المضموم ماقبلها والياء الساكنة المكسور ما قبلها . وهذه الحروف تسمى حروف المد واللين . وتسمى الهوائية والجوفية . قال الخليل : وإنما نسبن إلى الجوف لأنه آخر انقطاع مخرجهن . والمخرج الثانى وهو للواو غير المدية ومخرجها مما بين الشفتين[2] .

ونتفق مع ابن الجزرى فى تحديد مخرج الواو المدية وغير المدية ، إلا أننا نزيد عليه بأن أقصى اللسان يرتفع نحو أقصى الحنك عند نطق الواو فالواو فى رأيى صوت شفوى حنكى قصى .

(ب) الياء :

تبدأ أعضاء النطق فى اتخاذ الوضع المناسب لنطق حركة الكسرة ، ثم تنتقل بسرعة إلى نطق حركة الفتحة . وعند نطق الياء يرتفع وسط اللسان تجاه الحنك الصلب وتكسر الشفتان ، ويسد الطريق إلى الأنف بأن يرفع الحنك اللين ويتذبذب الوتران الصوتيان . فالياء صوت مجهور حنكى وسيط[3] .

أما ابن الجزرى فقد وصف للياء مخرجين ، الأول : الجوف وهو للياء عندما تكون حرف مد أو لين ، والثانى : وهو للياء غير المدية ،

---

(١) د. محمود السعران ، علم اللغة ، مقدمة للقارىء العربى : ١٩٧ — ١٩٨

(٢) ابن الجزرى ، النشر فى القراءات العشر : ١/١٩٩

(٣) علم اللغة ، مقدمة للقارى العربى : ١٩٨

ومخرجها من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك[1] .

ونتفق مع ابن الجزرى فى تحديد مخرج الياء المدية وغير المدية ، إلا أننا نزيد عليه أن الشفتين تكسران ، وهذا فى الحقيقة يميز الياء المدية فى نحو (فى) .

اختلاف الواو والياء عن الحروف الأخرى :

تختلف الواو والياء عن الحروف الأخرى : فهما ليسا رخوين ، لأنه لا تحدث تضييق فى مجرى الفم بشكل يساعد على إنتاج الاحتكاك ، وهما ليسا شديدين ، لأنه لا تحدث التقاء محكم لأعضاء النطق بشكل يساعد على إنتاج الانفجار ، يقول ابن جنى فى تأكيد هذا الخلاف : « اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا ، حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع ، أينما عرض له حرفاً ، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها . . . فإن اتسع مخرج الحرف حتى لا يقتطع الصوت عن امتداده واستطالته استمر الصوت ممتداً حتى ينفذ ، فيفضى حسيراً إلى مخرج الهمزة ، فينقطع بالضرورة عندها ، إذا لم يجد منقطعاً فيما فوقها .

والحروف التى اتسعت مخارجها ثلاثة : الألف ثم الياء ثم الواو وأوسعها وألينها الألف إلا أن الصوت الذى يجرى فى الألف مخالف للصوت الذى يجرى فى الياء والواو . والصوت الذى يجرى فى الياء مخالف للصوت الذى يجرى فى الألف والواو . والعلة فى ذلك أنك تجد الفم والحلق فى ثلاث أحوال مختلف الأشكال . . . أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر ، وأما الياء فتجد معها الأضراس سُفْلاً وعُلْواً قد اكتنفت جنبتى اللسان وضغطته وتفاج[2] الحنك عن ظهر اللسان ، فجرى الصوت متصعداً هناك . فلأجل تلك الفجوة ما استطال . وأما الواو فتضم لها معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ، ليخرج فيه النفس ويتصل الصوت »[3] .

وظيفة الواو والياء :

١ – تقوم الواو والياء بوظيفة الحروف فتتبع بحركة مثل ولد ، ويترك ، وقد تسكنان نحو حَوْض وبَيْت .

٢ – تقوم الواو والياء بوظيفة الحركات[4] وهذا ما أسماه اللغويون واو المد نحو كتبُوا وياء المد نحو تكتبين ، وللمصطلحين مصطلح خاص هو الضمة الطويلة والكسرة الطويلة .

---

(١) النشر فى القرءات العشر : ٢٠٠/١ .

(٢) تفاج : تباعد .

(٣) ابن جنى ، سر صناعة الإعراب : ٨-٩ .

(٤) د . كمال بشر ، الأصوات : ٨٤ – ٨٥ .

معنى هذا أن للواو والياء طبيعة انتقالية ، ولهذا يسميان صوتين انزلاقيين . والأمثلة الآتية توضح ذلك :

من المعروف أن المضارع من (دعا) هو (يدعو) ومن (رمى) هو (يرمى) . فالواو فى (يدعو) والياء فى (يرمى) حرفا مد ؛ وعند نصب هذين الفعلين بالفتحة على آخرهما سنجد أن الواو والياء يقومان بوظيفة الحروف نحو (لن يَدْعُوَ) و (لن يَرْمِيَ) . ويرجع هذا الانتقال فى الوظيفة إلى أن الواو واقعة بين ضمة وفتحة ، والياء واقعة بين كسرة وفتحة ، فهما إذاً يسهلان الانتقال بين هاتين الحركتين ، وهذا الانتقال يتضح أيضاً عند إسناد الفعلين (يدعو ويرمى) إلى ألف الاثنين فيقال : (يدعوان ويرميان) وأشار ابن الحاجب إلى ذلك بقوله : إن الواو والياء هنا يصحان نحو لن يغزو ولن يرمى[1] .

التغيير الذى يطرأ على الواو والياء :

يسمى التغيير الذى يطرأ على الواو أو الياء بالإعلال[2] أو بالتطور . من ذلك مثلا تتحول الواو أو الياء إلى فتحة طويلة (ألف مد) نحو قَوَمَ وقَامَ . وبَيَنَ وبَانَ ، وتبدل الواو المسبوقة بالكسرة ياء نحو مُعْوِد ومعيد .

وتبدل الياء المسبوقة بالضمة واواً نحو طُيْبَى وطُوبَى . وتبدل الواو والياء همزة إذا وقعتا بعد فتحة طويلة (ألف مد) نحو قاوم وقائم ؛ باين وبائن .

فالإعلال إذاً ضرب من التطور . ومما يدل على ذلك أن هناك صيغاً حافظت على الصيغة الأصلية فى بيئة معينة . فإذا انتقلنا إلى بيئة أخرى وجدنا أن هذه الصيغة تطورت ، فتغيرت عن الصيغة الأصلية . من ذلك مثلا :

١ – روى أبو زيد أن قيس تقول : العَفَيَة وغيرها يقول : عَفَاة[3] .

٢ – قرأ قتادة قوله تعالى : « لَمثْوبَةٌ من عند الله خير » (البقرة آية ١٠٣) بإسكان الثاء وفتح الواو أى « لَمثْوَبَةٌ »[4] . ووصف اللحيانى هذه الصيغة بأنها شاذة ، وأضاف إلى ذلك قوله : « وقال الكلابيون لا نعرف المثْوَبَة ولكن المثَابة »[5] .

٣ – حكى الفراء قول الشاعر عياض ابن أم درة الطائى :

حمى لا يحل الدهر إلا بإذننـــا
ولا نسأل الأقوام عهد الميـــاثق

فى حين رواه أبو زيد بالواو على القياس أى عهد المواثق .

---

(١) شرح الشافية : ١٥٥ .
(٢) شرح المفصل : ١٠/٥٤ .
(٣) د . علم الدين الجندى ، اللهجات فى التراث : ٤٣١ .
(٤) مختصر فى شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه . نشره برجشتراسر سنة ١٩٣٤ .
(٥) لسان العرب لابن منظور .

٤ — ذكر ابن جني عن أبي علي قراءةً عليه عن أبي العباس عن أبي عثمان الأصمعي . قال : بنو تميم — فيما زعم علماؤنا — يتمون مفعولا من الياء فيقولون : ثوب مخيوط . وبر مكيول . وبسرة مطيوبة [١] .

وأنشد علقمة :

. يوم رذاذ عليه الدجن مغيوم [٢]

قال الشاعر :

قد كان قومك يزعمونك سيداً
وإخـال أنك سيد معيون [٣]

أما أهل الحجاز فى مثل هذا فيحذفون [٤] .

٥ — جاء فى الخصائص لابن جنى ، أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيي ، قال : يقال استصوبت الشئ ولا يقال : استصبت الشئ . ومنه استحوذ وأغيلت المرأة واستنوق الجمل . واستتيست الشاة [٥]

٦ — جاء فى الكتاب لسيبويه وتبدل (الواو) مكان الألف فى الوقف وذلك قول بعضهم : أفعو [٦] وعزا اللسان صيغة أفعو إلى تميم وصيغة أفعى إلى أهل الحجار [٧] .

وبعد فهذه صيغ قديمة لم يلحقها التطور . وليست شاذة كما ذهب اللغويون . فقد وصف ابن جني هذه الصيغ بأنها مطردة فى الاستعمال [٨] .

يوصف التطور الذى يطرأ على الأصوات بأنه بطىء . ولا يحدث فى كل الصيغ اللغوية . فقد يحدث فى صيغة ولا يحدث فى صيغة أخرى ، فمثلا الصيغة السامية القديمة (قَوَمَ) احتفظت بها الحبشية القديمة (الجعزية) فهى فيها (Qawam) [٩] أما فى العربية فقد تطورت وأصبحت (قَامَ) . والصيغة السامية القديمة (عَوِرَ) و (صَيِدَ) ظلت فى العربية دون تطور . ومن هذا القبيل أيضاً أن الواو والياء تُعلاَّن فى نحو (يَقْوُل) و (يَبْيِنُ) فتحول الأولى إلى (يَقُوُل) والثانية إلى (يَبِين) . ولكنهما لم يُعلاَّ فى صيغة الفعل المضاعف نحو ابْيَضَّ واسْوَدَّ . وصيغة التعجب نحو (ما أبْيَنَ) و (ما أقْوَمَ). ومن هذا أيضاً أن الواو والياء المحركتين بالفتحة الطويلة تعلان فى المصدر . فتقلبان ألفاً . ثم يستعاض عن أحد الألفين بتاء مربوطة نحو (استقوام) و (استقامة) ، ولكنهما يسلمان فى صيغ جموع التكسير نحو (قَود وأقْوات) و (صَوْت وأصوات) .

---

(١) انظر نوادر أبي زيد — ٢٦٤ والخصائص ٣-١٥٧ . وشرح المفصل ١٢٢/٥

(٢) المقتضب : ١٠١/١ ، الخصائص : ٢٦١/١ ، العينى : ٥٧٦/٤

(٣) قائله العباس بن مرداس راجع المقتضب : ٢٠١/١ ، وشرح شواهد الشافية : ٢٨١ ، وشرح التصريح : ٣٩٥/٢

(٤) د . علم الدين الجندى ، اللهجات فى التراث : ٤٣١ و ٤١٥

(٥) الخصائص : ١ / ٩٧-٩٨

(٦) الكتاب : ٢١١/٤ تحقيق عبد السلام هارون

(٧) اللسان ٢٠ / ١٨

(٨) القياس والنحو العربي بمجلة كلية اللغة العربية : ٣٠٢/١٠

(٩) (ترجمتى الخاصة) Dillmann, Ethiopic Gr. P. 105

ويرتبط حدوث التطور أيضاً بظاهرة أخرى هي ظاهرة الموقعية [1] ، من أمثلة ذلك ما يلي :

١ - إذا سبقت الواو أو الياء الساكنتان بفتحة قصيرة فإنهما لا يسقطان إذا وقعا في وسط الكلمة نحو : يَوْم ، وبَيْت ، وحَوْقل ، وشَيْطن ، ويسقطان إذا وقعا في طرف الصيغة نحو (عَصَوْ وعَصَا) و (قُرَيْ وقُرَى).

٢ - الواو والياء المتحركتان بالفتحة المسبوقتان بساكن تتحولان إلى فتحة طويلة (ألف مد) إذا وقعتا في الوسط نحو (يُقْوَم ويُقَام) (أقْوَمَ وأقَامَ) ولكنهما تسلمان إذا وقعتا في الطرف نحو عَدْوٌ وحَيٌّ وصِنْوٌ .

قوانين التطور اللغوى :

من أهم قوانين التطور اللغوى المشابهة والمخالفة :

أولا : المشابهة :

هى عملية تحويل صوت إلى صوت آخر يشابهه أو يكون قريباً من الصوت التالى له أو السابق له ، والمشابهة نوعان : النوع الأول ، وفيه يؤثر الصوت الأول على الصوت الثانى ، فيتحول الصوت الثانى إلى صوت يشبه الصوت الأول وتسمى مشابهة تقدمية .

والنوع الثانى : وفيه يؤثر الصوت الثانى على الصوت الأول فيتحول إلى صوت مشابه له أو قريب منه وتسمى مشابهة رجعية .

المشابهة التقدمية :

ويؤدى هذا النوع إلى سقوط الصوت الثانى . والصوت المؤثر قد يكون صامتاً أو حركة . والمتأثر واو أو ياء .

(أ) عندما يكون الصوت المؤثر صامتاً (حرفاً) :

١ - تؤثر الياء على الضمة الطويلة (واو المد) التالية لها في صيغة اسم المفعول الأجوف اليائى ، فتتحول إلى كسرة طويلة (ياء مد) ثم تسقط الياء ، وتنتقل الكسرة الطويلة (ياء المد) إلى الصامت (الساكن) قبلها فيتغير التركيب المقطعى للكلمة نحو مَبْيُوع ومَبِيع .

٢ - تؤثر الياء الساكنة على الواو التالية لها مباشرة فتتحول إلى ياء ، وتدغم في الياء السابقة نحو أيْوام وأيّام ، سَيْوِد وسَيِّد .

(ب) عندما يكون الصوت المؤثر حركة :

١ - تؤثر الكسرة على الياء الساكنة التالية لها فتتحول إلى ياء مد للكسرة السابقة ،

---

(١) يقصد بالموقعية الموقع الذى يقع فيه الواو أو الياء ، فقد يقعان في بداية الكلمة أو في وسط الكلمة أو في طرف الكلمة ، وقد بنى سيبويه دراسته لإعلال الواو والياء على موقعيهما في الكلمة ، يقول في قلب الواو همزة في نحو وعاء وإعاء : ولكن ناسا كثيرين يجرون الواو إذا كانت مكسورة مجرى المضمومة ، فيهمزون الواو المكسورة إذا كانت أولا ... (الكتاب : ٣٣١/٤) وبنى سائر اللغويين قواعد إعلالهم على أساس الموقعية ، من ذلك مثلا : إذا تطرفت الواو والياء بعد ألف زائدة قلبت همزة (تصريف الأسماء د . عبد الرحمن شاهين : ١٦٧) .

ويتحول المقطع المغلق إلى مقطع مفتوح نحو : (مِيْقات ومِيقات) .

وتؤثر الضمة على الواو الساكنة التالية لها فتتحول إلى واو مد للضمة السابقة ويتحول المقطع المغلق إلى مقطع مفتوح نحو (مُوْصَدة ومُوصَدة) .

٢ — تؤثر الكسرة على الواو التالية ، فتتحول إلى ياء نحو (رضِو ورضِي) ، وإن كانت الواو ساكنة تتحول إلى ياء وتصبح الياء كسرة طويلة (ياء مد) نحو (إوْعاد وإيعاد) و (عالوْ وعالى وعال) و (موْلاد وميلاد) . وأشار اللغويون القدماء إلى ذلك فقالوا . تبدل الواو ياء لوقوعها ساكنة مفردة إثر كسرة[1] .

المشابهة الرجعية :

يؤدى هذا النوع إلى سقوط الصوت الأول ، والصوت المؤثر قد يكون الواو أو الياء أو حركة .

(أ) عندما يكون الصوت الثانى المؤثر واواً أو ياء ، والمتأثر هو الواو أو الياء :

١ — تؤثر الياء على الواو الساكنة السابقة لها مباشرة ، فتتحول إلى ياء نحو (شَوْى وشَيّ) و (كَوْى وكَيّ) .

(ب) عندما يكون الصوت الثانى المؤثر واواً أو ياء والصوت الأول المتأثر حركة :

تؤثر الياء الساكنة على الضمة السابقة لها مباشرة فتتحول إلى كسرة ، ثم تصبح الياء الساكنة حرف مد للكسرة السابقة مثل : (بُيْض وبِيض) .

(ج) عندما يكون الصوت الثانى المؤثر حركة والمتأثر هو الواو أو الياء :

١ — تؤثر الكسرة على الياء السابقة لها فينتج كسرة طويلة ، وتنتقل هذه الحركة إلى الساكن قبلها نحو : (يَسْيِرُ ويسِير) و (مُصْيِب ومُصِيب) .

٢ — تؤثر الكسرة على الواو السابقة لها فتتحول إلى ياء ، ثم تتحول الكسرة والياء — كما فى الحالة الأولى — إلى كسرة طويلة ، وتنتقل إلى الساكن قبلها نحو (مصيوب ومُصْيِب ومَصِيب) و (مضيوف ومُضْيِف ومضِيف) و (مقول ومقيل) .

٣ — تؤثر الضمة على الواو السابقة لها فينتج ضمة طويلة وتنتقل إلى الساكن قبلها نحو (يقْوُل ويقُول) .

٤ — تؤثر الفتحة على الواو أو الياء السابقتين فتبدلها ألفاً نحو (يُقْوَلُ ويُقَالُ) و (أبيَنَ وأبَانَ) .

---

(١) د . عبد الرحمن شاهين ، تصريف الأسماء : ١٩٥ .

٥ ـ تؤثر الضمة الطويلة (واو المد) على الواو السابقة لها فتسقط . وتنتقل الضمة الطويلة (واو المد) إلى الساكن قبلها نحو (مصْوُون ومَصُون) .

ثانيا : المخالفة [1] :

تتمثل فى نزعة صوتين متشابهين إلى الاختلاف ، وتميل الواو أو الياء إلى قلبهما همزة فى اللغة العربية فى الأحوال الآتية :

١ ـ إذا التقت واوان فى أول الكلمة ، تخالف الواو الأولى إلى همزة نحو (وَوَاق وأواق) .

٢ ـ الواو المفتوحة أو المكسورة أو المضمومة فى بداية الكلمة تخالف إلى همزة عند أهل تميم نحو (وِشاح وإشاح) .

٣ ـ الواو والياء المحركة بالكسرة والمسبوقة بفتحة طويلة فى صيغة اسم الفاعل تخالف إلى همزة نحو (قاوِل وقائل) و (بايِع وبائع) وكذلك فى المصدر نحو لقاء وبقاء وحياء وذلك عند أهل العالية [2] .

ثالثا : تكون الواو والياء ضعيفتين إذا وقعتا بين حركتين قصيرتين نحو (قَوَم وقَام) و (بَيَن وبان) ، لذلك تميلان نحو السقوط فى أوزان صرفية معينة وفى موقع معين ، إلا أنهما يسلمان إذا ضُعِّفا نحو سعوديّ وسوريّ وعراقى ، ويكثر ذلك فى صيغ النسب .

رابعا : سبب مقطعى :

إذا وقعت الواوُ أو الياء فى نهاية مقطع مزدوج تميل إلى السقوط لأن اللغة العربية تميل إلى التخلص من هذا النوع من المقاطع نحو (ليَسْتُ ولَسْتُ) .

وفيما يلى دراسة مفصلة عن إعلال الواو والياء وفق أسس ثلاثة هى :

١ ـ قوانين التطور .

٢ ـ الصيغ التى يحدث فيها الإعلال .

٣ ـ الموقع الذى يحدث فيه الإعلال .

وسنقسم هذه الدراسة إلى قسمين : القسم الأول ، وهو خاص بالواو أو الياء الساكنتين ، والقسم الثانى خاص بالواو أو الياء المحركتين .

القسم الأول : الواو والياء الساكنتان :

الواو والياء الساكنتان المسبوقتان بحركة قصيرة

تسبق الواو والياء بحركة قصيرة قد تكون فتحة أو كسرة أو ضمة .

١ ـ الفتحة

للموقعية والوزن الصرفى أثر فى حدوث الإعلال أو عدم حدوثه .

---

(١) يقصد بالمخالفة إبدال الحرف حرفا يخالف الأول تمام المخالفة كقلب الواو همزة ، فالهمزة تخالف الواو تماما .

(٢) المقصود بأهل العالية هو نجد . قال الأصبهانى نقلا عن ابن الأعرابى نجد رسمان : السافلة والعالية ، فالسافلة ماولى العراق والعالية ماولى الحجاز وتهامة (اللجهات فى التراث : ٩)

من حيث الموقعية : أولا فى وسط الكلمة.

من حيث الصيغة الصرفية :

هناك ثلاث حالات هى :

(أ) سقوط الواو والياء.

(ب) المحافظة على الواو والياء.

(ج) تحويل الواو ياء.

(أ) سقوط الواو والياء :

تسقط الواو والياء فى صيغة المضارع على وزن (يَفْعِلُ) نحو وَعَدَ فأصل صيغة المضارع (يَوْعِدُ) وأصبحت (يَعِدُ) وكذلك زاد، أصل صيغة المضارع (يَزْيِدُ) وأصبحت (يَزِيد) . وسار ، أصل صيغة المضارع (يَسْيِرُ) وأصبحت (يَسِير)[1] .

(ب) المحافظة على الواو والياء :

تحافظ على الواو والياء فى الأوزان الصرفية الآتية :

١ — فَعْل نحو يَوْم وصَوْم وسَوْء وبَيْت وسَيْر.

٢ — فَعْلة نحو عَوْرة وبَيْضة.

٣ — مَفْعِل نحو مَوْعِد ومَوْقِع.

٤ — مَفْعُول نحو مَوْثُوق.

٥ — صيغة المضارع (يَفْعَلُ) نحو يَيْبَسُ.

٦ — صيغة استفْعَل نحو استوْلى.

٧ — صيغة أفْعَل نحو أيْقن وأيْقَظ وأوعد.

٨ — صيغة فَعْلل نحو حَوْقَل وشَيْطَن.

٩ — صيغة تَفعيل نحو تَوكِيد. وقد تقلب الواو همزة عند بعض العرب فيقولون تَأكِيد[2].

(ج) تحويل الواو إلى ياء :

تتحول الواو إلى ياء فى حالتين :

(أ) إذا تبعت الواو بالياء نحو (رَوْيان وريّان).

(ب) إذا وقعت رابعة أو خامسة نحو (أعْطوتُ وأعطيْتُ) و(زَكّوتُ وزَكّيتُ) و(تَعاطوتُ وتَعاطيْتُ) وعلى هذا النحو تزكّيتُ وتساقيْتَ واستدعيت.

ثانياً : فى طرف الكلمة :

تسقط الواو والياء. وتنشأ فتحة طويلة (ألف مد) فى الأفعال والأسماء ، ومع الأسماء المنونة تقصر الفتحة الطويلة إلى فتحة قصيرة نحو (عَصَوْ وعَصَا الولد ومع التنوين عَصًا) و (قُرَيْ وقُرَى ومع التنوين قُرًى وبالمثل (خُطَوْ وخُطا) و (شَتَيَ وشَتّى) و (عُفَيْ وعفاة) و (أعْمَيْ وأعْمَى) ، (مُسْتَوْ ومُسْتَمَى). ويرى النحاة أن الواو والياء هنا محركتان على أساس وجود حركة الإعراب ، وبالتالى تكون الواو أو الياء قد تحركتا وانفتح ما قبلهما فقلبتا ألفاً (أى فتحة طويلة) ، ولكننا نرى

---

(١) د. إبراهيم هلال فى الوافى الحديث فى التصريف : ١٧٧ – ١٨٧ .

(٢) ابن السكيت ، إصلاح المنطق : ٥٩

أن الإعراب لا يظهر في الكلمات المفردة البعيدة عن التراكيب ، لهذا نرى أن الكلمات هنا ساكنة الآخر .

٢ ــ الكسرة

من حيث الموقع :

أولا : في وسط الكلمة .

تؤثر الكسرة على الواو التالية لها فتستبدل ياء من باب المماثلة التقدمية ، ثم تتحول الياء إلى حرف مد للكسرة السابقة . أما الياء فتتحول إلى كسرة طويلة (حرف مد للكسرة السابقة) .

من حيث الصيغة الصرفية :

تطبق القاعدة السابقة على الصيغ الآتية :

١ ــ فِعْل نحو (طِيْب وطيب) و (دِيْك وديك) .

٢ ــ فِعْلة نحو (ثِورة وثيرة) .

٣ ــ فِعْلان نحو (خِوْلان وخيلان) و (جِوران وجيران) و (جِوْعان وجيعان) .

٤ ــ مِفْعال نحو (مِوْعاد وميعاد) و(مِوقات وميقات) و (مِوْزان وميزان).

٥ ــ إفعال نحو (إوْقاد وإيقاد) .

٦ ــ اسْتِفْعال نحو (استِوثاق واستيثاق)[١] و (استِوْلاء واستيلاء) ؛ يقول اللغويون : تتحول الواو إلى ياء لوقوعها ساكنة إثر كسرة[٢]. وشرح سيبويه انقلاب الواو ياء فقال في باب ماتقلب فيه الواو ياء: وذلك إذا سكنت وقبلها كسرة : فمن ذلك قولهم الميزان والميعاد ، وإنما كرهوا ذلك كما كرهوا الواو مع الياء في لَيّة وسَيّد ونحوهما ، وكما يكرهون الضمة بعد الكسرة حتى إنه ليس في الكلام أن يكسروا أول حرف ويضموا الثاني نحو فِعُل ، ولا يكون ذلك لازماً في غير الأول أيضاً ، إلا أن يدركه الإعراب ، نحو قولك : فخذ . وترك الواو في مِوْزان أثقل ، من قِبل أنه ساكن فليس يحجزه عن الكسر شيء ، ألا ترى أنك إذا قلت وَتِدة[٣] قوى البيان للحركة ، فإذا أسكنت التاء لم يكن إلا الإدغام ؛ لأنه ليس بينهما حاجز ، فالواو والياء بمنزلة الحروف التي تتدانى في المخرج ، لكثرة استعمالهم إياها ، وأنهما لاتخلو الحروف منهما ومن الألف ، أو بعضهن ، فكان العمل من وجه آخر أخف عليهم ، كما أن رفع اللسان من موضع واحد أخف عليهم في الإدغام، وكما أنهم إذا أدْنَوا الحرف من الحرف كان أخفَّ عليهم ، نحو قولهم ازدان واصطبر ، فهذه قصة الواو والياء[٤]

---

(١) استوثاق صيغة استفعال من الفعل استوثق والفعل المجرد منه وثق .

(٢) د . عبد الرحمن شاهين ، تصريف الأسماء : ١٦٥

(٣) وتدة مصدر من الفعل وتد .

(٤) الكتاب : ٤ / ٣٣٦ و ٣٣٧ تحقيق عبد السلام هارون .

ثانياً : فى طرف الصيغة :

تؤثر الكسرة على الواو التالية فتتحول إلى ياء ثم تصبح ياء مد للكسرة السابقة ، أما الياء فتتحول إلى ياء مد للكسرة السابقة ، وتميل الكسرة الطويلة إلى التقصير مع التنوين نحو (غازِيْ وغازِي ومع التنوين غازٍ) و (مُهتدِيْ ومُهتدِي ومع التنوين مُهتدٍ). يقول اللغويون استثقلت الضمة أو الكسرة على الواو أو الياء فحذفت ، فالتقى ساكنان ، الواو أو الياء والتنوين ، فحذفت الواو أو الياء وبقي التنوين [1].

٣ – الضمة

سندرس الواو مستقلة عن الياء هنا :

الواو :

من حيث الموقع :

فى وسط الكلمة .

تؤثر الضمة على الواو التالية فتتحول إلى حرف مد للضمة السابقة (ضمة طويلة) . وذلك عند بعض القبائل العربية نحو (مُوْصَدة ومُوصَدة) ، وتتحول إلى همزة عند بعض آخر من القبائل العربية نحو (مُؤْصَدة) .

جاء فى إصلاح المنطق : أنشدنا أبو عمرو عن الكسائى :

تحن إلى أجبال مكة ناقتى
ومن دونها أبواب صنعاء مُؤْصدة [2]

الياء :

هناك حالتان من حالات المماثلة .

الحالة الأولى : وفيها تؤثر الضمة على الياء التالية لها فتتحول إلى واو من باب المماثلة التقدمية ، ثم تصبح الواو حرف مد للضمة السابقة (ضمة طويلة) .

الحالة الثانية : وفيها تؤثر الياء على الضمة السابقة فتتحول إلى ياء من باب المماثلة الرجعية ، وتصبح الياء حرف مد للكسرة السابقة .

وفيما يلى دراسة مستقلة عن هاتين الحالتين :

الحالة الأولى : وفيها تؤثر الضمة على الياء التالية لها فتتحول إلى واو ، ثم تصبح الواو حرف مد للضمة السابقة (ضمة طويلة) ويقول اللغويون : تبدل الياء واواً لوقوعها ساكنة بعد ضمة .

من حيث الموقـع .

أولا : فى وسط الكلمة .

من حيث الصيغة .

تحدث هذا الإعلال فى الصيغ الآتية :

١ – اسم الفاعل مُفعِل نحو (مُيْقِن ومُوقِن) و (مُيْسِر ومُوسِر) .

٢ – فُعْلَى عندما تكون اسما نحو (ضُيْقَى وضُوقَى) و (كُيْسَى وكُوسَى) ، و (طُيْبَى وطُوبَى [3])

---

(١) د . عبد الرحمن شاهين ، تصريف الأسماء : ١٨٤ (٢) إصلاح المنطق : ١٥٩ و ١٦٠

(٣) أما إذا كانت صفة فتحدث الحالة الثانية ، وفيها تؤثر الياء على الضمة السابقة فتتحول إلى كسرة ، وتصبح الياء حرف مد للكسرة السابقة فيقال ضيق وكيسى صفتين (الكتاب : ٤ / ٣٣٨ و ٣٣٩ تحقيق عبد السلام هارون)

وهذا يعنى أن الحالة الأولى تحدث فى صيغ صرفية معينة ، والحالة الثانية فى صيغ صرفية أخرى ، أما ما ذهب إليه جان كانتنيو من أنه يجوز أن نغلب الياء واواً أو أن تسلم فهذا غير مقبول فى نظرنا ، لهذا نؤيد ما ذهب إليه سيبويه من أن القلب قاصر على الأسماء ، وعدم القلب قاصر على الصفات (راجع علم الأصوات العربى لجان كانتنيو : ١٣٩ والكتاب : ٤ / ٣٣٨ و ٣٣٩

ثانياً : فى طرف الكلمة :

من حيث الصيغة :

١ ــ فى صيغة الفعل الماضى فَعُلَ إذا كانت لامها ياء نحو (قَضُيَ وقَضُوَ) .

٢ ــ إذا وقعت الياء قبل تاء التأنيث نحو (مُرْمُيَة ومُرْمُوَة) .

٣ ــ إذا وقعت قبل زيادتى فعلان نحو (رَمُيان ورَمُوان) .

٤ ــ إذا كانت الياء لاماً لاسم على وزن فَعْلَى نحو (تَقْيَى وتَقْوَى) ، وذلك للتمييز بين الاسم والصفة . فإن كانت صفة لم تقلب .

الحالة الثانية : وفيها تؤثر الياء على الضمة السابقة . فتتحول الضمة إلى كسرة ، وتصبح الياء حرف مد للكسرة السابقة .

من حيث الموقع :

أولا : وسط الكلمة

من حيث الصيغة : تحدث ذلك فى الصيغ الآتية :

١ ــ صيغة فُعْلَى عندما تكون صفة نحو (ضُيْقَى وضِيقَى) و (كُيْسَى وكِيسَى) .

٢ ــ صيغة فُعْل جمع أفعل نحو (هَيَاء وهُيْم وهِيم) و (بيضاء وبُيْض وبِيض) .

ثانياً : طرف الكلمة

من حيث الصيغة :

تحدث ذلك فى صيغة تَفَاعُل نحو (تَوَانُى وتَوَانِي وتوانٍ مع التنوين) .

الواو والياء الساكنتان المسبوقتان بحركة طويلة :

قد تسبق الواو أو الياء بحركة الفتحة الطويلة (ألف المد) أو الكسرة الطويلة (ياء المد) أو الضمة الطويلة (واو المد)

(أ) الفتحة الطويلة « ألف المد » :

من حيث الموقع : طرف الصيغة .

من حيث الصيغة : صيغة فَعَال أو فِعَال .

تثبت الواو أو الياء عند تميم فيقال : حَيَاْى وكِسَاْو وبِنَاى ورِدَاى ، وفِدَاى وعَلَاو وتخالف الواو أو الياء إلى همزة عند أهل العالية (أهل نجد) لذلك يقال : عَلَاء وحَيَاء وكِسَاء وبِنَاء ورِداء وفِداء ؛ ثم شاع ذلك فى العربية الفصحى .

(ب) الكسرة الطويلة :

من حيث الموقع : طرف الصيغة .

من حيث الصيغة : صيغة فَعِيل . (ياء مد) .

تتحول الواو الساكنة المسبوقة بكسرة طويلة إلى ياء لتناسب الكسرة ، ثم تقصر الكسرة الطويلة لينشأ مقطع قصير ؛ لأن اللغة العربية لا تفضل المقطع الطويل فى طرف الكلمة ، ويؤدى تقصير المقطع الطويل إلى تضعيف الياء ، يقول اللغويون . اجتمعت الواو والياء وسكنت الأولى فقلبت الثانية ياء

---

(١) الكتاب : ٤ / ٣٣٥ ــ ٣٣٩

(٢) ابن عقيل : ٢/ ٥٦١

وأدغمت في الياء[1] نحو (جَلِيو وجَلِيْ وجَلِيّ) وهي صيغة فعيل من الفعل جلا يجلو).

(جـ) الضمة الطويلة :

من حيث الموقع : طرف الصيغة .

من حيث الصيغة : صيغة فَعُول أو فُعُول .

(أ) إذا سبقت الواو بضمة طويلة (واو مد) : تقصر الضمة الطويلة إلى قصيرة وتضعف الواو نحو (عَدُوْوْ وعَدُوٌّ) و (عُلُوْوْ وعُلُوٌّ) .

(ب) إذا سبقت الياء بضمة طويلة (واو مد) : تؤثر الياء عليها ، فتتحول الضمة الطويلة (واو المد) إلى كسرة طويلة (ياء مد) ثم تقصر إلى كسرة قصيرة وتضعّف الياء نحو (مَضُوى ومُضِيٌّ) و (عُصُوى وعِصِيٌّ) و (دلوى ودُلِيّ) يقول اللغويون : قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسر ما قبل الياء المشددة .

القسم الثاني :

الواو أو الياء المتحركتان اذا سبقتا بحرف ساكن :

١ – تُعَلّ الواو أو الياء بوجه عام إذا وقعت في وسط الكلمة حسب التفصيلات المقبلة . ولكنهما يسلمان في الصيغ الآتية :

(أ) الفعل المضاعف نحو ابْيَضّ واسْوَدّ .

(ب) صيغة أفعل من المعتل الفاء نحو أوْفَى وأيْقَن .

(جـ) صيغة التعجب نحو : ما أبْيَنَ وما أقْوَمَ[2] .

٢ – تحول الواو أو الياء إلى حركة طويلة . وتنقل إلى الساكن قبلها ، وبالتالي سيحدث تغيير في التركيب المقطعي للكلمة ، فمثلا (يَهْيَبُ) تتكون من ثلاثة مقاطع : الأول مغلق (يَهْ) ، وكل من الثاني والثالث مفتوح (يَ ، بُ) . وبعد الإعلال ستتحول المقاطع الثلاثة إلى مقاطع مفتوحة هي : (يـ – ها – ب) ، وهذا الإعلال خاص بصيغ معينة .

٣ – تسقط الواو أو الياء ، ويستعاض عنها بتاء التأنيث المربوطة : ويحدث هذا في صيغ المصادر نحو إقوام (وهي الصيغة الأساسية للمصدر الذي على وزن إفعال) . وإقامة .

وسندرس فيما يلي بالتفصيل أحوال إعلال الواو أو الياء المحركتين والمسبوقتين بحرف ساكن :

قد تكون حركة الواو أو الياء فتحة قصيرة أو كسرة قصيرة أو ضمة قصيرة أو فتحة طويلة أو ضمة طويلة .

---

(١) د . عبد الرحمن شاهين ، تصريف الأسماء : ٢٤١

(٢) ابن عقيل : ٢ / ٥٧٢

(١) الواو أو الياء المحركتان بالفتحة القصيرة :

من حيث الموقع :

أولا : فى وسط الكلمة

من حيث الصيغة :

(أ) تسقط الياء أو الواو وتنشأ فتحة طويلة (ألف مد) فى الصيغ الآتية :

١ — صيغة الفعل المضارع (يُفْعَل) نحو (يقْوَل ويُقال) و (يُسْيَل ويُسال).

٢ — صيغة الفعل الماضى (أفْعَلَ) نحو (أقْوَمَ وأقامَ) و (أبْيَنَ وأبانَ) و (أعْوَدَ وأعادَ).

٣ — صيغة الفعل الماضى (استفْعَل) نحو (استحْوَذ واستحاذ) و (استشْوَر واستشار) واحتفظت قبيلة تميم بالصيغة الأصلية نحو استحْوَذ واستَيْيَس واستَنْوَق.

٤ — صيغتا (مَفْعَل ومَفْعَلة) نحو (مَسْوَق ومَساق) و (مَمْوَت ومَمات) و (مَنْوَم ومَنام) و (مَطْيَر ومَطار) و (مَكْوَزة ومَكازة).

٥ — صيغة (مُفْعَل) نحو (مُقْوَم ومُقام) و (مُعْوَذ ومُعاذ).

٦ — صيغة (مُستفْعَل) نحو (مُسْتَشْوَر ومُسْتَشار) و (مُسْتَعْوَن ومُسْتَعان).

(ب) تمتاز أبنية المصدر بأن ألف المد المنقلبة عن واو أو ياء — كما فى الحالة السابقة — تسقط ويستعاض عنها بتاء مربوطة فى طرف الصيغة نحو (إقوام وإقام وإقامة) و (إبيان وإبان وإبانة).

(جـ) تقلب الواو ياء فى الصيغ الآتية :

١ — الصفات التى على وزن «فُعْلَى» لتمييزها عن الأسماء التى على نفس الوزن ، ويحدث هذا القلب عند أهل تميم نحو (عُلْو وعُلْيا) و (دُنْوَى ودُنْيا) أما حُزْوَى وقُصْوَى فهما اسمان عند أهل تميم ويستعملهما أهل الحجاز صفتين.

٢ — صيغ التصغير التى تقع فيها الواو بعد الياء نحو (جَرْو وجُرَيْو وجُرَىّ) يقول النحاة فى تفسير هذا الإعلال : اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء.

٣ — لا يحدث إعلال فى صيغة (افْعَلَّ) نحو اغْيَمَّ[1].

ثانياً : فى طرف الكلمة :

تسلم الواو والياء نحو عَدْوٌ ورَمْىٌ وصِنْوٌ.

(٢) الواو والياء المحركتان بالكسرة القصيرة :

١ — تؤثر الكسرة على الواو — من باب المماثلة الرجعية — فتتحول الواو إلى ياء ثم تصبح حرف مد للكسرة السابقة نحو (مضووف ومضيف) و (مقوول ومقيل).

(١) ابن عقيل : ٢/٥٦٥ ، تصريف الأسماء : ١٦٦.

٢ – تثبت الياء وتصبح حرف مد للكسرة التالية (كسرة طويلة) نحو (مُبْيِن ومُبِين) و (يَبْيِن ويَبِين) و (يَسْيِر ويَسِير).

٣ – إذا وقع قبل الواو ياء، تدغم فى الياء المنقلبة عن واو مثل (سَيْوِد وسَيِّد وسَيِّد) و (مَيْوِت ومَيِّت[1]).

(٣) الواو المحركة بالضمة القصيرة:

تتحول إلى ضمة طويلة، وتنتقل إلى الساكن قبلها نحو (يَقْوُل ويَقُول).

وفى صيغ جموع التكسير تخالف الضمة إلى همزة عند بعض القبائل العربية نحو (أدْوُر وأدْؤُر) و (أنْوُر وأنْؤُر).

(٤) الواو والياء المحركتان بالفتحة الطويلة (ألف المـــد):

من حيث الموقع: وسط الكلمة.

من حيث الصيغة:

(أ) المصدر:

تسقط الواو أو الياء وتنشأ ألف مد (فتحة طويلة) فيلتقى ألفا مد (فتحتان طويلتان) فتنتقل إحداهما إلى الساكن السابق، ويستعاض عن الأخرى بتاء مربوطة فى نهاية الصيغة[2]، وعلّل النحاة هذا الإعلال بقولهم: تحركت عين المصدر بحسب الأصل وفتح ما قبلها بحسب الآن، فقلبت الواو أو الياء ألفاً، فالتقى ساكنان، الألف الجديدة التى هى عين الكلمة وألف المصدر، فحذفت إحداهما. وعوض عنها تاء، نحو (استِعْواذ واستعاذة) و(استِقْوام واستقامة) و(إقْوام وإقامة) و (إضْيَاف وإضافة).

(ب) أبنية جموع التكسير:

لا تحدث فيها مثل هذا الإعلال، وإنما تسلم الواو أو الياء نحو (صَوْت وأصْوات) و (قُوت وأقْوات) و (باب وأبواب) و (موت وأموات).

وإذا سبقت الواوَ ياءٌ ساكنةٌ تقلب الواو ياء وتدغم فى الياء الأولى نحو (يوم وأيْوَام وأيّام)

(٥) الواو والياء المحركتان بالضمة الطويلة (واو المد):

تحافظ تميم على الواو والياء المحركتان بالضمة الطويلة نحو مبيوع ومكيول ومديون ومعيون ومصوون ومقوون قال ابن جنى: بنو تميم – فيما زعم علماؤنا – يتمون مفعولا من الياء فيقولون: ثوب مخيوط ويسرة مطيوبة أما أهل الحجاز فيحذفون الواو وتنتقل حركتها إلى الساكن قبلها نحو ثوب مصون وقول مقول، وفرس مقود، ذكر ابن خالويه: ليس فى كلام العرب من ذوات الواو معة ول خرج على أصله إلا فى حرفين،

---

(١) الكتاب لسيبويه: ٣٦٥/٤ تحقيق عبد السلام هارون، وابن عقيل: ٥٦٦/٢

(٢) هناك خلاف بين البصريين والكوفيين حول أى الألفين تحذف.

(٣) ويعوض عنها بتاء مربوطة فى طرف الصيغة (راجع شرح المفصل: ٦٠/١٠ ومابعدها)

يقال مسك مدووف وثوب مصوون ، وحكى الكسائى خاتم مصووغ ، وفرس مقوود[1] .

جاء فى اللسان : رجل معود ومَعْوُود، الأخيرة شاذة ، وهى تميمية ، ومسك مَدْوُوف وهى تميمية . قال ابن الأعرابى : ثوب مصون على النقص ومَصْوُون على التمام. الأخيرة نادرة وهى تميمية[2] ، قال اللحيانى قول مقول ومَقْوُول. قال والإتمام لغة أبى الجراح ، ولعله أبو الجراح العقيلى . جاء عن الفراء عن الكسائى أن بنى يربوع وبنى عقيل يقولون حلى مَصْوُوغ ومسك مدووف وثوب مصوون وفرس مقوود وقول مقوول ، أما البصريون فلا يعرفون ذلك[3] .

وبنو يربوع بطن من حنظلـــة من تميم كما جاء فى نهاية الأرب ، وأما عزوها لعقيل ، فعقيل غير تميم[4] .

ومن الأمثلة العامية فى نجد « أم البيض مَقْوُوو قرأدة »[5] قتادة الآية الكريمة : «لَمَثْوُوبَة» من عند الله خير»(البقرة : ١٢٥) فى حين أن قراءة الجمهور « لَمَثُوبَة » :

هذه إذن صيغة قديمة ولوجارت التطور لأصبحت مثابة كما فى لهجة كلاب . حكى ابن منظور قـــول الـــكلابيين : « لانعرف المَثْوَبة ولكن المَثَابة) .

أما الياء المحركة بالضمة الطويلة عند أهل الحجاز ، فإن الضمة الطويلة (واو المد) تسقط وتحافظ على الياء ثم تتحول إلى كسرة طويلة (ياء مد) ، وتنتقل إلى الساكن قبلها نحو مبيوع عند أهل تميم ومبيع عند أهل الحجاز ، وبالمثل يكون مَصْيُوب ومَصِيب ، مكيول ومكيل ، معنى هذا أن اللغة تحافظ على الضمة الطويلة مع الواو إشارة إلى الأصل الواوى ، وتحافظ على الكسرة الطويلة مع الياء إشارة إلى الأصل اليائى . وفسر النحاة هذا الإعلال فقالوا : « إن أصل مبيع هو مبيوع ، ثم نقلت حركة الياء إلى الساكن الصحيح قبلها ، فسكنت الياء ، فالتقى ساكنان الياء والواو ، فحذفت الواو على رأى سيبويه ، ثم قلبت الضمة كسرة لمناسبة الياء فصار مبيع » .

القســم الثالث :

الواو أو الياء المتحركتان فى أول الكلمة :

١ ــ الواو أو الياء المحركتان بالفتحة القصيرة :

تقلب الواو أو الياء عند القبائل الشرقية من الجزيرة العربية همزة ، وتثبت عند القبائل العربية نحو وَجَمَ وأَجَمَ ونَاة وأناة، وسادة، وإسادة ، وتشبه اللهجات الشرقية فى هذا اللغة الأكادية التى تميل إلى تحويل الواو أو الياء فى أول الكلمة همزة فمثلا يَوْم فيها أُمّ (umu')[6]

---

(١) الخصائص : ١/٣٧٠ ، واللهجات فى التراث : ٤١٦

(٢) اللسان : ١٧/١١٨ ، اللهجات فى التراث : ٤١٧

(٣) أدب الكاتب : ٤٧٧

(٤) (ترجمتى الخاصة) Rabin, Ancient West Arabian. P. 160

(٥) اللهجات فى التراث : ٤٣١

(٦) (ترجمتى الخاصة) Rabin, Ancient West Arabian. P. 84

ولكن يبدو أن هذا القلب ليس مطرداً كما وصفه سيبويه[1] غير أن الواو المحركة بالفتحة القصيرة تقلب همزة باطراد إذا تبعت بواو أخرى محركة بفتحة طويلة (متبوعة بألف مد) نحو (ووعد وأواعد) و (وواصل وأواصل) .

هذا بالنسبة إلى الواو ، أما بالنسبة إلى الياء فإنها كالواو نحو (يلك وألك) وتنسب الأخيرة إلى هذيل ، وهذيل من قبائل الجزيرة العربية الشرقية و (يرقان وأرقان) و (يَدٌ وأدٌ) وتشبه اللهجات الغربية فى ذلك اللغات السامية الغربية .

٢ — الواو أو الياء المحركتان بالكسرة القصيرة :

تثبت عند القبائل العربية فى غرب الجزيرة العربية مثل وسواس ، وسَام ، وشاح ، وعاء ، وتقلب همزة عند القبائل فى شرق الجزيرة العربية ، وعزى ذلك إلى قبيلة هذيل ، فتقول فى وشاح إشاح ، وفى وعاء إعاء . جاء فى إصلاح المنطق : وكاف وإكاف ،ولاف وإلاف ، وسادة وإسادة[2] .

يقول سيبويه : « ولكن ناساً من العرب يجرون الواو إذا كانت مكسورة مجرى المضمومة . فيهمزون الواو المكسورة إذا كانت أولا . كرهوا الكسرة فيها كما استثقل فى يَيجَلُ وسَيِّد وأشباه ذلك »[3] .

٣ — الواو أو الياء المحركتان بالضمة القصيرة :

تثبت عند بعض القبائل . وتستبدل همزة عند بعضها الآخر ، مثل وُجُوه وأجُوه ، حكى الفراء حيٌّ الوجوه وحيٌّ الأُجوه[4] ، ومثل : وَلِدَ وألِدَ[5] ، يقول سيبويه : « اعلم أن هذه الواو إذا كانت مضمومة فأنت بالخيار إن شئت تركتها على حالها . وإن شئت أبدلت الهمزة مكانها وذلك نحو قولهم فى وُلِدَ ألِدَ . وفى وُجُوه أجُوه ، وإنما كرهوا الواو حيث صارت فيها ضمة كما يكرهون الواوين فيهمزون نحو قَؤُول ومؤْنة ، وأما الذين لم يهمزوا فإنهم تركوا الحرف على أصله ، كما يقولون قؤول ، ومع أن هذه الواو ضعيفة تحذف وتبدل ، فأرادوا أن يضعوا مكانها حرفاً أجلد منها ، ولما كانوا يبدلونها وهى مفتوحة فى مثل وَنَاة وأنَاة ، كانوا فى هـذا أجدر أن يبدلوا حيث دخله ما يستثقلون ، فصار الإبدال فيه مطرداً حيث كان البدل يدخل فيما هو أخف منه[6] .

أما الياء المضمومة فتثبت نحو يُبُوسة[7] :

---

(١) الكتاب : ٣٣١/٤ تحقيق عبد السلام هارون (٢) إصلاح المنطق : ٧٥
(٣) الكتاب : ٣٣١/٤ تحقيق عبد السلام هارون . (٤) إصلاح المنطق : ٦٠
(٥) الكتاب : ٣٣١/٤ تحقيق عبد السلام هارون . (٦) الكتاب : ٣٣١/٤ تحقيق عبد السلام هارون
(٧) تصريف الأسماء : ١٦٠

٤ - الواو المحركة بالفتحة الطويلة (المتبوعة بألف مد) :

تبدل الواو المتبوعة بألف مد فى لهجة كنانة ياء نحو يازع بدلا من وازع ، وتشبه هذه الظاهرة ما فى العبرية والآرامية ؛ إذ أن الواو فى أول الكلمة تبدل ياء فيها نحو ولد فإنها تصبح يـلـد .

القسـم الرابع :

الواو والياء بين حركتين فى وسـط الكلمـة

تحرك الواو أو الياء بالفتحة القصيرة أو الكسرة القصيرة أو الضمة القصيرة أو بأى حركة طويلة .

(أ) الواو والياء المحركتان بالفتحة القصيرة :

قد تسبق بفتحة قصيرة : تسقط الواو أو الياء ، وتنشأ فتحة طويلة (تنقلب ألفاً) فى الصيغ الآتية :

١ - فَعَلَ فعلاً أو فعَل اسماً ، ونرى أن الإعلال يقع فى الاسم والفعل على حد سواء ؛ لأنه لن يؤدى إلى لبس فى الصيغتين ، ذلك أن اللغة تميز بين الفعل والاسم فى الصيغة الواحدة عن طريق الإعراب أو البناء ، فعندما تكون (فَعَل) اسماً تعرب ، وعندما تكون فعلا تبنى .

وأمثلة وقوعه فى الأفعال : (قول وقالَ) و (بَيَع وباع) ، (سير وسار) .

ويحدث هذا الإعلال فى طرف الفعل كذلك نحو (سَوَيَ وسَوَى) و (نَدَوَ ونَدَا) و (نَجَوَ ونَجَا) .

وتبقى الفتحة الطويلة فى المقطع المفتوح وفى المقطع المغلق تقصر الفتحة إلى فتحة قصيرة ولكنها تستبدل بحركة تجانس عين الفعل ، فإن كانت عين الفعل واواً استبدلت الفتحة ضمة نحو (قُمْتَ) وإن كانت ياء استبدلت الفتحة كسرة نحو (سِرْتُ) وبالتالى تدل حركة فاء الفعل على أصل العين(١) .

أوضحنا أن الإعلال يحدث فى صيغة (فَعَل) أما صيغة (فَعِل) فإنه لا يحدث وخاصة إذا كان الإعلال سيؤدى إلى خلط الصيغة الناتجة بصيغة (فَعَلَ) نحو (عَوِرَ وعَارَ) و (صَيِد وصاد) ، فلو حدث الإعلال فى(فَعِل) هنا لاختلطت بصيغة (فَعَلَ) ، ومن هنا نرى أن الإعلال مرتبط بالصيغة الصرفية ، وعدم حدوث الإعلال فى هذه الأمثلة لا يكون من باب الشواذ ، على أن للخليل رأياً آخر ، فهو يرى أن الذى يسلم هو باب (فَعِل يفعَل) أما باب(فَعَل يفعِل) فإن الواو أو الياء تعتل فيه نحو (طاح يطيح) و(تاه يتيه)(٢) ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قول سيبويه فى شرح ذلك : « وأما قولهم : (عَوِر يعْوَر) و (حَوِلَ يحْوَل) و (صيد يَصْيَد) فإنما جاءوا بهن على الأصل ، لأنه فى معنى ما لا بد له من أن يخرج على الأصل ،

(١) (ترجمتى الخاصة) O'leary, Comparalive Grammar of the Semitic Languages P. 119

(٢) الكتاب : ٤/٣٤٤ تحقيق عبد السلام هارون

نحو (اعـوَوَرَتْ) و (احـوَلاتْ) . . . فلما كنّ في معنى ما لا بد له من أن يخرج على الأصل لسكون ما قبله تحركن ، فلو لم تكن في هذا المعنى اعتلت ، ولكنها بنيت على الأصل إذ كان الأمر على هذا »(١) .

أمثلة وقوعه في الأسماء :

١ — وزن فعَلْ نحو (بوَبْ وبابْ) .

٢ — وزن مُفاعلة نحو (مُناجوَة ومناجاة) و (مُنادَية ومُنادَاة) .

٣ — وزن فُعلة نحو (قُضَيَة وقُضاة) و (رُمية ورُماة) و (رُعية ورُعاة) و (حُدوَة وحداة) :

الواو أو الياء إذا سبقتا بكسرة قصيرة :

من حيث الموقع :

في وسط الكلمة : يحافظ على الواو نحو حوَج وخاصة إذا أدى الإعلال إلى الاختلاط بصيغة (فعَل) .

في طرف الكلمة : تتحول الواو إلى ياء نحو (رَضو ورَضي) و (قوَو وقوَى(٢)) .

وتتحول الواو إلى ياء إذا وقعت قبل تاء التأنيث نحو شَجوَة وشَجية ، وبالمثل باقية وداعية وعادية(٣) .

أما الياء فيحافظ عليها نحو لَقِيَ .

الواو أو الياء إذا سبقتا بضمة قصيرة :

تسلم الواو والياء في الصيغ الآتية :

١ — صيغة فُعَل الدالة على جمع التكسير نحو (نوب) .

٢ — صيغة مُفعَل نحو (مُوقَد)(٤) .

٣ — صيغة المضارع المنصوب نحو (لن يغزوَ) و (لن يرميَ) .

٤ — صيغ الأسماء المنصوبة نحو (رأيت القاضيَ(٥)) .

الواو أو الياء إذا سبقتا بفتحة طويلة (ألف مد)

من حيث الموقع

أولا : في وسط الكلمة :

يحافظ عليها عند بعض القبائل العربية نحو : بايع وساير وتجاوَز ، وتسقطان ويستعاض عنها بتضعيف الحرف التالي عند بعض آخر من القبائل نحو (تحاوَب وتحابّ(٦))

ثانيا : في طرف الكلمة :

يحتفظ بها عند بني تميم سواء أكان ذلك في المصدر أو الجمع نحو لِقايَة وصَلايَة ، أما أهل العالية (أهل نجد) فيحولونها

---

(١) الكتاب : ٤/٣٤٤ تحقيق عبد السلام هارون

(٢) ابن عقيل : ٢/٥٦٦

(٣) تصريف الأسماء : ٢٣٤

(٤) تصريف الأسماء : ١٨٦

(٥) علم الأصوات العربي : ١٣٨

(٦) تصريف الأسماء : ١٦٤ وعلم الأصوات العربي : ١٣٨ والنحو المقارن : ١١٩

إلى همزة نحو مُشاء وبُكاء ودُعاء ووعاء، ولقاءة وعباءة[1] ويقول النحاة إذا تطرفت الواو أو الياء بعد ألف زائدة قلبت همزة[2].

(ب) الواو أو الياء المحركتان بالكسرة القصيرة:

قد تسبقان بفتحة قصيرة أو بضمة قصيرة.

١ — عندما تسبقان بفتحة قصيرة:

تؤثر الفتحة على الواو أو الياء والكسرة فيسقطان وتنشأ فتحة طويلة، أو كما يقول النحاة، تحركت الواو أو الياء وفتح ما قبلهما فقلبتا ألفا[3] نحو (مُخْتيِر ومُخْتار) و (مُنقوِد ومُنقاد) و (خوِف وخافَ) و (نوِرْ ونارَ).

٢ — عندما تسبقان بضمة قصيرة:

تؤثر الكسرة على الواو والضمة السابقة فتنشأ كسرة طويلة أو ياء مد نحو (قُوِلَ وقيل) و (سُيِر وسِير).

٣ — عندما تسبقان بفتحة طويلة (ألف مد):

تتحولان إلى همزة فى الصيغ الآتية:

(أ) اسم الفاعل نحو قاوِم وقائم، قاوِل وقائل. يقول النحاة وقعت الواو عينا لاسم الفاعل فقلبت همزة لوقوعها إثر ألف زائدة:

(ب) صيغة جمع التكسير فعائل نحو (سَحاوِب وسحائب) (عجاوِز وعجائز) ويقول النحاة: وقعت الألف وهى حرف زائد بعد ألف الجمع فقلبت همزة، وإن كانت المدّة أصلية لم تقلب نحو مُصيبة ومَصايِب.

(ج) صيغ المصادر «فَعال وفِعال وإفعال» نحو (قضاى وقَضاء) و (نَمَاو ونَماء) و (شَقَاى وشَقَاء) و (إرضاى وإرضاء)

(ج) الواو أو الياء المحركتان بالضمة القصيرة:

قد تسبق الواو أو الياء بفتحة قصيرة أو كسرة قصيرة أو ضمة قصيرة.

(أ) عندما تسبقان بفتحة قصيرة:

تؤثر الفتحة على الواو أو الياء والضمة القصيرة فتحذف الواو أو الياء والضمة وتنشأ فتحة طويلة أو كما يقول النحاة: تحركت الواو أو الياء وانفتح ما قبلهما فقلبتا ألفا نحو (طول وطال) و (يُندَوَ ويُندَى).

(ب) عندما تسبق الياء بكسرة قصيرة:

تسقط الضمة وتتحول الياء إلى حرف مد للكسرة السابقة نحو (يَرمِيُ ويَرمِي)؟

---

(١) اللهجات فى التراث: ٢٦٤

(٢) تصريف الأسماء: ١٦٧ و ١٦٨ و ١٨٨

(٣) تصريف الأسماء: ١٦٤

(جـ) عندما تسبق الواو بالضمة القصيرة تسقط الضمة وتتحول الواو إلى حرف مد للضمة السابقة نحو (يَنْدُوَ ويَنْدُو) (يَغزُوُ ويَغزُو) .

(د) الواو أو الياء المحركتان بحركة طويلة (بحرف مد أولين) :

١ — الواو أو الياء المحركتان بفتحة طويلة (ألف المد) :

تسبق الواو أو الياء بالفتحة القصيرة أو الكسرة القصيرة .

(١) عندما تسبق الواو أو الياء بالفتحة القصيرة : — يحافظ عليهما مثل : صَوَاعق .

(٢) عندما تسبق الواو أو الياء بالكسرة القصيرة : تقلب الواو ياء في الصيغ الآتية :

(أ) صيغة المصدر فِعَال من الفعل الثلاثي فَعَلَ عند أهل الحجاز نحو (قام قياما) (وصام صياما) و(حال حيالا)[٢] أما إذا كانت فِعَال مصدراً لفعل على وزن فاعل فإنها تثبت ، وذلك للتمييز بين مصدر الفعل المجرد (فَعَلَ) ومصدر الفعل المزيد (فَاعَلَ) ، نحو (لاوذ لِوَاذاً) و (جَاوَرَ جِواراً[٣]) :

(ب) صيغة جمع التكسير (فعال) نحو (سوْط وسياط) و (ثَوْب وثياب) و(روضة ورياض) و (دار وديار) :

يقول النحاة في تفسير ذلك : وقعت الواو والياء عينا في جمع التكسير وبعدها ألف الجمع وقبلها كسرة فقلبت ياء[٤] : وشرح سيبويه أسباب قلب الواو ياء فقال في باب : «هذا باب تقلب الواو فيه ياء لا لياء قبلها ساكنة ولا لسكونها وبعدها ياء ، وذلك قولك : حاولت حيالا وإنما قلبوها حيث كانت معتلة في الفعل فأرادوا أن تعتل إذا كانت قبلها كسرة ، وبعدها حرف يشبه الياء ، فلما كان ذلك فيها مع الاعتلال لم يقروها ، وكان العمل من وجه واحد أخف عليهم وجروا على ذلك للاعتلال ، ومثل سوْط وسياط ، وثوب وثياب وروضة ورياض : لما كانت الواو ميّتةً ساكنةً شبهوها بواو يقول لأنها ساكنة مثلها ولأنها حرف الاعتلال[٥] » :

ونرى أن سبب القلب يرجع إلى المشابهة التقدمية ، فقد أثرت الكسرة على الواو التالية لها فحولتها إلى ياء ، ومن المعروف — كما قال ابن جني — أن الحركات أبعاض حروف المد واللين وهي الألف والياء

---

(١) (ترجمتي الخاصة) O'leary, Comparative Gr. of the Semitic Languages P. 119.

(٢) تثبت الواو عند أهل تميم فيقولون قوام وصوام وحوال وعوار وبالتالي لايكون ذلك من باب الشذوذ كما ذهب النحاة (انظر أوضح المسالك : ٢/٤٠٢)

(٣) تصريف الأسماء : ٣٠١

(٤) الكتاب : ٤/٣٦٠ تحقيق عبد السلام هارون .

(٥) سر صناعة الإعراب : ١/١٩ تحقيق مصطفى السقا وآخرين .

والواو ، أى أن الكسرة بعض من الياء وهذا بالطبع قاصر على وزن صرفى معين ؟

أما الياء فتثبت نحو حياكة .

(٣) عندما تسبق الواو أو الياء بالضمة القصيرة: يحافظ عليها مثل خُوَار ومُوَال

٢ - الواو أو الياء المحركتان بالكسرة الطويلة (ياء المد) تسبق الواو أو الياء هنا بالفتحة القصيرة : تسقط الكسرة الطويلة (ياء المد) وتستخدم الواو أو الياء فى غلق المقطع ، أى أنها تستكن نحو (تَنْسَيِيين وتَنْسَيْنْ) و (تَرْضَوِين وترضون) .

٣ - الواو أو الياء المحركتان بالضمة الطويلة (واو المد)

(أ) عندما تسبقان بالفتحة القصيرة : من حيث الموقع

أولا : فى وسط الكلمة :

تثبت عند بعض القبائل العربية ، وتستبدل همزة عند بعضها الآخر ؛ نحو (قَوُول وقَؤُول) و (صَوُول وصَؤُول) ؛ ويفسر النحاة ذلك بقولهم : قلبت الواو الأولى همزة لوقوعها مضمومة ضمة لازمة غير مشددة[1] .

ثانيا : فى طرف الكلمة :

تسقط الضمة الطويلة (واو المد) وتستخدم الواو فى غلق المقطع نحو (غَزَوُوا وغَزَوْا) .

(ب) عندما تسبقان بالكسرة :

تسقط الضمة الطويلة (واو المد) وتستبدل بالكسرة الضمة نحو (رضِيُوا ورَضِيوْا ورَضُوا) ومع الياء تستبدل الواو ياء وتصبح ياء مد للكسرة السابقة نحو (رَاضِيُونوراضِيوْن وراضين) .

(جـ) عندما تسبقان بالضمة :

تسقط الضمة الطويلة (واو المد) وتصبح الواو الأولى حرف مد للضمة السابقة نحو : (يَغْزُوُونويَغْزُون)(ومع الجزم يَغْزُوا[2]).

الخاتمة :

درست فى هذا البحث تكوين الواو والياء ، ووظيفة كل منهما فى اللغة العربية ، وانتهيت من هذا إلى أن للواو والياء طبيعة انتقالية ، فالواو تسهل الانتقال بين الضمة والفتحة نحو لن يَدْعُوَ، والياء تسهل الانتقال بين الكسرة والفتحة نحو لن يَرْمِيَ .

بعد ذلك انتقلت إلى شرح معنى الإعلال فأوضحت أنه ضرب من التطور اللغوى . واستدللت على ذلك بوجود صيغتين للكلمة الواحدة ، الأولى لم تُعَلّ فيها الواو أو الياء والثانية اعتلت فيها الواو أو الياء، وأكدت

---

(١) تصريف الأسماء : ١٨٨

(٢) علم الأصوات العربى : ١٣٨

أن الصيغ التى لم تُعَلّ فيها الواو أو الياء ليست شاذة كما ذهب الصرفيون ، بل إنها تمثل الصيغ الأصلية قبل أن ينتابها التطور ، من هنا تتبعت موطن الصيغ الأصلية ، وموطن الصيغ التى انتابها الإعلال ، فمثلا عندما وجدت صيغتين لاسم المفعول من الفعل (خاط) وهما مَخْيُوط ومخيط ، أرجعت الأولى إلى تميم وأرجعت الثانية إلى أهل الحجاز ، وهكذا استطعت إرجاع كل الصيغ التى وصفها الصرفيون بالشذوذ إلى مواطنها الأصلية ، ولهذا أرى أن السبب الذى جعل الصرفيين يحكمون على صيغة مثل مخيوط بالشذوذ هو تطبيق نظرية القياس دون مراعاة للهجات العربية القديمة المختلفة .

شرحت بعد ذلك أسباب الإعلال فأثبتُّ أن الإعلال لا يرجع إلى مجرد قوانين مهما قيدت بشروط دقيقة ، بل رأيت أن الإعلال يرجع إلى عدة أسباب مجتمعة هى خصائص المقطع العربى وموقع الواو أو الياء فى الكلمة ونوع الصيغة الصرفية ، ولأوضح أهمية كل هذه العوامل فى حدوث الإعلال تتبعت الواو أو الياء عندما يكونان ساكنين تارة وعندما يكونان محركين تارة أخرى ، وتتبعت تأثير الحركة السابقة على الواو أو الياء عندما يكونان ساكنين أو عندما يكونان محركين . . . وقد اقتفيت بذلك إثر سيبويه فى دراسة الإعلال .

المراجع

أولا : المراجع العربية :

١ – ابن الجزرى ، النشر فى القراءات العشر دمشق سنة ١٣٤٥ هـ .

٢ – ابن جنى ، الخصائص ، تحقيق عبد الحليم النجار . القاهرة سنة ١٩٥٢

٣ – ابن جنى سر صناعة الإعراب . تحقيق مصطفى السقا وآخرين. القاهرة سنة ١٩٥٤

٤ – عبد الصبور شاهين ، المنهج الصوتى للبنية العربية . بيروت سنة ١٩٨٠ .

٥ – محمود السعران ، علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربى . الإسكندرية سنة ١٩٦٢

٦ – ابن يعيش ، شرح المفصل .

٧ – سيبويه ، الكتاب تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة .

٨ – كمال بشر ، علم اللغة العام (الأصوات) . القاهرة ١٩٧٠ .

٩ – علم الدين الجندى ، اللهجات فى التراث . القاهرة ١٩٦٥ .

١٠ – عبد الرحمن شاهين ، تصريف الأسماء . القاهرة ١٩٧٥ ؛

١١ – إبراهيم هلال ، الوافى الحديث فى التصريف . منشورات جامعة بنغارى ليبيا سنة ١٩٧٤ .

١٢ – ابن السكيت ، إصلاح المنطق . القاهرة سنة ١٩٦٥ .

١٣ – ابن عقيل . شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . تحقيق محى الدين عبد الحميد .

١٤ – ابن قتيبة ، أدب الكاتب .

١٥ – ابن هشام ، أوضح المسالك . تحقيق محى الدين عبد الحميد ، بيروت سنة ١٩٧٤ ؛

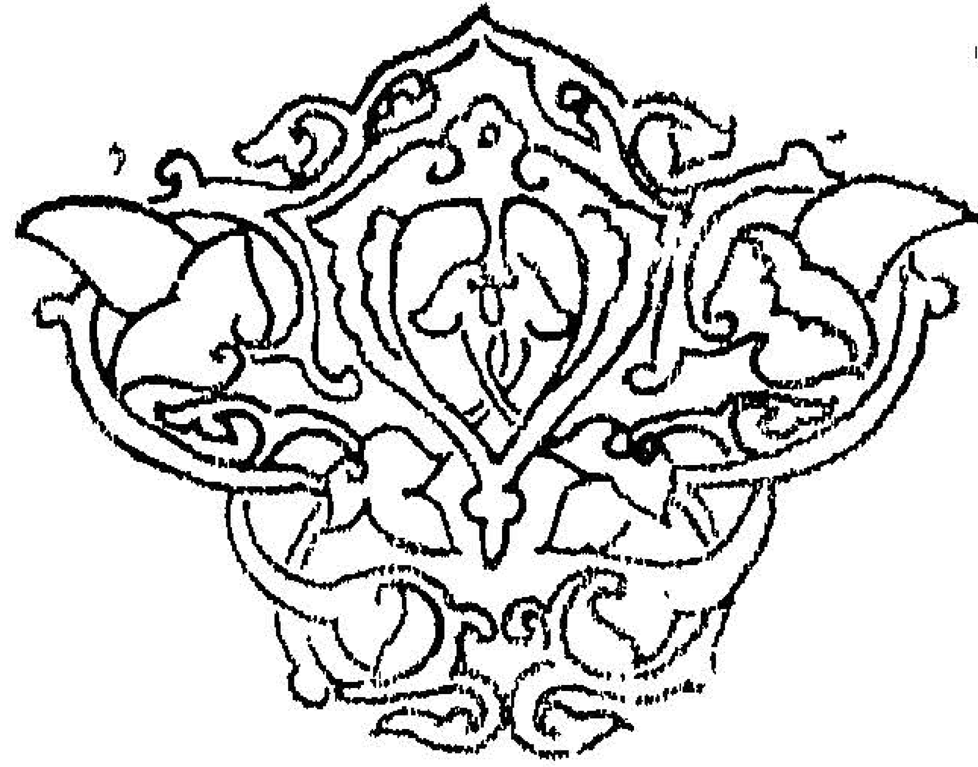
١٦ – جان كانتينو ، علم الأصوات العربى . منشورات الجامعة التونسية سنة ١٩٦٦

١٧ – كارل بروكلمانه ، فقه اللغات السامية . منشورات جامعة الرياض سنة ١٩٧٧

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1. Gesenius, Hebrew Grammar. Oxford 1949.
2. Dilmann, Ethiopic Grammar. London 1917.
3. O'leary, Comparative Grammar of the Semitic Languages London 1937.
4. Rabin, Ancient West Arabian, London 1960.
5. Von Soden, Akkadischen Grammatik. Roma 1979.
6. Moscati, An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages' WIESBADEN 1969.

صلاح الدين صالح حسنين



شعراء قوص

فى القرنين السادس والسابع الهجريين

للأستاذ محمد قنديل البقلى

حفلت مصـر فى القرنين السادس والسابع المهجريين فى ظل الأيوبيين والمماليك بكثرة من الأدباء ، لا سيما الشعراء ، وكانت هذه الكثرة تفيض فى جنبات الوادى من شماليه إلى جنوبيه الأقصى ، لا تكاد تخلو منطقة من شعراء ، كما لا تكاد تخلو مدينة من شاعر أو اثنين ، إن لم يكن أكثر ، لا سيما المدن الكبرى التى كانت أشبه بالقاهرة والتى كانت مراكز لتلك المناطق التى كانت أشبه بالمديريات أو المحافظات ، فكان فى الأسكندرية مثلا شعراء ينسبون إليها ، وكان فى القاهرة أيضاً شعراء ينسبون إليها ، وكان فى إسنا شعراء ينسبون إليها ، وكان فى إدفو شعراء ينسبون إليها ، وكان فى أسوان شعراء ينسبون إليها .

وهكذا عاش هؤلاء الشعراء ينسبون إلى مدينتهم الأولى ، على الرغم من أن كثرة منهم نزحت إلى القاهرة التى كانت ميدان الأدب العام حيث الحياة الفكرية أشد رواجاً وأكثر شيوعاً .

وعلى الرغم من هذا الإغراء ، أعنى الإغراء القاهرى ، فلقد بقى جملة من هؤلاء الشعراء حيث نشأوا ، وكان لتمسكهم بأرضهم أو بوطنهم الأول أسباب منها ما هو مادى ومنها ما هو معنوى ، ولكنهم على هذا كانوا موصولين بمركز الأدب العام ، أعنى القاهرة ، فكانت أخبارهم تنقل إلى هناك حيث مقر الحكم ، وحيث المطمع فى جاه أو شهرة . ومن لم يكن منهم تكتب له الشهرة فى القاهرة فلا شهرة له إلا شهرة محدودة .

ولكن المؤرخين الذين سجلوا للحركات الأدبية وللحركات العلمية لم يفتهم تقصى الأخبار حيث كانت ، يمضون وراء استيعابها هنا وهناك لا يثنيهم أن يكون بينهم وبين ما يريدون من التقاطه سفر طويل أو رحلة شاقة .

وما فعله الثعالبى فى كتابه اليتيمة من جمعه لشعراء مصريين وغير مصريين فى شتى البلاد ونواحيها المختلفة يدلك على شىء من

ذلك ، ثم ما فعله العماد الأصفهانى فى كتابه : « خريدة القصر » وتقسيمه الشعراء على مواطنهم حيث كانوا وأنّى نزلوا يدلك أيضاً على العناء والجهد المبذول .

ولست أعنى أن ما جمعه هذا أو ذاك ، أعنى الثعالبى والعماد الأصفهانى كان كله عن رحلة ونقلة ، بل منه أى من هذه الأخبار ما نقل عن سالف لها ، ولكن الذى لا شك فيه أن من هذه الأخبار أيضاً كان عن معاينة ومشاهدة تلزمهما نقلة ورحلة .

ولقد جاء غير هؤلاء المؤرخين الذين كان منهجهم التعميم ، أعنى النظرة إلى الساحة العربية كلها كإقليم واحد اختلفت أسماؤه فألفوا كتبهم هذا التأليف العام الذى ضربت لك منه هذين المثلين .

أقول : إنه كان إلى جانب هذا التأليف الأدبى العام تأليف أدبى أو شبه أدبى خاص يختص بإقليم بذاته أو بمدينة بذاتها ، من هؤلاء فى العصر الذى نحن بصدده وهو العصر الذى شمل القرنين السادس والسابع الهجريين الإدفوى صاحب « الطالع السعيد » حيث جمع فى كتابه ما يخص شطراً من وادى النيل ، وهو الشطر الجنوبى ، فجمع أدباءه وعلماءه وفقهاءه ونجباءه يخص ولا يعمم .

ورأينا فى العصر الحديث من ينهج هذا النهج الخاص فيخص إقليم الحلة من العراق بكتاب يجمع شعراء الحلة يقع فى خمسة أجزاء ليست بالصغيرة ولا بالكبيرة .

وفى الحق نحن أحوج ما نكون فى عصرنا الحديث إلى أن ننحو نحو هذا النحو الخاص فنخص كل إقليم أو كل مدينة إن أمكن بجمع أخبار من نشأوا فيه أو فيها على أن يكون لكل فرع من فروع الحياة الفكرية مؤلف خاص به يجمع آثار من نشأوا فيه جمعاً مستوعباً .

فما من شك فى أن لكل بيئة مهما صغرت وضاقت حياتها ومنطقها وأسلوبها والأدب من بين الاتجاهات الفكرية كلها هو الناطق عن البيئة المترجم لها المتحدث عنها .

ونحن حين نسجل هذا لبيئة بعينها إنما نضع لبنة فى الحياة الأدبية العامة ، ومن هذه اللبنات مجتمعة يكون الحكم العام الذى تسبقه الأحكام الخاصة التى لا غنى للدارس عنها ولا معدل له عن أن ينظر إليها أولا قبل أن ينظر فيما فوقها أعنى الحياة الشاملة .

والإقليم الذى أتحدث عنه هنا هو بلد لنا معروف فى صعيد مصر ، وكان فى ظل هذين القرنين اللذين خصصتهما ، أعنى القرن السادس والقرن السابع الهجريين محط رحال التجار القادمين من الأقطار العربية الشقيقة ، وكانت قوص لهذا ذات حركة دائبة موفورة الرزق واسعة الرخاء مما حبب إلى أهلها استيطانها لا يبغون بها بدلا ، لهذا كان الشعراء الذين نشأوا فيها آثروا المقام بها يكفيهم أن فى هذا الخضم من يسمع لهم ، ويكفيهم أنهم واجدون من هذه الحضارة

مادة تغريهم بالقول . وحسبهم أن الخارجين عنها سيكونون ألسنتهم المعبرة عما يقولون يذيعون ويشيعون وكأنهم الصحف السائرة.

وما أظن كتاباً سبق للتعريف بهذه البيئات الخاصة حتى الإدفوى فى كتابه ، الطالع السعيد ، فلقد كان جامعاً لرقعة أفسح ومدى أوسع ، والذى أدعو إليه هو هذا التخصيص فى الجمع والأخبار لما له من هذه الفائدة فى الحياة الأدبية التى أشرت إليها قبل ذلك بقليل .

ولقد آثرت اختيار قوص لتلك الحضارة التى عاشتها قوص فى هذين القرنين ثم لأنها بلد كان ممعناً فى الجنوب ، والجنوب كما عهدنا ونعهد مقطوع الصلة بالشمال يكاد يظن به أنه لا نصيب له من أدب ولا مشاركة فى حياة فكرية .

لهذا ولما راقنى من نتاج شعرى لقوص آثرتها بالحديث وآثرت شعراءها فى هذين القرنين بالكلام عنهم والتعريف بهم وعرض نماذج من شعرهم ولأكون بهذا قد مهدت الطريق لأن نخص ولا نعم فى مؤلفاتنا عن البيئات ، فنحن بحاجة إلى هذا الأدب الخاص قبل حاجتنا إلى الأدب العام .

ومن هؤلاء الشعراء القوصيين الذين وقعوا لى فى تنقيبى : أحمد بن موسى القوصى الدار والوفاة ، ولقد كان إلى جانب نبوغه فى الشعر فقيهاً . من أجل هذا كانت إليه نظارة الدواوين بمدينة قوص . وما أحب أن أسترسل فى الكلام عن حياة الرجل ، فالحديث عنه كثير ، فلقد تكلم عنه ابن حجر فى كتابه : « الدرر الكامنة[1] » كما تكلم عنه الإدفوى فى كتابه : « الطالع السعيد[2] » ، كما عرض له البغدادى فى كتابه : « هدية العارفين[3] » ، ولم يفت ذكر صاحب معجم المؤلفين[4] ولا الزركلى فى كتابه : « الأعلام[5] » ، فلقد نقل بعضهم عن بعض يزيدون وينقصون ، يعرفون بحياته وعجائبه مرة ويسوقون شعره مرة أخرى ويتكلمون عن مؤلفاته مرة ثالثة .

والذى يعنينى هنا والباب معقود لشعراء وشعرهم أن أسوق جملة طيبة من شعر هذا الشاعر القوصى الذى كان يكنى بابن قرصة ، وهذه الكنية لم تفت رجلنا أن يحدثنا عنها ويجلو السبب الذى من أجله كنى بها ، فهو يقول :

لا تحقرن من الأعداء من قصرت
يداه عنك وإن كان ابن يومين

فإن فى قرصة البرغوث معتبراً
فيها أذى الجسم والتسهيد للعين

(١) ج ١ ص ٣٢٠ .
(٢) ص ١٤٥ - ١٤٩
(٣) ج ٥ ص ٢٤٧
(٤) ج ٢ ص ١٩٠
(٥) ج ٥ ص ١٠٣

ويبدو أن هذين البيتين كانا السبب الذى جعل الناس من حوله يكنونه بابن قرصة ، فانظر كيف كان الناس موصولين بالشعراء، وكيف كان الشعراء موصولين بالناس ، يعنى الشعراء أمر الناس ويعنى أمر الناس الشعراء ، يتلقف الشعراء عن الناس حكمة أو رأياً أو فلسفة أو أمراً اجتماعياً فيصوغونه شعراً ، ويرى الناس فى شعر الشعراء ما داو يخلدهم من حكمة أو فلسفة أو مثل لم يستطيعوا الإفصاح عنه فيرتاح الشعراء لأنهم قد ترجموا للناس ما تنطوى عليه أنفسهم ويرتاح الناس لشعر الشعراء لأنهم قد قرأوا فيه ما تختلج به نفوسهم .

ومما ترجم به ابن قرصة حياة بيئته فى ذلك العصر الذى عاشه شيء كان لا بد شائعاً فى عصر ابن قرصة وهو زواج الشيب من الغانيات الصغيرات ، ويبدو أن هذا كان أمراً شاع فى عصر ابن قرصة وذاع وكان لا بد أن يحرك فى نفسه شاعريته ، ما أظن عن مجاراة ، فالشاعر مستقل الفكر ، ولكن الذى أظنه كان عن رأى خاص بابن قرصة ، فنقرأ له فى هذا المعنى يقول :

إذا تزوج شيخ الدار غانية
مليحة القـــد تزهى ساعة النظر

فقد تراقع فى أحواله وأتت
قاف القيادة تستقصى عن الخبر

وفى البيت الثانى من هذين البيتين تحذير أى تحذير لمن يسلك هذه السبيل ، فقد يعرض الشيخ الغانية الصغيرة لما لا تحمد عقباه ، وكأنى بابن قرصة بعد هذا يؤكد ما يكون مع المشيب من سوء حال وبعد عن الراحة وترد فى المتاعب والمصاعب فيقول :

الشيب عيب ولكن عينه قلعت
بالشين من شدة فيه وتعذيب

والشيب شين ولكن نونه حذفت
بباء بعد عن اللذات والطيب

ألا ترى معى كم أبدع ابن قرصة ، وكم ورى تلك التوريات اللطيفة ، وكم أدى ذلك الأداء السهل الممتنع .

ووجدت لابن قرصة أيضاً من شعره الذى فاتنا أكثره هذه الأبيات التى يوازن فيها بين الخير والشر ، وإذا هو قد أفلح وأجاد حين صور الشر بالسواد والخير بالبياض ، وذلك حيث يقول :

يا من يعـــذب نفسه فى صورة
سوداء مظلمة كفحم النـــار

أتعبت نفسك فى سواد مظـــلم
إن السواد يضر بالأبصـــار

فإذا عـــدلت عن البياض وحسنه
ماذا تؤمل فى سواد القـــار

وأحب أن أختم الحديث عن ابن قرصة بهذين البيتين اللذين فيهما التسليم بقضاء الله وقدره ، واللذين جود فيهما ابن قرصة أيما تجويد ، يقول :

نحن نسعى والسعى غير مفيـــد
إن أراد الإله منع الغنـــائم

وإذا ما الإله قــدر شيئاً
جـاء سعياً إلى الفتى وهو نائم

والبيتان إن نطقا بسكون حرف الروى فلا عيب ، وإن تحرك حرف الروى فجاء الروى الأول مكسوراً والروى الثانى مضموماً كان فى الشعر إقواء ، وهو عيب ، كثيراً ما وقع فيه فحول الشعراء .

ولقد كان هذا الشاعر الأديب الفقيــه مؤلفاً فى فروع مختلفة فله مؤلفات فى الفقه ، وأخرى فى النحو ، وثالثة فى اللغة ورابعة فى الأدب . وحسبنا من هذه المؤلفات كلها كتابه الذى فى الأدب : نتف المذاكرة وتحف المحاضرة ، وعنوانه يغنى عن ذكر محتوياته ، ولقد ذكره صاحب الكشف باسم : نتف المحاضرة ، ناسباً إياه لمؤلفه ، ولم يزد ، ولكن الكتاب ، كما قلت ، على عنوانه ما فيه الغناء عن التفصيل .

ولقد كانت وفاة ابن قرصة ، كما ذكره ابن حجر والإدفوى وحاجى خليفة والبغدادى فى شهر ذى الحجة من سنة إحدى وسبعمائة سنة (٧٠١ هـ) ولا يعنينا ما جاء فى معجم المؤلفين والأعلام للزركلى من أن وفاته كانت سنة سبعمائة وعشر (٧١٠ هـ) ، فلقد أخذ أحدهما عن الآخر ، ولا أدرى من الآخذ ولا من المأخوذ عنه .

وغير ابن قرصة من شعراء قوص كان إسماعيل بن هبة الله القوصى الأديب الشاعر . اختصه الإدفوى فى كتابه الطالع السعيد بترجمة قصيرة ويكاد يكون الإدفوى هو الوحيد الذى ترجم لابن هبة الله هذا . وكان ما ذكره عنه كما لم يسق له غير بيتين من الشعر فى الشباب والشيب . يقول فيهما :

يا شبابى أفسدت صالح دينى
يا مشيبى نغصت لذة عيشى

فعــدوان أنــتما لا صــديقا
ن تلاعبتمــا بحالى وطيشى

وأنت ترى معى أنه لا غبار على شعر الشاعر ، وما من شك فى أن هذا القليل يشير إلى كثير غيره على مثل هذه الجودة ومثل هذه الإبانة .

ولعل الإدفوى وهو الوحيد الذى ترجم له ، فلقد فاتته معاصرة هذا الشاعر ، كما فاته أن يجد من يعى له فينقل عنه ، يدلنا على هذا سياق السند الذى قدم به الإدفوى لصاحب هذه الترجمة ، وذلك حيث يقول : روى عنه شيئاً من شعره الحافظ أبو الفتح محمد ابن على بن وهب القشيرى والفقيه عبد الملك ابن أحمد الأرمنتى ، أنشدنا شيخنا أثير الدين أبو حيان ، أنشدنا الشيخ تقى الدين أبو الفتح القشيرى ، أنشدنا القاضى إسماعيل ابن هبة الله .

فأنت ترى معى من هذا السند أن بين الإدفوى وبين صاحب هذه الترجمة نحو من ثلاثة شيوخ ، وإذا علمنا أن وفاة الإدفوى

كانت سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، كذلك ندرك أن وفاة إسماعيل بن هبة الله صاحب هذه الترجمة كانت فى النصف الأول من القرن السابع إن لم تكن قبل ذلك ، وهذا يعنى أن الإدفوى لم يعاصره ، وأنه نقل عنه يتوسط بينه وبينه مشايخ ثلاثة ، لذا كانت هذه القلة فى التعريف بالرجل والقلة فى الشعر المروى له .

ويأتى بعد هذين شاعر قوصى آخر هو حيدرة بن الحسين ويعرف بابن الغمر .

وكان حيدرة هذا حاكماً بالأعمال القوصية ، ولقد عاش حيدرة هذا فى القرن السادس الهجرى ، ويكاد هذا القرن ، أعنى القرن السادس يضم ميلاده ووفاته . فلقد روى من روى عنه ذاكراً أن ما رواه عنه أى عن ابن الغمر كان فى الخامس من شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة .

وعلى الرغم من بعد ما بين ابن الغمر والإدفوى الذى انفرد للتعريف بابن الغمر وإيراد ترجمة له ؛ غير أنه أورد له الكثير من الشعر . ويبدو أن الذى يسر للإدفوى هذا على الرغم من أنه لا معاصرة ، أنه أعنى الإدفوى وجد بين يديه كتاباً يترجم لمن بصعيد مصر خاصة ، وهذا الكتاب هو : « المفيد فى ذكر من كان بالصعيد » لمؤلفه أبى جعفر محمد بن عبد العزيز بن أبى القاسم الإدريسى .

وفى هذا الكتاب الذى نفتقده والذى وقع للإدفوى لا شك الكثير من أخبار أهل الصعيد ، ولقد كانت وفاة مؤلفه الإدريسى سنة تسع وأربعين وستمائة (٦٤٩هـ) كما يقول صاحب كشف الظنون الذى أورد الكتاب باسم : المفيد فى أخبار الصعيد[١] .

وهذه تنضم إلى ما ذكرته قبل من العناية بالمؤلفات الخاصة التى أدعو إليها اليوم .

والغريب أنك سوف تقرأ معى فى شعر هذا الشاعر حيدرة وصفاً صريحاً للحياة الاجتماعية التى كان يعيشها حيدرة ، فلم يفته أن ينزل إلى الحياة العامة ويصف مافيها ، من ذلك قوله فى رثاء قزاز وهو النساج ، يقول :

تبكى المواسير والألطاخ والبكر
على ابن سمرة لما اغتاله القدر
والمشط يندب والمتيت يسعده
وحق للنول أن يبكيه والحضر
إذا استوى فوق ظهر النول وانبسطت
رجلاه فى الزرزرايا وهو متزر
وسايرت يده المكوك واعتقلت
يسراه مقبضها والنير منحدر
فمن مهلهل أو سيف بن ذى يزن
أو من ربيعة فى الهيجاء أوزفر
كأنما مغزل الألطاخ فى يده
إذا تناوله صمصامة ذكر

---

(١) كشف الظنون ص ١٧٧

فانظر معى كيف نزل حيدرة القوصى إلى حانوت هذا النساج ، وتناول نوله قطعة قطعة ، وكأنه عارف بوظيفة كل قطعة ، وهو بهذا قد أحيا أسماء كادت أن تندثر :

ثم انظر معى كيف ساق عمل النساج عملا عملا هذا المساق اللطيف الظريف :

ثم انظر معى كيف عقد هذه التشبيهات البديعة جاعلا من النساج ما يشابه به مهلهل الشاعر أو سيف بن ذى يزن أو ربيعة أو زفر.

وهو بهذا يدلنا وإن كان شاعراً من شعراء القرن السادس الهجرى غير أنه لم تفته نظرات منه إلى ماضيه الأول بتراثه الخالد .

وكما فعل حيدرة هذا فى رثاء هذا القزاز فعل مثل ذلك فى رثاء ملاح ، حيث يقول :

من لجر اللبـــان فى الثقلين
ولإلقـــا المرسى على الأنبوطين
واعتقـــال المدرا وقد سكن الريـ
ـح برغم السـفار فى تشرين
والمجـــاديف من بهـــا مستقل
بعـــد ما قد أتاك ريب المنون
من يلالى لصحبة كل وقت
بنشيد جزل وصوت حزين
تطرب الأروع الحـــليم فيلهو
وتسلى بالحب لب الحزين
تهتدى فى الظلام بالقطب والجد
ى وفى الصبح بالضيـــاء المبين
فتشق البحـار فى الليل شـــقا
حركات تولدت من سكون
كانت المركب التى أنت فيها
حرماً آمناً كحصن حصين
فهى اليوم بعـــد فقدك عطل
بل حطـــام ملقى ليوم الدين

وهكذا ترى معى فى هذه الأبيات تعرف الشاعر للملاح وعمله وأجزاء سفينته يخرج من وصف جزء إلى جزء آخر فى ذلك الأسلوب السهل والمنطق المبين ، وكأنه واحد من هؤلاء الملاحين .

وكما كانت لهذا الشاعر القوصى هـــذه الجولات الميدانية ، كان له فيما فوق هذا جولات أخرى ، يقول فى مدح الأمير موسك وكانت قد نابته خطوب :

إذا حـاربتك صروف الزمان
بحـــادثهـــا المتلف المهلك
فمـــا للخطوب إذا أظلمت
سوى الملك المتقى موسك

هذه نماذج قليلة من شعر شعراء قوص فى هذين القرنين السادس والسابع الهجريين ، ولو أن هناك للإطالة فسحة لأطلت ، ولكنى اجتزأت بهذا القليل الذى يغنى عن الكثير راجياً به أن ألفت النظر إلى أنه ثمة شعر للمصريين الذين نأت بهم مواطنهم الخاصة عن القاهرة موطن الأدب والأدباء لا يقل جودة وأداء عن شعر العاصمتين المتحضرتين القاهرة والأسكندرية ، ثم لأدعو ثانية بهذا الأدب الخـــاص فنسجل لشعراء المدن على اختلافها خاصين كل مدينة بشعرائها ففى هذا ، كما قلت قبل العرض التمهيدى عند الكلام عن الأدب العام .

محمد قنديل البقلى

مع الأخفش الأوسط
في كتابه "معاني القرآن"
للأستاذ سعيد الأفغاني

كنت أظن ابن جنى هو المدين الأول فى ملء كتب النحو بما لا يصح من سماع ولا قياس . وذلك حين ألف كتابه المشهور (المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها) وحشر فيه مزاعم لا تحصى من لهجات نسبت لقبائل على غير تحقيق ، كما نثر فيه من أبيات الضرورات الشعرية حشداً غير قليل ، وجعل موطن الضرورة قاعدة يعالل بها مالم يثبت من شواذ القراءات .. كنت أظن هذا حتى قرأت كتاب (معانى الشعر) للأخفش وقد طبع حديثاً[1] ؛ فصح لى القول (قبل ابن جنى كان الأخفش) كما قالوا قديماً (قبل جحا كان أبو دلامة) .

وموضع الخلل فى منهج بعض الأقدمين أنهم — حباً فى التكثر وإظهار سعة الرواية — زحموا القواعد المطردة التى لا شك فيها والتى هى قانون العربية الجامع بضرورات لجأ إليها الشعراء اضطراراً ولغيات زعموا أنها رويت عن (بعض) العرب ، فجعلوا منها قواعد وأمدتهم تعليلات وتأويلات صناعية فى صياغتها ، حتى ظن من لم يعتد إعمال الروية وتحكيم المنهج السليم أنها من لغة العرب ، والحق أنها — إن صح إسنادها إلى عربى معروف — من أخطاء بعض العرب ، وأشد أضرار هذا الخلل حين لن يعيث فى توضيح قراءات شاذة روجها أهل الأهواء بلاسند، حشيت بها كتب التفسير مع محاولات تسويغها .

للأخفش أن يغلط سيبويه وأن يخالط أقوال كوفيين بأقوال بصريين ، فلن يضيره ذلك عندى ، بل يزين المؤلف — فى رأيى — أن يكون فى العلم (موضوعياً) يأخذ بما أيقن أنه الحق مهما يكن القائلون به ، بل ولو لم يقله أحد قبله — وعلى هذا سأعرض لبعض ما وقفت عنده من قضايا فى كتابه (معانى القرآن) ، الذى لم يرق قط إلى مستوى كتاب أبى عبيدة (مجاز القرآن) وإن ألف

(١) انظر عن هذه الطبعة العدد ١٢

بعده ، وكان أمام عيني الأخفش حين التأليف .

هذه الكتب وما ألف على طريقتها بعدها ليست تفاسير ؛ لكنها تعليقات على بعض الغريب وكلام على شيء من النحو بالمناسبة واستشهاد على ذلك بشعر كان يجب التحقق من صحة روايته وصحة نسبته معاً . وإليك بعض هذه الوقفات :

١ — ص ٢٦ : « ومنهم (أى العرب) من يسكن هاء الإضمار للمذكر قال الشاعر :

فظلْت لدى البيت العتيق أخيله
ومِطْوايَ مشتاقان لهْ أرقانِ [1]

وهذا فى لغة أزد السراة — زعموا كثير » .

أراد الأخفش الاحتجاج لقراءة من أدغم الهاءين فى قوله تعالى « فيه هدى » ، وهذا شيء آخر غير إسكان الضمير المذكر الذى زعموه لغة أزد السراة ، فهو إدغام المتماثلين المألوف فى لهجات العرب والقراءات الصحيحة هو غير إسكان ضمير المذكور كما فى الشاهد الشعرى .

هذا الاحتجاج منقوض من وجهين :

الأول : إذا قرأنا المقطوعة التى منها هذا البيت وهى فى خزانة الأدب (٤٠٤/٢) وفى الأغانى (١١١/١٩) وجدنا ضمائر للمذكرين عدة ، لم يسكّن الشاعر غير كلمة (لهْ) فى هذا البيت لضرورة الوزن ، فلو كانت لغته لرأيناها مستفيضة فى شعره كله ، فعرف أنها ضرورة لا يحتج بها .

والثانى : أن البيت حُرِّف ليصح الاستشهاد به على قضية مزعومة لا تعد والضرورة . أما الرواية الصحيحة للبيت فكما رواه أبو عمر الشيبانى أوثق العلماء وأخبرهم بشعر القبائل :

فبتُّ لدى البيت الحرام أشيمه
ومطواى من شوق لهُ أرقانِ

وهى التى اعتمدها أبو الفرج الأصفهانى .

فلا إسكان ضمير ، ولا لهجة لقبيلة الشاعر (يعلى الأزدى) ؛ كل ما فى الأمر تحريف متعمد لبيت ينقله لاحق عن سابق وتمتلىء به مصادر متسلسلة حتى يوم الناس هذا[1] وقاعدة توضع لتسويغ تحريف ، ونسبة لقبيلة لم تصح ؛ وكان الله لأزد السراة .

٢ — ص ٤١ « وأما قوله (أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء) فقد قرأها قوم مهموزتين جميعاً ، وقالوا (سواء عليهم أأنذرتهم) ، (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) وقالوا : (أئذا) و « أئنا » كلّ هذا يهمزون فيه همزتين ، وكل هذا ليس من كلام العرب إلا شاذاً . . . إلخ » .

وهذا عجيب جداً ، وقراءة عاصم فى هذا كله بتحقيق الهمزتين رواها عنه حفص وعليها قراءة أهل المشرق اليوم كله ، وهو

---

(١) ولا يقولون (زعموا) كما قال الأخفش .

من القـرّأة السبعة، قرأها بسنده المتواتر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن أين قطع الأخفش بأنها ليست من كلام العرب وأنها شاذة !

٣ ــ ص ٤٥ « وقوله : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » فأذهب الواو ، لأنه كان حرفاً ساكناً لقي اللام وهي ساكنة ، فذهبت لسكونه ولم تحتج إلى حركته » . .

أقول : لم تذهب اللام ، بل الذى ذهب الواو . سوء عبارته أفهم ضد مراده ، وحفظ الترتيب أن يقول : (فذهب لسكونها) ولو أراد إيضاحاً لقال : (فذهبت الواو لسكون اللام) ، لكن هذا يفوت عليه التدبير الذى قصده[1] .

٤ ــ ص ٩٩ : « فإن قلت : إنما يكون هذا (يريد زيادة حرف الجر من) فى النفى والاستفهام) .

(قلت) فقد جاء فى غير ذلك ، قال ــ تعالى ــ : (ونكفر عنكم من سيئاتكم) فهذا ليس باستفهام ولا نفى ، وتقول (زيد من أفضلها) تريد : هو أفضلها » . اهـ .

الشطر الأخير من كلامه غير مسلَّم ، إذ فيه (من) تبعيضية ليست زائدة ، معناها : هو أحد أفضلها ، أما (هو أفضلها) فقد فُضّل على جميعها .

أما الآية الكريمة فـ (من) فيها تبعيضية حتماً ، وإنما أوقع الأخفش فى هذا ما أوقع الكسائى من بعده ، ومن ثم كان ما يسمى المذهب الكوفى الذى لا يشترط فى زيادة حرف الجر (من) نفياً ولا استفهاماً ولا غيرهما دعاهم إلى الخطأ فى هذا غفلة بعضهم عن حكم الشريعة فى الذنوب التى تكفر والتى لا تكفر ، ومعلوم بالضرورة أن اثنتين لا تكفران : الشرك بالله والإضرار بالناس . ومن ثم دخلت (من) فى بعض الآيات لتقرر أن بعض الذنوب يغفرها الله وهى ما تعلق بحقوق الله من تقصير فى صلاة أو صوم أو عبادة ، أما ما تعلق بحقوق الناس فلا بد من أدائه إلا أن يعفو صاحب الحق . . وعدد من النحاة أتوا من ضعف ثقافتهم العامة كما نقول اليوم . وأعاد المؤلف قوله فى هذه الآية فى ص ٢٥٤ مع أمثلة أخطاء فى أكثرها .

٥ ــ ص ١٢٠ : (وكذلك : « كيلا يكون دُولَةً » (أن) مضمرة وقد جرتها (كى) . وقالوا (كيْمَهْ) ، فـ (مه) اسم لأنه (ما) التى فى الاستفهام ، وأضاف (كى) إليها .

أما كون (كى) فى الآية جارة فغير صحيح البتة ، و (أن) لا تضمر بعدها

---

(١) إشارة إلى قوله للجاحظ لما عاب عليه بعض الغموض : « لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وإنما قد كسبت فى هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب ذهبت ... »
الحيوان للجاحظ ١/٩١، ٩٢ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

لأن (كى) نفسها هى المصدرية الناصبة للفعل فى الآية على عكس ما قرر بعض النحاة[1]

وأما (كيمهْ) فصحيح أن سيبويه ذكرها فى الكتاب ، ولم يعزها إلى عربى فصيح ، لكنه نص بأمانة أن ذلك شأن بعض العرب قال « وبعض العرب يجعل (كى) بمنزلة حتى وذلك أنهم يقولون (كيمهْ) . . لما »[2] ولم يسمهم سيبويه . وأمر هذه يسير ؛ فإن صحت عن بعض العرب فتقدير الفعل بينها وبين (ما) واجب والمعنى : (كى يفعل ماذا ؟) . وفى جميع الأحوال لا تكون (كى) فى الآية جارة أبداً ولا تخرج القراءات الصحيحة الثابتة فيه على رواية شاذة ولا مجهولة .

٦ — ص ١٨٩ علق على قوله تعالى : « . . ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله » بقوله : « فأضمر الشاهد وقال : (إلى أجله) إلى الأجل الذى تجوز فيه شهادته والله أعلم » ا هـ .

قلت : الضمير لا يعود إلى الشاهد بل إلى الدين وعليه تدور الآية ، ولم أفهم ماذا يقصد بالأجل الذى تجوز فيه شهادة الشاهد إنما يكتب أجل الدين . وعلى من يتصدى للتفسير أن يعرف الفقه ويتمرس بفقه النصوص ومراميها حتى لا يزل فى مراجع الضمائر ، وذلك من مواد الثقافة العامة فى البلاد الإسلامية على مدى العصور :

٧ — ص ١٩٦ علق على قوله تعالى : « . . . وإن للمتقين لَحُسْنَ مآب جنات عدن » بقوله : (وإن شئت جعلت (جنات) على البدل أيضاً وإن شئت رفعت على خبر إن ... ولم يقرأه أحد بالرفع) . ا هـ .

وظاهرٌ خطؤه فى رفعه على خبر (إن) لأن خبرها تقدم اسمها وهذا سهو منه رحمه الله .

٨ — ص ١٩٧ قال الشاعر :

إنا وجدنا بنى جلان كلهم
كساعد الضب لا طول ولا عظم

على البدل ، أى كلا طول ولا عظم أ هـ .
وأعاد ذلك ص ٢٨٤

قلت : البدل غير مفهوم هنا ، وقد قصر اللفظ عن تأدية المعنى . والمعنى أنهم متساوون لا تفاوت بينهم فى طول ولا عظم .

الشاعر مجهول ، فإن لم يكن البيت مصنوعاً فهو إقواء[3] وحق المعنى أن يقول : (لا طول ولا عظم فيها) فاضطر إلى كسر القافية ، والإقواء خير من هذا البدل المتكلف .

---

(١) انظر تعليقنا على الشواهد المصنوعة أو المحرفه التى يحتجون بها فى طبعتنا لمغنى اللبيب ص ٢٤٢ (دار الفكر : بيروت ١٩٧٢) . وانظر فى تحقيق هذا بحثنا المنشور فى محاضر مؤتمر الدورة الأربعين لمجمع اللغة العربية فى القاهرة ص ٣٠٥ فما بعد . وأدرجته فى مقتطفاتها مجلة اللسان العربى فى الجزء الأول من المجلد السادس عشر ص ٢٣٤

(٢) الكتاب لسيبويه ١ / ٤٠٨

(٣) أعاد ذكره فى ص ٢٨٤ مع بيت سابق هو :

أنى وجدتك يا جرثوم من نفر   جرثومة اللؤم لا جرثومة الكرم

٩ — ص ٢١٣ (وقال : « لن يضروكم إلا أذى » استثناء يخرج من أول الكلام ، وهو كما روى يونس عن بعض العرب قال : ما أشتكى شيئاً إلا خيراً) .

قلت : ليسا سواء ، فما قبل (إلا) فى الآية وما بعدها من جنس واحد ، أما فيما روى يونس فمختلفان ، وقد خانه التوفيق فى غير موضع من الكتاب حين يجمع مالا يجتمع .

١٠ — ص ٢٥٥ فى الآية : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » قال : « ويجوز الجر على الإتباع ، وهو فى المعنى : الغسل ، نحو (هذا جحر ضب خرب) والنصب أسلم وأجود من هذا الاضطرار ، ومثاله قول العرب : (أكلت خبزاً ولبناً) واللبن لا يؤكل . . . إلخ » أهـ .

أما أن الآية مثل (أكلت خبزاً ولبناً) فغير صحيح ، لأن الأرجل تغسل وتمسح وقراءة الخفض (وأرجلكم) صحيحة ، على العطف لا على ما زعموا على الإتباع ، والجر على الإتباع لم يثبت فيه شيء من كلام عربى ثقة .

١١ — ص ٢٦٢ يجيء أشياء فى اللفظ لا تكون فى المعانى ، منها قولهم : « جحر ضب خرب » . وكان قال فى ص ١٥ : وهذا يشبه (هذا جحر ضب خرب) : وآنفاً شبه بهذا القول الآية : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم » فى قراءة من قرأها بجر (وأرجلكم) .

أقول : كثر الاحتجاج والتمثيل بهذه الجملة التى سمعها سيبويه رحمه الله من الخليل ، ولم يذكر أحدهما أنه سمعها من عربى يحتج به ، بل هى مما تنوقل بين نحاة من المئة الثانية مثالا لوجه إعرابى كيف يخرج إذا وقع ، وبمرور الزمن صار يحتج به متأخرون حتى صارت شبه شاهد وليست به ، فلم تقع فى كلام عربى فصيح ، إلا إقواء فى ضرورة شعرية مثل التى ارتكبها امرؤ القيس فى قوله :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله
كبير أناس فى بجاد مزمّلِ

ولولا الضرورة لكان الوجه (مزملُ) لأنه صفة لكبير أناس لا لـ (بجاد) ومثله قول العجاج :

* كأن غزْل العنكبوت المرّملِ[1] *

وكان عليه أن يقول : (المرملُ) بالرفع نعتاً لـ (غزل) فقد أقوى كما أقوى امرؤ القيس .

وأهملوا تأكيد سيبويه أن « الوجه الرفع وهو كلام أكثر العرب وفصحائهم »[2] كما

(١) الكتاب لسيبويه ١—٢١٧ وكل ما فعل الخليل وسيبويه محاولة الاعتذار عن هذا الغلط الذى قد يقع ، ، وضع قاعدة

(٢) المصدر السابق .

نسوا نص الخليل على أن هذا غلط ، فقد جاء فى المسألة نفسها قول الخليل : « ... وإنما يغلطون إذا كان الآخر بعدة الأول وكان مذكراً مثله . . الخ »[1] .

فإذا كان السماع والقياس على خلافه وكان غلطاً فى رأى الخليل ؛ فكيف سوّغ الوهم لمن نقل هذه الجملة من بعدهما حتى يومنا هذا أن يبنى عليها حكماً بل قاعدة ؟ ! غفلة ظاهرة ، واعتماد على نصف الكلام دون وعى الآخرة ، وبلاء على المحصلين فى هذه الكتب إلى اليوم . وأعجب من هذا حملهم قراءة الجر (وأرجلكم) على جحر ضب خرب . والقراءة واضحة المعنى ، وقد مسح بعض الصحابة إلى أن جاءت السنة مؤكدة الغسل[2] .

١٢ — ص ٢٦٢ فى تعليقه على الآية : « ثم عمُوا وصمُّوا كثيرٌ منهم » قال : « . . . وإن شئت جعلت الفعل للآخر ، فجعلته على لغة الذين يقولون : (أكلونى البراغيث) » أهـ .

لم يكن لذى ملكة فى العربية أن يسوى هذه اللغة الرديئة — إن صح أن ناسا من العرب تكلموا بها — واللغة الفصحى النقية ، والذى ثبت أنها وردت فى ضرورات شعرية لا يبنى عليها حكم ، وقد يعتذر عن الشعراء الذين اضطروا إليها أن الضمير يعود إلى شىء فى نفوسهم ، فلما نطقوا بالفعل فسروا المضمر وهى على كل حال لا تعدو الضرورة ، ويكفيها نبزاً تسميتها لغة (أكلونى البراغيث) ، وهى وردت فى كلام بعض النحويين فى صدد تشقيقاتهم لبعض صيغ افترضوها ولم تكن ، وكل ما ورد فى كتاب سيبويه قوله : « وإن سميت رجلاً (ضربوا) فيمن قال : (أكلونى البراغيث) ؟ ! ، قلت : هذا ضربون قد أقبل . . »[3] ونقله عن الخليل : « من قال : (أكلونى البراغيث) أجرى هذا على أوله فقال : مررت برجل حسنين أبواه ومررت بقوم قرشيين آباؤهم . . »[4] .

والطريف فى الأمر أن هذه الجملة المبتذلة (أكلونى البراغيث) فيها رداءة أخرى هى إطلاق واو الجماعة على ما لا يعقل ، ولا تظنن سيبويه والخليل يجوزان ذلك ، ولا يقول هذا عربى عاقل البتة .

ومن أعظم النكر حمل آية على هذه اللغة بحال من الأحوال .

وفى عصور متأخرة حين أولع بعض أهل الصناعة بتزوير شواهد على اللغيات الرديئة أو النادرة ، أسقطوا أول الحديث : (إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) فبدؤوه من قوله : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) ليجعلوه شاهداً على لغــة زعموها لغة (أكلونى

---

(١) الكتاب لسيبويه ٢١٧/١

(٢) انظر كلاماً فى موضوع الآية فى تفسير الكشاف ٦١١/١ وتفسير القرطبى ٩٢/٦ وأن المسح فى اللغة يشمل الغسل . ولأبى إسحاق النحوى استنكار لحمل الآية على (حجر ضب خرب) أى زعم الجر على الجوار ، وحصر ذلك فى الضرورات الشعرية — لسان العرب مادة (مسح)

(٣) الكتاب لسيبويه ٢-٢٠٨ (٤) المصدر السابق ١-٢٣٧

البراغيث) . مما وفيناه حقه فى موضع آخر ، بل أبعد بعضهم جداً فأراد حمل آيات من الكتاب الكريم عليها جهلا بأسلوب القرآن وتجاهلا للمعنى ، وهى جميعاً إما من باب البدل كما فى الآية المتكلم عليها وإما من حذف فعل القول كما فى « وأسروا النجوى قال : « الذين ظلموا أهل هذا إلا بشر مثلكم »[1] .

١٣ — ص ٣١٢ فى تعليقه على الآية : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً » قال : أى اختار من قومه ، فلما نزع (من) عمل الفعل . . . وقال النابغة :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها
يهدى إلى أوابد الأشعار

والبيت لا شاهد فيه على ما قال ، ولعل هذا سهو منه .

١٤ — ص ٤١٢ وقال :

أطوف بها لا أرى غيرها
كما طاف بالبيعة الراهب

فجعل الراهب بدلاً من (ما) ، كأنه قال : كالذى طاف » أ هـ .

البيت مجهول القائل ، لا يعرف ما قبله وما بعده حتى نتثبت من أن رويه مكسور ، والأصل فيه (الراهبُ) بالرفع ، فما الذى جعلهم يعدلون عن الأصل وهم لا يعرفون القائل ولا سياق البيت ؟ وما الذى صرفهم عن الكلام المطبوع (أطوف كطواف الراهب) فتكون (ما) مصدرية ؟ لعل السبب أن البيت يخسر بذلك ما علقوا عليه من صناعتهم وإشكالاتهم ، استعمال (ما) للعاقل ، وتقدير مضاف محذوف : كطواف الذى ، وجعل الراهب (بدلاً) من (ما) المظلومة هذه . ولأمر ما لم يذكره سيبويه ، والله أعلم من الذى وضعه هذا الموضع الشاذ .

١٥ — فى ص ٤١٤ : وقال : « ومن يُرِدْ فيه بإلحاد » معناه : ومن يرد إلحاداً ، فزاد الباء كما تزاد فى قوله : (تنبت بالدهن) وقال الشاعر :

أليس أميرى فى الأمور بأنتما
بما لستما أهل الخيانة والغدر » أ هـ

أما أن الباء فى قوله « تنبت بالدهن » زائدة فغير صحيح ، فالشجرة لا تنبت الزيت ولكنها تنبت ثمرها (الزيتون) حاوياً الزيت فالباء للمصاحبة وليست زائدة . وأما الشعر الذى استشهد به الأخفش فمصنوع ردئ الصنعة جدا ، والتكلف فيه ظاهر وصانعه لاملكة له فى اللغة . ونحن نستنكر الاستشهاد بشعر بليغ للدلالة على صحة كلمة فى القرآن الكريم ، فكيف بمثل هذا المسخ من الزيف . وإنما الصواب العكس : أن نستشهد بالقرآن على الشعر وغيره . إنه انحراف ظهر فى المئة الثانية للهجرة ولوعاً برواية الشعر ، استشرى وتتابع النحاة فيه إلى اليوم .

(١) لا يتسع المقام للتفصيل فارجع إلى بحثنا (البناء على الشاهد الأبتر) المنشور فى محاضر مؤتمر الدورة الحادية والأربعين لمجمع اللغة العربية فى القاهرة (١٩٧٥) ص ٢٤٠ فما بعد .

١٦ — ص ٤٢٣ : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) فهذا ليس له خبر إلا فى المعنى والله أعلم ا ه

قلت : إن خبره إلى جانبه لفظاً ومعنى وهو (الذين) أو قوله بعد اثنتى عشرة آية : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » والأول أقرب .

١٧ — ص ٤٢٣ أيضاً « وقال الشاعر :

ياعاذلاتى لاتردن ملامتى

إن العواذل ليس لى بأمير

قلت : بيت مصنوع لايصح الاحتجاج به .

١٨ — ص ٤٢٧ « لايؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون فيقولوا هل نحن منظرون »

قال الأخفش : ليس بمعطوف على (حتى) ، إنما هو جواب لقوله «لايؤمنون به » ، فلما كان جواباً للنفى انتصب . وكذلك « فيقولوا » إنما هو جواب النفى . ا ه .

قلت : بل الصحيح أنه معطوف على (حتى) وأن هذه الفاء ليست جواب النفى أى أنها ليست السببية بحال ، إنما هى العاطفة ، وأن (فيقولوا) معطوف على (فيأتيهم) وليست بجواب النفى . ولا معنى للسببية هنا البتة إنما المعنى : لايؤمنون به حتى يروا العذاب وحتى يأتيهم بغتة وحتى يقولوا . والفاء رتبته الحوادث : يأتى العذاب فيرونه فيقولون .

١٩ — فى ص ٤٣٤ : وفى الشعر :

تنوء بها فتثقلها عجيزتها

وليست العجيزة تنوء بها ولكنها هى تنوء بالعجيزة ، وقال :

ماكنت فى الحرب العوان مغمراً

إذا شب حرٌ وقودها أجذالها

قلت : البيت مستوٍ لاقلب فيه ، فحر الوقود هو الذى يضرم أجذال الحطب ، فلا شاهد فيه إذاً .

٢٠ — ص ٤٣٧ وقال : « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى »

فـ (السوأى) مصدر هاهنا مثل (التقوى) اه

ليست (السوأى) هنا ولاغير هنا بمصدر ، هى مؤنث الأسوأ والمراد بها النار كما فى المعجمات . ويقابلها : الحسنى .

٢١ — ص ٤٦١ وقال : « يا هامانُ ابنِ لى صرحاً » .

(بعضهم يضم النون كأنه أتبعه ضمة النون التى فى (هامانُ) ، كما قالوا (مِنتِن) فكسروا الميم للكسرة التى فى التاء ، وبينهما حرف ساكن فلم يحُلْ ، وكذلك لم يحُل الباءفى قوله : (ابن لى) . ا ه

أتساءل : ماغناء هذا فى بيان معانى القرآن ؟ ثم متى كان انحراف اللسان

فى كلمة مصدر قاعدة ، تؤيد انحرافاً فى النطق بآية ؟ وظاهر بعد هذا أن المحتج له كلمتان والمحتج به كلمة واحدة ، وهذا فارق كاف .

وعيب هذا الكتاب عنايته بقراءات لاتعرف ، ومتى جُهل قارئ القـراءة لم تجز روايتها ولا الاحتجاج بها . وكان عمل الأخفش وأمثاله فى عدم التزام منهج سليم قدوة غير صالحة لمن بعدهم حتى كثر فى كتبهم الطم والرم ، وصاروا يحتجون بـ (منتن) و(المغيرة) و (ما أيطبه) وغيرها من سبق اللسان أو انحرافه[1] .

٢٢ ــ ص ٤٨٠ قال : (ألا ترى أنهم يقولون (يدع) ولايقولون (ودع) ولايقولون (وذر) . ا هـ

أقول : بل قالوه فى شعرهم ونثرهم ووردت بها قراءة صحيحة (ماودّعك ربك وما قلى) وحديث شريف « لينتهينّ قوم عن ودعهم الجمعات أو ليختمنّ على قلوبهم » شعر لغير واحد مثل قول أبي الأسود :

ليت شعري عن حبيبي ما الذى
غاله فى الحب حتى ودّعـه

وقول الآخر :

وثمّ ودعنا آل عمرو وعامر
فرائس أطراف المثقفة السمر

وانجز ابن جنى على أذيال الأخفش فجعل القراءة شاذة وادعى أن (ودع) شاذة فى الاستعمال مماتة . حتى جاء من المتأخرين من أصلح خطأه وخطأ الأخفش فأثبتها فى معجمه كصاحب (المصباح المنير) والمطرزى صاحب (المغرب)[2] .

٢٣ ــ فى ص ٤٩٩ : قال : (« كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » أى كبر مقتكم مقتاً ، ثم قال « أن تقولوا مالا تفعلون » أى قولكم) . ا هـ

قلت : إذا جعلت لهذا الكلام نسقاً أصبح : كبر مقتكم مقتاً قولكم ! جعل الأخفش الفاعل محذوفاً ، فقدره ، ثم جعل (أن تقولوا) بدلا من هذا المحذوف ، والكلام واضح ولا فاعل (كبر) مذكور : كبر مقتاً قولكم ، فما الداعى للحذف والتقدير والإبدال والبيان غنىّ عن كل هذا الالتواء ؟

٢٤ ــ فى ص ٥٠٥ : قال : (« بأيّكم المفتون » يريد : أيكم المفتون) . ا هـ

قصد أن الباء زائدة ، وليست بزائدة . والذى حمله على هذا القول ذهاب خاطره إلى أن المفتون هنا اسم مفعول . وليس الأمر كذلك ، بل (المفتون) مصدر كالفتنة . والمعنى فستبصر ويبصرون بأيكم (تقع) الفتنة أى الابتلاء[3] .

---

(١) انظر مثلا على ذلك ص ٧٣٧ من كتاب الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى ، فى كلامه على خلافهم فى الف الوصل (المسألة ١٠٧) .

(٢) المسألة مستوفاة فى كتابى (فى أصول النحو) ص ٣٣ فما بعد ، ومادة (ودع) فى المصباح والمغرب .

(٣) مختار الصحاح (فتن) .

لمن عمل الأخفش كتابه معانى القرآن ؟

لو كان للكتاب مقدمة تبين الغرض من تأليفه ماورد هذا السؤال الذى بقى فى ذهننا ماثلا حتى آخر صفحة منه ، ومع هذا لانستطيع إجابة تقنعنا ، فبينا نراه فى أوله ص (٣ — ٩) يفيض فى بيان سقوط ألفات الوصل (الرحمن الرحيم الحمد) فى النطق ، بعد إفاضته فى أشياء تتعلق بألف (اسم) أكثرها لايوضح معنى فى النص ويجب أن يستغنى عنها فى هذا المقام ، ولكنها مما يدرسها المتقدمون فى علوم اللغة ، نراه فى مواضع أخرى يبسط القول فى أن الف (أفعلُ) لاتسقط ، مما يعرفه المبتدئون فيقول فى قوله تعالى: « ادعونى أستجب لكم » :

فقوله « أستجب » إنما هو (أفعلُ) (كذا!) ، وهذه الألف سوى ألف الوصل ، ألا ترى أنك تقول (أبيع) فتجىء فيها ألف لـ (أفعلُ) ، فهى نظير الياء والتاء فى (يفعل) و (تفعل) تقطع كل شئ كان على (أفعل) فى وصل أو قطع) — ص ٤٦٣

وحيناً يتجاوز السورة لايعلق عليها بشئ كسور (الضحى) و (البينة) و (ألم نشرح) ، كما لايعلق على آيات كثيرة بشئ ، بحيث لاتجد السرد متصلا فى أرقام الآيات

وعلى هذا لايمكن القطع بمستوى القارى الذى تصوره الأخفش حين عمل الكتاب ، والاحتمال القريب أنه عمله دون منهج مع أن صناعته الغالبة التعليم ومنها مكسبه ، وهو يصرح بهذا عرضاً حين عرض ص ٤٤ إلى اجتماع الهمزتين فى مثل قوله تعالى : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » فقال : (إذا خففت « الهمزة » الآخرة جعلتها بين بين ؛ والذى نختاره تخفيف الآخرة ؛ إلا أنا نحققهما فى التعليم كليتهما ، نريد بذلك الاستقصاء) .

* * *

وبعد ، فالكتاب فى موضوعه غير مغن ، وهو إلى الخوض فى النحو والصرف أقرب منه إلى شرح المعنى ، بل يكاد يكون تعليقات نحويه خطرت له وهو يقرأ ، وكثير مما خاض فيه غير واضح ؛ وبعضه غير مسلم ، ويستشف الممعن فيه ضعفاً فى علوم القرآن واللغة والشريعة أحياناً ، إلا أن استشهاده بالشعر كثير ، وإن كان أحياناً يذكره لمناسبة وهمية .

قيمة الكتاب تاريخية محضة ؛ فهو دون كتاب أبى عبيدة (مجاز القرآن) الذى ألف قبله ، ودون كتاب الفراء الذى ألف بعده ، إذ هما إلى مطابقة محتوياتهما العنوان (معانى القرآن) أقرب ، وهو عن المطابقة أبعد . وفى كل الأحوال لا أسمح لنفسى — مع بعض الخطأ فى تفسيره — أن أقول فى

الأخفش ماقال فيه ثعلب : (أوسع الناس علماً) ونحن نعلم أن ثعلباً المسكين ليس فى حيث نحكم ، ولا أن أذهب فيه مذهب أبى حاتم السجستانى – حين قال :

« ولم يدر الأخفش مامعنى نقدر (يعنى فى قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه . . . »[1]) وذهب إلى موضع القدرة ، إلى معنى (فظن أن يفوتنا)[2] ، ولم يعلم كلام العرب ولغاتها... ولو علم أن معنى (نقدر) : نضيِّق لم يخبط هذا الخبط . قال : ولم يكن عالماً بكلام العرب . . [3] » .

لاهذا ولاذاك ، لأن الحق وقف بين القولين ، وهو إلى مذهب السجستانى أقرب ، والله أعلم .

وهل من جناح فى أن أختم كلمتى بنكتة زل بها لسان الأخفش عفوا ، دلت على ظرفه وكانت أصدق تعليق على مايتكلفه بعض الناس ، قديماً وحديثاً فى تسويغ الأخطاء ، قال ص ٣٧٥ :

«وبلغنا عن الأعمش قال : «بمُصْرِخيِّ» فكسره ، وهذه لحن لم يسمع بها من أحد من العرب ولا من أهل النحو » . لقد ظرف جدا فى كلماته الثلاث الأخيرة ، ولم يهج أحد أهل النحو بمثل هذا الظرف ، وإن كان الأخفش ذكر أهل النحو ونسى نفسه ؛ رحمه الله وتجاوز عنه .

سعيد الأفغانى
عضو المجمع المراسل من سورية



(١) سورة الأنبياء ٢١/١٥٣

(٢) لم يذكر السجستانى كتاب الأخفش الذى نقل منه . أما الذى فى (معانى القرآن) هذا فشىء آخر – انظر ص ٤١٢

(٣) تهذيب اللغة للأزهرى ٩/٢١ . وقد عقب الأزهرى بقوله : فأما أن يكون قوله (أن لن نقدر عليه) من القدرة فلا يجوز ، لأن من ظن هذا كفر ، والظن شك ، والشك فى قدرة الله كفر ، وقد عصم الله أنبياءه من مثل ما ذهب إليه هذا المتأول ، ولا يتأول مثله إلا الجاهل بكلام العرب ولغاتها . اه

"لسان العرب" وكنز العربية في تحقيق وإخراج جديد

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

صدر

أصدر الأديب الناقد البريطاني الكبير : « صمويل جونسون » في سنة ١٧٥٥ م معجمه المشهور في اللغة الإنجليزية ، مبتدئا تدوين ألفاظها المستعملة منذ عصر الملكة اليزابيث . سنة ١٥٥٠م حتى عصره . . وعد عمله هذا ريادة عظيمة في الأدب الإنجليزي وأثنى عليه اللورد « تشستر فيلد » في مقالتين مشهورتين في الفكر البريطاني ، مع أن هذا المعجم لم يزد حجمه على مجلدين اثنين

فماذا نقول نحن العرب وقد صنف « جمال الدين بن مكرم » — المعروف بابن منظور — في القرن الثامن الهجري : الرابع عشر الميلادي ، معجمه اللغوي الثمين : (لسان العرب) قبل معجم « جونسون » الإنجليزي بأربعة قرون ؟ وماذا نقول أيضا إذا عرفنا أن معجم (لسان العرب) قد بلغ حجمه عشرين مجلدا ضخما ؟ وأنه جمع فيه ألفاظ اللغة العربية منذ العصر الجاهلي حتى وقته ، وأنه حشد فيه للاستشهاد اللغوي كثيرا من آيات القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، والشعر العربي الذي يستشهد به على صحة المعاني التي أراد تسجيلها في معجمه ، حتى بلغت عدة الأبيات والأراجيز فيه ألوفا ، وبلغت عدة الشعراء والرجازين فيه بضع مئات ألفت فيهم الدراسات المعاصرة ؟ .

الحق أنه يحق لنا — لو يقام معرض للفخار — أن نفخر بعمل « ابن منظور » العظيم الواسع في خدمة لغة الضاد ، وتقييد شواردها وأوابدها وكل لفظة فيها ، منذ أيام إمرىء القيس ، والنابغة ، وزهير ، وقس بن ساعدة ، وأكثم بن صيفي ، والحجاج وغيرهم ، إلى زمان المصنف

ولم يكن عجيبا على صاحب « اللسان » أن ينتج مثل هذا العمل الكبير ، فقد شارك الرجل في تزويد المكتبة العربية بحوالي خمسمائة كتاب من وضعه ، ما بين مؤلف ومختصر ومهذب ... والحق أن « ابن منظور » كان مولعا باختصار كتب غيره وتلخيصها وتهذيبها ، قدر اهتمامه وولوعه بالتأليف ، فقد اختصر كتاب « الأغاني » المشهور للأصفهاني

واختصر « الذخيرة » لابن بسام واختصر « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، واختصر « تاريخ بغداد » للسمعانى ، واختصر « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، واختصر « يتيمة الدهر » للثعالبى . . . ولن نحصر هنا — فى مجال ضيق كل مختصراته النفيسة لكتب سابقيه .

وبارك الله فى عمر « ابن منظور » الذى زاد على ثمانين عاما ، فاستغل طول عمره كما استغل جمال خطه ، وقلة هموم حياته فى نسخ كتب السابقين عليه . ومن هنا كانت حياته إقامة سعيدة وصحبة مباركة للكتب : إما نسخا أو اختصارا أو تأليفا .

وقد رزق معجم « لسان العرب » على الرغم من ضخامة حجمه او انبساط مداه بعض الحظ فى إعادة طبعه منذ طبعته الأولى على مطابع بولاق الأميرية سنة ١٨٨٢ وفى تلك الطبعة ظهر جهد جيل من المصححين والمحققين بعد جهد المصحح الرائد الشيخ نصر الهورينى .

وفى سنة ١٩٥٥ م أعادت طبعه دار صادر وبيروت ، فأصدرته فى خمسة وستين جزءا تحتوى كل صفحة نهرين — أو عمودين — كبيرين . وهى طبعة مبينة ، إلا أنها لم تبلغ الكمال المنشود .

وجاءت المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بعد ذلك بسنوات فنشرت « اللسان » مصورا عن طبعة بولاق الأولى . فلم يخرج هذا الصنيع عن كونه تكرارا لعمل قديم .

وقبل طبعة صادر وبيروت — وفى سنة ١٩٣٦ بالضبط — حاول أديب ناشر مصرى — هو الأستاذ عبد الله اسماعيل الصاوى — أول محاولة لإصدار « لسان العرب » ؛ على ترتيب الأحرف الهجائية فى أوائل الكلمات ، لا فى أواخرها كما هى طريقة اللسان . ونجحت المحاولة العصرية التى جعلت لفظة (أكل) و (أرم) و (بذل) و (حقن) تأتى فى الأجزاء الأولى بدلا من مجيئها — على الطريقة القديمة — فى الأجزاء الأخيرة . وقد صدر من هذه الطبعة المرتبة ترتيبا جديدا خمسة أجزاء صغار ، ثم حالت ظروف خاصة دون إكمال ذلك العمل ، والمضى « بلسان العرب » إلى نهايته .

ومن سنوات معدودة أصدرت « دار لسان العرب » ؛ ببيروت طبعة جديدة رتبت المواد اللغوية فيها الترتيب الجديد على حروف الهجاء ، وتحتوى كل صفحة على ثلاثة أنهر . وصدرت هذه الطبعة فى ثلاثة مجلدات ضخام ، وقد ألحق بذيل كل مجلد ثبتٌ بمصطلحات العلوم والفنون .

وجاءت « دار المعارف » أخيرا بمصر منذ سنتين ، فتصدت لإصدار « لسان العرب » على صورة جديدة ، وبمنهج

جديدا ، وتحقيق وتعقيب جديدين فعمدت إلى ضبطه كله بالشكل الكامل مع ما في ذلك من عناء — تحقيقا للسلامة اللغوية ، ورتبته وفق الحروف الهجائية لأوائل الكلمات لا أواخرها ، جريا على طريقة المعاجم الحديثة ، وأضافت إلى متن الكتاب هوامش حافلة بالتحقيق ، والمقابلة والاستدراك ، والتنبيه على ما وقع في الطبعات السابقة من أخطاء وحرصت على استكمال كثير من النقص ، وتصحيح الخطأ وملء البياض الذى وجد في الذى ظهر من طبعات ، وعمدت إلى مقابلة النسخة المعتمدة أصلا على المصادر التى استقى منها « ابن منظور » مادة معجمه ، وعلى دواوين الشعر الذى استشهد به صاحب « اللسان » .

والحق أن ذلك كله عمل يأخذ من الجهد والمراجعة وإدامة النظر فى المراجع والمصادر ، والمظان وغيرها مالا يقوى عليه إلا القادرون ، ولا يعرفه إلا المكابدون . ومن هنا عمدت دار المعارف إلى ثلاثة من الرجال ملأهم الله همة ، وعزما ، وصبرا على البحث ، وطول نظر فى المصادر ، وكثرة تقليب للدفاتر ، وإصرارا على تنفيذ الغاية ، وبلوغ النهاية . كما رزقهم الله « الشك » فى كل كلمة « والتوقف » عند كل لفظة . وقد رأيتهم بعينى فى محراب من محاريب « دار المعارف » عاكفين على عملهم ، مكبين على أوراقهم ، لا يشغلهم شاغل ولا يحول دون إنجازاتهم حائل ، وهم الأساتذة : عبد الله على الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله ، وهاشم محمد الشاذلى . وقد طبعت أسماؤهم على أولى صفحات اللسان ، تسجيلا لفضلهم وتخليدا لذكرهم وعلى الرغم مما بذله هؤلاء المحققون من جهد فى التحقيق والتصحيح وإكمال النقص والضبط — مستعينين فى ذلك باجتهاداتهم الخاصة ، وبقراءاتهم الدائمة ، وبمتابعاتهم لتصحيحات المرحوم أحمد تيمور باشا التى نشرها محمد عبد الجواد الأصمعى ، وتصحيحات زميلنا المجمعى الأستاذ عبد السلام محمد هارون — على الرغم من ذلك وقعت فى هذه الطبعة الجليلة أوهام . كنا نود لو خلصت منها ، وتنزهت عنها ، ولكنها جاءت دليلا على جملة النقص فى البشر ، وشاهدا جديدا يتجدد على أن العصمة لله وحده .

ومن توقفاتى واستدراكاتى على هذه الطبعة بعض نماذج وقفت عندها ولم أشأ حصرها ، فإن ذلك قد يبعد هذه الكلمة عن غرضها وينئيها عن قصدها ولكنها أمثلة لا أود — بحال — أن تشين هذا الوجه الجميل ، لهذا العمل الأدبى اللغوى الجليل :

* جاء فى صفحة ٢٥٨٥ اسم أوس بن حُجْر بضم الحاء ، وسكون الجيم ، وهو خطأ

والصواب : حَجَرَّ بفتحتين (انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة) وتبصير المنتبه لابن حجر ١-٤١٢، والأعلام للزركلي).

جاء في صفحة ٢٥٢٤ (وهو أصوار) على وزن أفعال وهـو خطأ وصوابه : (أصور) على وزن أفعل أي مائل العنق . فالألف زائدة . وأرجو أن تكون من أخطاء الطبع .

جاء في صفحة ٢٥١٨ هذا البيت الآتي مشكولا هكذا : —

فأقسمتُ لا أحتلُّ إلاَّ بصهوةٍ
حرامٍ علَيَّ رَمْلُهُ وَشَقَائِقُهْ

بضبط الميم من (حرام) بكسرتين على توهم أنها صفة لصهوة . وهو خطأ بين فهي يجب أن تضبط بالرفع : أي بضمتين ، على أنها خبر للمبتدأ : رمله ، أو أنها مبتدأ خبره ما بعده .

جاء في صفحة ٢٢٩٢ هذا البيت التالي مضبوطا بالشكل هكذا :

تهوَى حياتي وأهوَى موتَها شَفَقاً
والموتُ أكرم نُزَّال على الحُرَم

بضم النون من كلمة (نزال) ، على توهم أنها جمع ، والصواب أنها (نزال) بفتح النون لأنها صيغة مبالغة من الفعل (نزل) وليست جمعا لنازل .

في صفحة ٢٢٥٢ ورد بيت الشاعر «القطامي» هكذا :

لمَن الكواعبُ بَعْدَ يوم وَصَلْتنِي
بشرى الفرات وبعد يوم الجوسَقِ

بتاء المخاطب ونون في الفعل : (وصلتني) والأصح والأنسب : «وصلتني» بنون النسوة وبعدها نون الوقاية . وكان يجب إثبات هذه القراءة في الأصل .

جاء في صفحة ٣١٥٢ اسم عبد الله ابن الزَّبير[1] الشاعر الأسدي بفتح الزاي مع « ال » التعريف وقد جاء هذا الاسم في «طبقات» الشعراء لابن سلام بدون (ال) كما جاء في « حماسة أبي تمام » وفي « تبصير المنتبه » بال . . . فليت المحققين للسان العرب أثبتوا هذا الفرق وحققوه .

ورد في صفحة ٢٣٠٢ هذه العبارة : (وأنشد لعمرو بو ملقط)، فمن هو (بو ملقط هذا ؟) أهو مغربي ؟ لا : إنه شاعر جاهلي ، وصواب اسمه : عمرو بن ملقط ويكشف عنه في بعض كتب الطبقات والتراجم تحت اسم عمرو بن ثعلبة .

في صفحة ٢٥٢٠ كان يجب على المحققين الوقوف عند بيت :

أظلوم إن مصابكم رجلاً
أهدى السلام تحية ظلم

(١) هو بالطبع غير « عبد الله بن الزبير » — بضم الزاي الذي بويع بالخلافة سنة ٦٤ هـ بعد موت يزيد بن معاوية.

والإشارة إلى أنه من شواهد النحو على إعمال المصدر عمل الفعل والإشارة كذلك إلى أن ابن هشام النحوى قد جارى «الحريرى» خطأ فى نسبة البيت إلى الشاعر «العرجى» مع أنه للحارث بن خالد المخزومى ، كما نبه على ذلك «ابن برى» فى حواشيه .

* جاء فى صفحة ٢٣٠٦ الشطر الآتى محكياً على لسان « الشاعر » ، والحق أن الشطر المحكى وهو : (ومن عضة ما ينبتن شكيرها) هو مثل عربى قديم أورده « أبو هلال العسكرى » فى جمهرته ، كما أورده الميدانى فى « مجمع الأمثال » ، وإن كان ابن سلمة لم يورده فى كتابه « الفاخر » . ولفظ المثل : (فى عضة ما ينبتن شكيرها) وقد جاء عند الميدانى فى باب الفاء . ويضرب فى شبه الولد بأبيه .

* فى صفحة ٢٤٤٦ جاء شطر لبيت من شعر حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو : (يبارين الأعنه مصعدات) . وكنت أود من المحققين إكمال البيت كله فى تعليقهم بالهامش كعادتهم فى إيراد أنصاف الأبيات ، إفادة للقارىء ، وطرداً للباب على نسق واحد والبيت هو :

يبارين الأعنة مصعدات

على أكتافها الأسل الظماء

* فى صفحة ٢٢٤٦ ماعزى إلى ابن الأثير صاحب « النهاية » من أنه ذكر سورة « المؤمن » بدلا من سورة « المؤمنون » غير صحيح . فالحق أن ابن الأثير ذكر (المؤمنون) ، ولكن النساخ حرفوها إلى « المؤمن » . وفرق بين السورتين . (انظر النهاية ج ٢ — ٤٦٥) .

صفحة ٢٢٥٧ جاء قول صاحب اللسان : (وربما زادوا فى الشسع نوناً ، وأنشد :

أحدو بها منقطعاً شسعنى

فأدخل النون) . وكان يجب على المحققين الأفاضل التنبه والتنبيه فى الهامش — كعادتهم — على أن النون الزائدة هنا مشددة لا مخففة ، ولو كانت مخففة لخففت قبل ياء المتكلم .

* جاء فى صفحة ١٩١٢ بيت الشاعر ابن الأحمر مضبوطاً بالشكل هكذا :

فكنّا وهمُ كابنى سبات تفرقا

سوى ثم كانا منجداً وتهامياً

بضم الميم من الضمير (وهم) . وهذا خطأ فى الضبط يكسر وزن البيت ، والصواب إسكانها .

* جاء فى هامش صفحة ٢٩٤٨ هذا الشطر : (مرسعة وسط أفارغة) ، وهو خطأ أظنه جاء من منضد الحروف بالمطبعة تقديماً وتأخيراً والصواب : « أرفاغه » جمع رَفْغ

* ورد فى صفحة ١٨٥٥ هذا البيت الآتى لشاعر قديم غير معروف :

يتقارضون إذا التقوا فى موطن

نظرا يزيل مواطن الأقدام

ورواية (يزيل) هنا غير مناسبة ولا مقبولة ولو أنها جاءت هكذا في « شرح الحماسة» للمرزوقي ، وفي « البيان والتبيين » للجاحظ و « الصناعتين » لأبي هلال . وأفضل عليهن رواية نسخة كوبريلي المخطوطة من « بيان » الجاحظ ، وهي : (يُزَلّ) من الفعل : أزلّ ، لامن الفعل : أزال . وبعد ! فقد رأيت من الوفاء « للسان العرب» ؛ في طبعته الجديدة الرائعة ، ومن البر للقوم الذين أصدروه ، وللثلاثة الذين حققوه ، أن أخص به هذا الفصل تعريفاً سريعاً به ، وعرضاً وجيزاً له ؛ وتحية لمعجم عربي جامع ، وكنز لغوي ثمين ، رأى القائمون على أمر نشره في دار كبيرة أن يصدروه في ثوب يلائمه ، وفي حلة من التحقيق تليق به ، كما رأى القائمون على النشر في دار بريطانية كبيرة أن يعيدوا إصدار معجم « صموئيل جونسون» للغة الإنجليزية في بزة جديدة ، وفي هذه الأيام بالذات ، وصلاً ما بين ماضي التراث وحاضره ، ومداً لسلسلة الفكر الإنساني الخالد على توالي العصور ؟

محمد عبد الغني حسن

عضو المجمع

